نويـــل إيلـــي

فتيات هادئات جداً



DARK MAN

تمت الترجمة بواسطة





إلى لوك وماكس.

سأسبح نحو الأمواج من أجلكما.

1

جيسا

« راود صوفيا كابوسٌ آخر...»

كانت تلك الجملة القاطعة كلَّ ما احتواه نصّ الرسالة.

أطلقت حافلة الرعاية النهارية لمرحلة ما بعد المدرسة أنينًا متذبذبًا حين أطفأتُ المحرك، وأطلقت تنهيدة لخصت حالتي بدقة متناهية: إرهاقٌ يهدّ الكاهل، وحياةٌ تراوح مكانها دون أدنى أمل في التقدم.

فككتُ حزام الأمان، وحنيتُ جسدي عبر الممر الأوسط لأحشر هاتفِي المحمول بقوة تتجاوز ما يتطلبه الأمر داخل الخزانة المكتوب عليها **السيدة جيسا.**

كنتُ أعلم يقيناً ما تعنيه تلك النقاط المتتابعة، دون أن تتجشم أختي عناء الشرح.

طفلتي، **صوفِي**، راودها كابوسٌ آخر... كابوسٌ أكون أنا بطلته.

نفثتُ ألمي في زفرة حارة، واستندتُ بجسدي إلى الخلف على مقعد السائق، شاخصةً ببصري نحو الأبواب المزدوجة للمبنى الرئيسي لمدرسة **نورث ريدج** الابتدائية. كنتُ قد وصلتُ مبكرة عن موعد الجولة الأولى لنقلّ الطلاب، ولكن بفارق زمني ضئيل للغاية.

أدرتُ نظري مجدداً نحو مربعات الخزائن المصنفة أفقياً ورأسياً بأربعة صفوف، والتي أُضيفت حديثاً فوق المقبض الجانبي بجوار باب الحافلة مباشرةً. كلُّ خزانة كانت مزودة بباب صغير من اللدائن الشفافة، وموسومة باسم يعود لأحد الطلاب الذين سيتدفقون بعد قليل عبر الأبواب الزرقاء اللامعة للمدرسة بمجرد أن يدوي جرس النهاية.

وفوق تلك الخزائن، ثُبِّتت لافتة خُطت عليها عبارة: «هذه الحافلة منطقة خالية من الهواتف!» بحروف أرجوانية ملتوية وطفولية، تقوسَت فوق الشعار الرسمي لـ **مركز برايت بيجينينغز لرعاية الأطفال**: مجموعة من الأطفال يشخصون بأبصارهم بمحبة وشغف، نحو قرص الشمس مباشرة.

تمتمتُ بيني وبين نفسي بنبرة تهكمية:

«مشرقون للغاية.»

كانت هذه جملتي الأثيرة التي أكررها كل يوم منذ بداية الأسبوع. إذ كان من المفترض أن يستلم مركز الرعاية أسطولاً جديداً من الحافلات عما قريب؛ ولعلهم يستبدلون هذا الشعار أيضاً.

حين استلمتُ هذا العمل – قبل أسبوع واحد فقط – علمتُ أن لدى المركز سياسة صارمة حيال حظر الهواتف على السائقين والطلاب على حد سواء. لم ينطوِ الأمر على أي إزعاج بالنسبة

لي، بيد أن ما أدهشني حقاً هو حجم الأطفال في المرحلة الابتدائية الذين يمتلكون هواتف بالفعل. أحدهم في الصف الأول، واثنان في الصف الثالث، وجميع طلاب الصف الرابع باستثناء واحد فقط!

رمقتُ الخزائن بنظرة خاطفة، وراودتني فكرة أن أمد يدي إلى الخزانة الموسومة باسم **السيدة جيسا** لأخطّ رداً سريعاً على رسالة **ليسا**. أعلم تماماً أن الواجب يقتضي أن أطمئن من أختي على حال **صوفِي**، وأن أستفسر عن إمكانية عرجي على المنزل بعد انتهاء جولتي، ربما أحضر معي الشطائر للعشاء، أو على الأقل أستقصي تفاصيل هذا الكابوس الذي يقض مضجع طفلتي ذات السنوات التسع.

كان هذا هو التصرف القويم، التصرف الذي تجدر بالأم الصالحة صنيعه. بيد أنني خذلتُ هذا المفهوم كثيراً في الآونة الأخيرة.

كنتُ ممتنة لحقيقة أن **صوفِي** تمكنت من العيش برفقة **ليسا** بدلاً من أن تتلقفها دور الرعاية الاجتماعية، لكن كان يدمي قلبي – رغم كل شيء – أن أضطر للاستفسار عن أحوال طفلتي عبر وسيط، وكأننا نلعب لعبة «الهاتف الخشبِي»، طوال السنوات الثلاث الماضية.

لذا، تركتُ الهاتف مكانه في الخزانة، وعدلتُ جلستي في المقعد، أشرأب بعنقي لأتفحص في ملامح وجهي عبر المرآة العاكسة، تحت الضوء الساطع والأخّاذ لظهيرة متأخرة. رسمتُ ابتسامة قسرية لم تبلغ عينيّ قط، ومسحت حبات العرق التي تتجمع تحت قصّة الشعر الأمامية الكثيفة التي قصصتها بنفسي قبل عودتي إلى آيداهو بثلاثة أشهر.

كانت تلك القصّة خطأ آخر يُضاف إلى قائمة أخطائي.

كنتُ أصبو للحصول على مظهر أكثر حيوية وشباباً، غير أنني لم أحظَ بأي منهما. ومع صبغة الشعر المعبأة التي تباهت بلون «الماهوجني الفاخر» والتي أنفقتُ عليها بلا تدبر، أضحت تلك القصّة لتبدو وكأنني أرتدي حلقة شعر مستعار أحمر فاقع فج فوق شعري الأشقر القديم ذي المفرق الأوسط. قبل تلك الجريمة الشنعاء بحق شعري، كان مظهري يعكس تماماً سنوات عمري الثماني والثلاثين؛ أما الآن، فأنا أبدُ كمن تجاوزت منتصف الأربعينيات.

خطر لي بكثير من الأمل: *ربما كان لون شعري هذا هو السبب وراء كوابيس صوفي، لأن مظهري تغيّر كلياً عما عهدتني عليه.*

لكنني طردتُ الخاطر جانباً قبل أن يتمكن مني، فأنا أعرف الحقيقة جغرافياً ونفسياً؛ لم يكن هذا هو السبب قط.

كلاااااااااااانغ!

«سحقاً.»

جفلتُ إثر هذا الصوت – الذي يشبه ضربة صنج منه إلى جرس مدرسي – والذي أعلن انقضاء اليوم الدراسي. أعدتُ المفتاح إلى مجرى التشغيل، متجاهلة احساس قلبي المتسارع وحشرجة التوتر التي أخذت تفور في أحشائي.

همستُ تحت أنفاسي وأنا أحاول الحفاظ على الابتسامة المرتسمة على وجهي أثناء سحب المقبض لفتح أبواب الحافلة: «تجاوزِي الأمر فحسب.»

بعد أسبوع في هذه الوظيفة، بات يلازمني شعور أكثر ثقة بقدرتي على السيطرة على هذه الحافلة المترنحة والتعامل مع الصغار. حتى إن هذه الثقة الضئيلة تعد إنجازاً بالمقارنة مع نوبة الهلع الكاسحة التي اعترتني في اليوم الأول.

تمتم صبي صغير رزين ذو شعر اصهب ونمش يغطي وجهه وهو يطأ درجات الحافلة، وتعلقت عينان ببطاقة اسمي المعلقة بالقرب من عداد السرعة:

«أهلاً، **سيدة جيسا**.»

أجبتُه فور أن رأيتُ الخزانة التي أودع فيها هاتفه:

«أهلاً يا **كيد**.»

كيد! من هذا الذي يسمي طفله على اسم ماركة أحذية؟

اندفعت طفلتان بخصلات شعر سوداء مجعدة ومبعثرة عبر الرصيف لتصعدا الحافلة خلف **كيد**: **سيدج**، فتاة ممشوقة القوام في الصف السادس، وأختها **بوني** – التي في الصف الأول وتعد ظلها الملازم.

صنعتُ ابتسامة ممشوقة على وجهي ثم شخَصتُ بعيداً. بشعرها الطويل ونمشها ونظارتها الوردية السميكة، كانت **بوني** تبدو وكأنها النسخة القديمة من طفلتي **صوفِي**؛ أما **سيدج**، بشعرها القصير وثقوب أذنيها، فكانت تبدو كالنسخة االحديثة منها.

قلت بنبرة مفعمة بالحيوية، وأنا أستشعر الفخر بلحاقي بأسمائهن وإظهار هذا النشاط:

«أهلاً **سيدج**، أهلاً **بوني**.»

تجاهلتني **سيدج** تماماً وقالت لأختها:

«اجلسي مع **روز** فحسب.»

ثم ارتمت على مقعد الصف الأمامي واضعة حقيبت ظهرها في المساحة المجاورة لها.

تذمرت **بوني** قائلة:

«لكنني أريد الجلوس هنا.»

تنهدت **سيدج** بنزق وكأنما يُطلب منها التبرع بكليتها:

«أنا أحجز هذا المقعد.»

ردت **بوني** بانتصار:

«قالت **السيدة جيسا** إن حجز المقاعد ممنوع، هذا يخالف القواعد.»

ومن خلفها على درجات الحافلة، أومأت فتاة صغيرة ذات شعر أشقر بقصة مستديرة برأسها بقوة:

«أجل، لا يمكنك حجز المقاعد يا **سيدج**.»

كان هذا صحيحاً من الناحية النظرية، لكنني لم أكن أملك أدنى فكرة عن كيفية تطبيق تلك القاعدة فعلياً! لم تتطرق فترة تدريبي لهذا الأمر، وكانت قسمات **سيدج** تتنضح بالتحدي، مما أنبأني بأنها على وشك إشعال جدال. لذا قلتُ:

«**سيدج**، ضعي هاتفكِ في الخزانة. **بوني**، لمَ لا تجلسين في مكان آخر اليوم؟»

اتسعت عينا **بوني** البنيتان، وكنتُ أعلم معنى تلك النظرة ملياً. إن لم يتغير شيء فوراً، فستنفجر في البكاء. زفرت همساً: «لكن... أردتُ أن أريها مجسمي الصلصالي، لقد صنعناه اليوم في حصة الفنون.»

وجهتُ إلى **سيدج** نظرة استعطاف بينما شخَصت بعينيها إلى الأعلى وقامت لتنزلق بهاتفها الوردي داخل الخزانة التي تحمل اسمها. *أرجوكِ يا صغيرة، كل ما أبتغيه هو قيادة هذه الحافلة اللعينة، بل إنني لا أرغب حقاً في فعل ذلك حتى.*

ولدهشتي الجمّة، أذعنت الفتاة.

تمتمت **سيدج** وهي تقلب عينيها مجدداً، بينما انسلت **بوني** من حولها لتستقر على مقعدها:

«حسناً، وما هذا المجسم الصلصالي على أي حال؟»

عندما تفقدتُ الهواتف واستقرت جميعها في الخزائن – باستثناء هاتفين لغائبين عن اليوم – نظرتُ عبر المرآة الجانبية الضخمة لتلتقي عيناي بعيني معلمة كانت تقف عند الرصيف بالقرب من الحافلة مع صف من الطلاب لانتظار أولياء الأمور.

لوحتُ لها بيدي وابتسمتُ بحماس يتجاوز الحد المطلوب. أمالت رأسها ولوحت بالرد لكن دون أن تفتر إبتسامة على ثغرها.

سحقاً. غيرتُ مبدل السرعة وانطلقتُ ابتعد عن الرصيف أسرع مما كنتُ أنوي. وجاءت سيول الأفكار غير المنطقية تترى كما كانت تفعل في كل مرة يرمقني فيها أحدهم بنظرة مريبة:

إنها تعلم أنكِ كذبتِ في طلب التوظيف. إنها تعرف ما اقترفتِهِ.

خففتُ الضغط على دواسة البنزين وكبحتُ جماح الهلع الداخلي.

اهدئي، إنها مجرد معلمة، وليست قارئة أفكار.

وحين جازفتُ بنظرة أخرى في المرآة، كانت المعلمة قد انشغلت بمساعدة صبي صغير في البحث عن شيء ما داخل حقيبته.

أجبرتُ نفسي على سحب نفس عميق وأعدتُ بؤرة نظري إلى الطريق.

قاطعت **بوني** حديثها المتواصل عن شخصيتها الصلصالية وناجت **سيدج** بنبرة خافتة:

« **السيدة جيسا** تقود مثل أمنا.»

ردت **سيدج** بيقين لا يقبل الشك:

«هكذا تقود الأمهات جميعهن.»

سعلتُ لأداري ضحكة أفلتت من بين شفتي، وتفقدتُ سرعتي وأنا أعطف نحو الطريق السريع الريفي.

كان مركز **برايت بيجينينغز** لرعاية ما بعد المدرسة والأنشطة الترفيهية يبعد مسافة ثلاثين دقيقة بالسيارة عن مدرسة **نورث ريدج**، بما في ذلك الانعطاف لالتقاط طالب آخر من مدرسة **ساوث ريدج** الابتدائية. كانت الظهيرة حارة، لكن مع تشغيل مكيف الهواء على أقصى درجة وركوب الأطفال بأمان في السيارة، أصبحت الرحلة الآن ممتعة تقريبًا. لقد نشأتُ في أيداهو، لكنني كنتُ خارج الولاية لفترة طويلة بما يكفي لأنسى مدى حبي الدائم لجمالها البسيط. كان الكثير من الناس يشتكون من التلال البنية القبيحة التي تنتشر فيها نباتات الميرمية، والتي تقطع تجمعات العشب الأخضر الباهت، لكن هذا المشهد كان يبدو لي مألوفًا جدًّا وبرّيًّا بشكل جميل في آن واحد.

اعتدلتُ في جلستي فوق مقعد السائق المتكتل، وألقيتُ نظرة خاطفة على الصغار في الخلف، وسمحتُ لنفسي بأن أشعر

بأنني طبيعية لمدة نصف ثانية. متظاهرة بأنني مجرد أم أخرى تشغل وظيفة بدوام جزئي؛ متظاهرة بأن طفلتي **صوفي** واحدة من هؤلاء الأطفال الذين يجلسون خلفي، بدلاً من أن تكون في حافلة أخرى تقلها إلى منزل أختي.

مع كل دورة للعجلات على الإسفلت، كنتُ أردد التعويذة النفسية التي قرأتها في تدوينة إلكترونية بعنوان: «9 حيل علاجية يمكنك تجريبها في المنزل»:

أنا أتقبل ماضيي، وأفهم حاضري، وأتطلع إلى مستقبلي.

لكنني توقفتُ عن ترديد العبارة حتى قبل أن أصل إلى المخرج حيث يتقاطع الطريق السريع مع النهر متجهاً إلى **بويسي**.

لم أكن متقبلة لأي جزء من هذا الواقع.

هززتُ رأسي، ثم عدتُ بتركيزي إلى الطريق بينما كنتُ أنعطف من الطريق السريع إلى الطريق الريفي الخالي.

كانت محطتي الأخيرة لالتقاط طالب واحد فقط في مدرسة **ساوث ريدج** الابتدائية تقتضي الإنعطاف لمدة عشر دقائق داخل المناطق النائية. ولقد تهتُ في المرة الأولى التي سلكتُ فيها هذا المسار، وتخبطتُ عبر الطرق المنحنية في أرياف المنطقة وأنا أستشعر الهلع، ومستبدة بي الرهبة من تناول هاتفي من الخزانة لاستخدام الخرائط، إذ كان أي طفل سيفشي أمري حتماً.

من المفترض أن يجهز مركز **برايت بيجينينغز** أسطول حافلاته الجديد بنظام ملاحة في لوحة القيادة عما قريب، ولكن في الوقت الحالي، يتعين على السائقين الإلمام بمساراتهم جلياً.

وفي المدى البعيد، برزت شاخصة برتقالية تتوسط الطريق. هل ثمة أعمال صيانة في الطريق؟ كان الموقع أبعد من أن تتضح معالمه.

كززتُ على أسناني بحنق، وضغطتُ على دواسة البنزين لأزيد من سرعة الحافلة قليلاً.

عند هذه النقطة من حياتي، أضحت حياتي بأكملها مجرد انعطافة إجبارية، وآخر ما كنتُ أحتاجه بحق، هو انعطافة أخرى على الطريق.

2

سيدج

«لكن أُمي قالت...»

رمقتُ **بوني** بأبشع نظرة حادة أعرفها، وانحنيتُ بجسدي جانباً لأتطلع عبر نافذة الحافلة، مع أن القيام بذلك كان يصيبني بدوار السفر دائماً.

كنتُ أعلم يقيناً ما قالته أُمي، نفس الكلام الذي كانت تقوله منذ ولادة **بوني**: «هيا يا **سيدج**، دعي **بوني** ترافقكِ»، أو «اعتني بأختكِ يا **سيدج**»، أو «الأصدقاء يروحون ويجيئون، أما الأخت فتبقى للأبد».

لكن الأقدار سخرت من أمي، فلم يكن لدي أصدقاء أصلاً. فمنذ أن تفاقم مرض ألزهايمر لدى جدي وأضحى عاجزاً عن رعايتنا بعد المدرسة، أصبحتُ أقضي كل يوم في حافلة الرعاية النهارية الغبية هذه برفقة **بوني** والرضع.

كانت تلك تحية **ميا** لي في الملعب حين ترغب في إثارة غضبي بشدة: «**بوني** والرضع»، وكأنه اسم فرقة غنائية مبتذلة تُعزف مقاطعها على قنوات الأطفال!

كنتُ أطول طفلة في حافلة **برايت بيجينينغز** بفارق سنتين كاملتين. وبساقَيّ الطويلتين النحيفتين اللتين استطالتا بغتة في

الصيف الماضي لتجعلا مني أطول طالبة في الصف السادس، كنتُ أبدُو أكبر سناً حتى من عمري الحقيقي.

كان جدي يكرر دائماً أن الصف السادس لم يُخلق ليكون جزءاً من المرحلة الابتدائية، إذ لم يكن الأمر كذلك إبان طفولته. وكنتُ أوافقه الرأي تماماً. وكان السبب الوحيد الذي سيمنعني من الذهاب إلى دار رعاية **برايت بيجينينغز** برفقة **بوني** بعد المدرسة في العام القادم، هو أنني سأبلغ أخيراً سن الثانية عشرة وأنتقل إلى المرحلة المتوسطة؛ حتى إدارة **برايت بيجينينغز** نفسها تدرك أن سن الثانية عشرة أكبر بكثير من أن يُقضى في دار رعاية أطفال!

كان اليوم يوم السباحة، وهو اليوم المفضل لدي عادةً. فالمنزلق الأزرق الملتوي في المسبح المغلق كان سريعاً لدرجة تجعل مياه المسبح تتدفق بقوة إلى ملابسك إن لم تتخذ حذرك. والأهم من ذلك، أن الأطفال الكبار – الذين يجيدون السباحة حقاً – كان يتم فرزهم بعيداً عن الصغار الذين يُلزمون بالبقاء في المسبح الضحل. لكن في الأسبوع الماضي، دفع طالب في الصف الثالث يُدعى **كينان** أختي **بوني** نحو المنزلق، لذا رغبت أمي هذا الأسبوع في أن أبقى برفقتها في مسبح الصغار، دون أي استخدام للمنزلق.

واصلتُ النظر عبر النافذة متجاهلة بقية ثرثرة **بوني**، وراقبتُ التلال السفلية وهي تتحول إلى صفوف ممتدة من أشجار الكرز فور خروجنا من الطريق السريع. لم تكن هناك ثمارٌ حقيقية على الأغصان بعد اليوم، فقد انقضى مهرجان الكرز في مدينة **إيميت** الشهر الماضي وانتهى موسم الحصاد، غير أنك إن ضغطتَ أنفك على شق النافذة، أمكنك أن تستنشق عبق الثمار الناضجة الأخيرة التي أفلتت من أيدي القطافين.

قالت **بوني** بغتة، مائلة بنصف جسدها نحوي حتى استُبدلت رائحة الكرز الذكية العذبة برائحة شطيرة زبدة الفول السوداني ومربى التوت التي التهمتها في الغداء، وكان بإمكاني رؤية لطخة حمراء صغيرة لا تزال تلطخ ذقنها:

« **السيدة جيسا** ألطف من **السيد إدوار**.»

تمتمتُ وأنا أصلب كتفي وأضغط أنفي مجدداً على شق النافذة: «وما أدراكِ إن كانت لطيفة أم لا؟» ثم تابعتُ: – «لقد سمحت لكِ بالجلوس بجانبي فقط لأنكِ كنتِ تسدين الممر الأوسط.»

لكن **بوني** كانت على حق رغم كل شيء، فأي شخص كان أفضل من **السيد إدوار**. فقد جعل **روز** تبكي في نهاية العام الماضي حين سقطت تفاحة من صندوق غدائها ودحرجت بطول ممر الحافلة لتنحشر تحت دواسة الفرامل. حينها ركن الحافلة على جانب الطريق وأخذ يصرخ ويشتم وكأنها تعمدت

فعل ذلك! وظل يكرر بنبرة حانقة وهو يحاول التقاط أجزاء التفاحة المهروسة ليقذف بها في الممر:

« تباً لهذا الخراء!» ثم أردف غاضباً: «سحقاً ملعوناً!»

لم أسمع بالغاً يستخدم هذا المزيج من الشتائم من قبل، ولا حتى جدي، وفي أي يوم آخر ربما كنتُ سأضحك، لكنه كان يبدو شديد الغضب والشراسة. خيم الصمت على جميع الأطفال في الحافلة، وهو أمر نادر الحدوث مطلقاً. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي يرى فيها أي شخص **السيد إدوار**، مما يعني حتماً أنه طُرِد من عمله.

تململت **بوني** على المقعد بجانبي. ولدهشتي، لم تضف أي كلمة أخرى عن **السيد إدوار** أو **السيدة جيسا**، بل سألت بدلاً من ذلك: «لماذا نتوقف؟»

اعتدلتُ في جلستي وانحنيتُ إلى الأمام لأتمكن من الرؤية عبر الزجاج الأمامي للحافلة. كنا لا نزال نتجه نحو بساتين الكرز – ونحو مدرسة **ساوث ريدج** الابتدائية لنقل الطالبة **أمبير جينسن**. لكن سرعتنا كانت تتناقص، ونحن لا نهدئ السرعة في هذا المكان أبداً.

ثم أبصرتُ اللافتة البرتقالية الكبيرة التي كُتب عليها «تحويلة إجبارية» مع سهم يشير إلى طريق ترابي ضيق يبدو وكأنه ينفذ عبر بستان الكرز مباشرة.

وعلى بعد مسافة قصيرة من اللافتة، ورابضة على جانب الطريق، كانت هناك حافلة صغيرة بيضاء اللون. وكُتب على جانبها: **سبيدي شاتل**.

بدا لي ثمة شيء مريب في تلك الحافلة. كدتُ أطلق مزحة لـ **بوني** بأن حافلة «النقل السريع» تلك ليست سريعة جداً في الوقت الحالي، لكنني كنتُ لا أزال غاضبة منها، لذا كتمتُ فمي.

أبطأت **السيدة جيسا** حركة الحافلة حتى أضحت تزحف زحفاً، مقربة إياها من لافتة التحويلة، وكأنها ترغب في تجاوزها بدلاً من الانعطاف يميناً كما تأمر اللافتة. كانت منحنية إلى الأمام، تتطلع عبر الطريق متجاوزة اللافتة نحو حافلة **سبيدي شاتل** المتوقفة.

ثم زفرت بحنق وكأن اللافتة وُضعت هناك لمجرد إزعاجها، وفعلت إشارة الانعطاف، ثم عطفت بالحافلة نحو الطريق الترابي الضيق داخل البستان.

أعلن **كيد** بصوت رتيب ولكن مرتعش من المقاعد الخلفية: «عفواً، هذا ليس الطريق الصحيح.»

كان **كيد** يحب إبداء رأيه في كل شيء دائماً. أعاد كلامه قائلاً: « **سيدة جيسا**، هذا ليس الطريق الصحيح.»

رمقت **السيدة جيسا** المرآة العاكسة الكبيرة بطرف عينها لكي تراه دون أن تستدير بجسدها على مقعد السائق، وقالت:

«لا بأس، هناك بعض أعمال الصيانة في الطريق... أو شيء من هذا القبيل.»

وبطرف عيني، رأيتُ **بوني** تنحني لتمد يدها داخل حقيبتها الظهرية وتخرج «مجسمها الصلصالي» مجدداً. كان عبارة عن شريط بني ملتوي وقبيح، يبدو لي أشبه بكتلة من القاذورات منه إلى مجسم إنسان، لكنني علمتُ أن **بوني** ستجهش بالبكاء إن أعلنتُ ذلك صراحة. قالت ببهجة وهي تشير إلى التعرجات الصلصالية الدقيقة في الأعلى:

«هل رأيتِ كيف صنعتُ له شعراً يا **سيدج**؟»

قلتُ، وأنا أبقي عينيّ موجهتين نحو النافذة بينما كانت الحافلة تكمل انعطافها، محاولًا أن ألمح براميل أو مخاريط برتقالية اللون في الأفق خلف حافلة **سبيدي شاتل**:

«أجل، رأيتُ ذلك.»

لكن الطريق بدا تمامًا كما كان بالأمس.

هززتُ كتفي وأعدتُ وجهي إلى الأمام.

لم أكن في عجلة من أمري للوصول إلى وجهتنا على أي حال؛ فالقيادة عبر بستان الكرز كانت أفضل بالنسبة لي من ان أكون جليسة الأطفال لـ **بوني** في مسبح الصغار بمركز الأنشطة.

ارتطمت العجلات بالطريق الترابي الضيق، وضحك بعض الأطفال عندما اصطدمنا بحفرة عميقة هزتنا في مقاعدنا.

ابتسمتُ متمنية أن يبقينا الطريق داخل البستان لفترة أطول. كانت رائحة الكرز الفائضة بالنضج تطوقنا من كل جانب الآن، وتذكرني بفصل الخريف. أغمضتُ عينيّ بينما تسللت تلك الرائحة عبر جميع النوافذ المفتوحة، بينما كانت الحافلة تحتك بأغصان الأشجار المورقة على جانبي الطريق.

ضغطت **السيدة جيسا** على الفرامل بقوة حين انحدر الطريق ثم انحرف بحدة جعلت **بوني** تتهاوى عليّ، ضاغطة أنفي نحو النافذة.

صاح أحدهم – ربما كانت **روز** مجدداً – ببهجة:

«هييه!»

تصايحتُ وأنا أفتح عينيّ وأبتعد عن النافذة وأفرك أنفي:

«آخ! الزمي جانبكِ يا **بوني!**»

قالت **السيدة جيسا** بصوت مرتفع سمع الجميع نبرته بينما تباطأت الحافلة ثم توقفت تماماً: «ما هذا بحق السماء؟»

شعرتُ بجسد **بوني** يتصلب بجانبي، ولا شك في أنها تذكرت حادثة التفاحة مع **السيد إدوار**.

انتشرت صيحات وشهقات خافتة بين أرجاء الحافلة.

في البداية، ظننتُ أن ذلك بسبب شتيمة **السيدة جيسا**.

لكنني اعتدلتُ في جلستي وشخصتُ ببصري عبر الزجاج الأمامي. كانت هناك شاحنة أخرى تسد الطريق الترابي الضيق

أممنا بالكامل. وكانت أضواء التحذير الرباعية فيها تومض باللون الأحمر.

انحنت **بوني** نحو الممر الأوسط لتتمكن من الرؤية هي الأخرى، وسألت: «ماذا يفعلون **سيدة جيسا** ؟»

التفتت **السيدة جيسا** بنصف دورة فوق كتفها لنحونا، وعقدت جبهتها حتى اختفت حواجبها تحت قصتها الحمراء الفاقعة. وتجاهلت سؤال **بوني**.

قلتُ لـ **بوني**:

«لا بأس، سيزيحونها عن الطريق بعد لحظات.»

غير أن الكلمات بدت وكأنها تعثرت في حلقي؛ فثمة شيء مريب في تلك الشاحنة الرمادية القبيحة وأضواء فراملها التي تتوهج باللون البرتقالي.

بدت **السيدة جيسا** منزعجة فحسب. أخرجت صوتاً مفعماً بالحنق من مؤخرة حلقها، وحلقت يدها فوق بوق الحافلة. تمتمت بغضب: «هيا بنا!» ثم ضغطت على البوق.

وعندما لم يتحرك شيء، مدّت يدها نحو مقبض تغيير السرعة لتعيد الحافلة إلى الخلف بسرعة وتتحرك متراجعة، تماماً كما رأيتُ أمي تفعل حين تتجاوز مكاناً جيداً لركن السيارة في المتاجر.

ثم ارتفع صوت آخر يطغى على همهمات الأطفال الخافتة. كان الصوت قادماً من خلف الحافلة... زئير محرك سيارة.

تحركتُ في مقعدي، وأدرتُ رأسي لأتطلع عبر النافذة الخلفية لمخرج الطوارئ. وفعل بعض الأطفال الآخرين الشيء نفسه. كانت النافذة هناك ملطخة بالأتربة، لكنها أظهرت ما يكفي. شاحنة بيضاء كبيرة تتقدم عبر الطريق.

توقفت الشاحنة خلف حافلة **برايت بيجينينغز** مباشرة، بزاوية مائلة قليلاً جعلتني ألمح بصعوبة الكتابة المنقوشة على جانبها: **سبيدي شاتل**.

تمتمت **السيدة جيسا** وهي تميل برأسها نحو شعاع شمس جعل خصلة من شعرها تتوهج باللون الأحمر الفاقع:

« هل أنت جاد؟ »

طرق، طرق، طرق.

جفلتُ أنا و **بوني** إثر ثلاث طرقات قاسية انهالت على باب الحافلة. وصرخت إحدى الفتيات الصغيرات فزعاً.

أصدرت **السيدة جيسا** صوتاً وكأنها شرقت برشفة ماء وهي تشخص ببصرها عبر زجاج باب الحافلة.

ضغطتُ وجهي بقوة على النافذة لأرى بنفسي.

وعلى الناحية الأخرى من الممر، شهق **كيد** شهقة حبست أنفاسه، ثم قال بنبرة مرعوبة: «هناك رجل... ويحمل سلاحاً!»

3

شينا

انفرج باب مكتبي المنزلي بضعة بوصات محدثاً صريراً خافتاً، ثم انفتح على مصراعيه.

كززتُ على أسناني، غير أنني نجحتُ في تحويل عبوسي إلى ابتسامة واهية حين وقع نظري على صورة **بوني** و **سيدج** المعلقة بجوار الباب، والتي تُذكرني دوماً بأن أكون إنسانة فضل.

كان والدي يقف عند العتبة، يرمقني بنظرة ينضح منها اندهاش خفيف، وكأنه لم يكن يتوقع تماماً أن يجدني عند مكتبي – رغم أننا كررنا هذا المشهد أربع مرات هذا اليوم!

رفع ذراعه، ونقر على الساعة القابعة في معصمه، ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة:

«هل أنتِ متأكدة من أنني أستطيع تحمُّل تكلفة هذه الساعة يا **شين؟** راتبي التقاعدي ممتاز بحق، لكنه ليس بهذا الثراء!»

حفظت جدول البيانات على جهازي، وأدرت كرسيي لأواجهه. سأعطيه الإجابة التي يبحث عنها، حتى لو لم تكن صحيحة تمامًا.

قلتُ له بصدق، محاولة الحفاظ على نبرة خفيفة ومحايدة كما دربني طبيبه: «إنها تناسبك تماماً يا أبي. لقد عملتَ بجد طوال حياتك، وأنت تستحقها بحق.»

كان ذلك حقيقياً أيضاً، فقد أمضى ثلاثين عاماً في خدمة شرطة ولاية آيداهو برتبة ملازم.

استند إلى إطار الباب، متكئاً بظهره، ولا تزال ذراعه مرفوعة حيث تتألق الساعة تحت الضوء. وكانت الابتسامة الساخرة المرتسمة على وجهه – وهي الابتسامة ذاتها التي تقتسم قسماته في كل مرة يسألني فيها هذا السؤال – تخبرني بمدى شغفه بهذه الساعة ذات المظهر الثمين. وكنتُ أستشعر وخز الذنب في كل مرة أفكر فيها بتفعيل خاصية تتبع المواقع (GPS) فيها؛ إذ سيعلم حينها أنها ليست ساعة «رولكس» حقيقية. غير أنه، ومع تسارع وتيرة الأمور مؤخراً، كان سينسى ذلك بالسرعة ذاتها.

شُخِّصت إصابة أبي بمرض ألزهايمر قبل عامين، بعد خمس سنوات من تقاعده من جهاز الشرطة. كان التشخيص بحد ذاته مفجعاً ومروعاً، لكنه كان فريداً بأسلوبه الخاص أيضاً. فخلال السنوات الأولى، شعرتُ وكأنني أتعرف عليه أخيراً؛ ليس فقط بصفته أبي، بل كإنسان مجرد.

طوال فترة نشأتي، كان كتوم و صامت حيال قضاياه وما يتكابده كضابط شرطة. لكن حين انتقل للعيش معنا، تغير كل شيء.

انفتح على الحياة وأخذ يروي حكايات لم أسمع بها قط من قبل. كان يردد دائماً: «قبل أن أنسى يا **شين**...»

غير أن الشخص الذي كان عليه حينها بات يبدو وكأنه ذكرى بعيدة المنال. فعندما جاء للعيش معنا بعد تشخيصه بفترة قصيرة، كانت هفوات نسيانه تبدو مجرد إزعاج بسيط – لا شيء يبعث على الخوف الشديد.

وعلى مدى عام ونصف، استقر بنا المطاف في نمط حياة جديد توهمتُ أنه سيدوم للأبد. كان أبي سنداً كبيراً في رعاية **بوني** و **سيدج**، إذ كان يقل الصغيرتين من المدرسة بعد انتهاء الدوام، بل ويساعد في إعداد الوجبات – وهو أمر لم يفعل مثله قط إبان طفولتي. وكانت **بوني** و **سيدج** تحبان الاستئثار بجدهما طوال وقت عملي.

ولكن خلال الأشهر القليلة الماضية، أضحت حكايات أبي مكررة لدرجة تجعل معدتي تعتصر حنقاً حين يميل برأسه ويقول: «**شين**، هل أخبرتكِ يوماً عن تلك المرة التي...»

لم أكن أمانع سماع القصص مجدداً، بيد أنها كانت تذكرة مستمرة بأن المرض يلتهم ذاكرته متسارعاً كل يوم.

توقفتُ عن الشعور بالارتياح لتركه يقترب من الموقد، ناهيك عن جلوسه خلف عجلة قيادة السيارة. لم يعد بإمكاني ترك الفتاتين بمفردهما معه، مما ألمح إلى ضرورة إعادتهما إلى دار

رعاية ما بعد المدرسة – وهو أمر أزعج **سيدج** لدرجة أنني لا أزال أستشعر الغثيان كلما تذكرتُ دموع الغضب التي انهمرت على وجهها حين أخبرتها بذلك أول مرة.

«أبي، أحتاج فقط إلى إنهاء هذه الميزانية قبل أن نذهب لاصطحاب الفتاتين من دار الرعاية، اتفاقنا؟ هل لكَ أن تتفقد أحوال **كارين** من أجلي؟»

«أين تختبئ تلك العجوز النكِدة على أي حال؟»

أشرقت عيناه عندما ذكرت القطة العصبية، والتفت ليعود أدراجه عبر الممر دون جدال. تنفستُ الصعداء وأعدتُ بؤرة نظري إلى جدول البيانات، وأنا أعلم أن أمامي عشرين دقيقة على الأكثر قبل أن يعود مجدداً إلى العتبة.

إن واقع رعاية والِد مسن – والد مصاب بألزهايمر – باغتني بالطريقة ذاتها التي تباغتك بها رعاية الأطفال حديثي الولادة. كنتُ أعلم أن الأمر سيكون شاقاً، وأنه يستلزم جهداً مضنياً. بيد أنه لا توجد طريقة للاستعداد لتلك الصدمة القاسية القابعة في قضاء يومك مع شخص يعتمد عليك كلياً لتوفير الأمان، والغذاء، والرعاية. وخلافاً للرضع، فإن الأمر لا يزداد سهولة مع مرور الوقت. فالمرض يلتهمه بسرعة الآن لدرجة أنني – حتى مع أدويته – كنتُ أستشعر ذكرياته وهي تتسرب عبر شقوق سد يتداعى.

قبل بضعة أسابيع، أدرجتُ اسمه في قائمة الانتظار لـ **شيريشد هارتس**، وهي منشأة متخصصة وباهظة التكلفة في رعاية مرضى فقدان الذاكرة على مدار الساعة تقع في التلال السفلية، على بعد عشرين دقيقة من منزلنا. وكان راتبه التقاعدي يغطي تكاليفها بالكاد. لكنهم حذروني من عدم توقع وجود شاغر لشهور عدة على الأقل. وحتى ذلك الحين، لم يكن أمامي سوى الصمود.

رمقتُ الساعة على شاشة الحاسوب وهززتُ رأسي. كنت أخطط لإعداد وجبة عشاء حقيقية الليلة: كرات اللحم مع البطاطس المهروسة. بيد أنني لم أبدأ حتى في إذابة اللحم المفروم، والوقت المتبقي لاصطحاب الفتاتين من **برايت بيجينينغز** يقل عن ساعة. لقد اندفعتُ بكوابح سيارتي إلى موقف السيارات في الساعة الرابعة وتسع وخمسين دقيقة مرتين هذا الأسبوع، لأجد **بوني** و **سيدج** آخِر طفلين بانتظاري. كنتُ أحصد نقاط تقصيري كأم من كل حدب وصوب هذه الأيام!

تمتمتُ بحنق: «تباً.»

حاولتُ التركيز على جدول البيانات مجدداً، إذ كان يجب عليّ إنهاء الملف الليلة. فالفائض في ميزانية الولاية كان الشاغل الشاغل للجميع، وكنتُ أنا العقبة الوحيدة أمام اعتماد مقترح الميزانية النهائي. وهذا يعني التسبب في تقصير وظيفي أيضاً!

فتشتُ بين ركام الأوراق في خزانة الملفات المجاورة لمكتبي حتى عثرتُ على ما أبتغيه: العطاء الخاص بالحافلات الجديدة التي ستخدم عشر مناطق تعليمية في **تريجر فالي**، بضمنها مدرسة **نورث ريدج** التي ترتادها **سيدج** و **بوني**. كان المورد قد عدل المقترح مرتين خلال الشهرين الماضيين، وهو ما لم يكن ليشكل خطباً معقداً لولا أن العطاء لم يكن يقتصر على «حافلات» فحسب، بل كان يغطي كل تفصيلة من تفاصيل تشغيل الأسطول الجديد – بضمنها الإطارات، المحركات، المرايا، كاميرات الأمان الجديدة، الطلاء، ونحو ثمانين بنداً آخر!

لم أكن أمانع التعامل مع الأرقام، فالرياضيات كانت مادتي المفضلة دائماً. غير أن عينيّ بدأتا بالزغللة وأنا أتطلع إلى تلك الصفوف الطويلة التي تقتضي التحديث، والتدقيق، والمراجعة كلياً. ولم يكن أسطول الحافلات سوى بند واحد من مخصصات الميزانية. وكان جدول البيانات يحتوي بالفعل على خمسين تبويباً! ولحسن الحظ، لم يتبقَّ لي سوى خانات قليلة للتحقق منها اليوم.

سمعتُ مواءً مرحاً ينبعث من الممر، ثم أعقبه صوت أبي:

«ها أنتِ ذا يا **صن شاين!** ما رأيكِ في بعض المداعبات لقطتي المفضلة؟»

عضضتُ طرف خدي وركزتُ على الأرقام القابعة أمامي. كانت القطة تُدعى **كارين**؛ أما **صن شاين** فكان اسم القطة التي اقتنيناها حين كنتُ في مثل سن **سيدج**.

وبعد خمس عشرة دقيقة أخرى من الفحص والطباعة المتسارعة، أضحى مكتبي في حالة فوضى عارمة – بيد أن مقترح ميزانية الفائض بات أخيراً، وأخيراً جداً، جاهزاً للمراجعة من قبل اللجنة. وإن وضعتُ كيس اللحم المفروم في بعض الماء البارد أثناء اصطحابي لأبي لنحضر الفتاتين من دار الرعاية، فسيظل بإمكاني تقديم عشاء حقيقي على الطاولة الليلة.

ناديتُ من المطبخ وأنا أفتش في درج المجمد حتى لامست أصابعي كيس اللحم المتكتل:

«أبي؟ نحتاج لاصطحاب الفتاتين الآن.»

ألقيتُ الكتلة المجمدة في المغسلة وفتحتُ صنبور الماء:

«أبي؟»

وعندما لم يصلني منه رد، أغلقتُ الصنبور ودرتُ حول الأريكة في غرفة المعيشة لأجد أبي مستلقياً على الوسائد، بينما تعجن **كارين** مقدمة كنزته بصدرها وهو يعلو ويهبط مع أنفاسه. وكانت يده المغصنة – بساعتها الذهبية التي تتألق في معصمه

– تستقر على فرائها البرتقالي والأسود. كانت عينها مغمضتين، وفمه مرتخياً.

اعتصر قلبي ألماً؛ فالهالات تحت عينيه، والتي تبرز بوضوح فوق بشرته البيضاء والنمش الذي يزين ملامحه الأيرلندية، كانت تؤكد أنه يعاني من صعوبة بالغة في النوم خلال الأشهر القليلة الماضية. كان ذلك أمراً طبيعياً، كما قال الدكتور **كيتريج** – وكأن تلك الكلمة تخفف من وطأة المعاناة!

ولنصف ثانية، فكرتُ في تركه غارقاً في نومه برفقة القطة. رمقتني **كارين** بعينين خضراوين شبه مغمضتين وهي تموء بخرخرة خافتة، وكأنها تحذرني من زحزحة وسادتها البشرية.

وكانت دار **برايت بيجينينغز** تبعد خمس عشرة دقيقة فقط.

هززتُ رأسي رافضة الفكرة؛ فخمس عشرة دقيقة كانت كافية لكي يعبر سور الجيران الخلفي ويشرع في حصاد البطاطس من حديقتهم! أو يحاول تغيير زيت جزازة العشب – الجزازة الكهربائية! أو يمتطي دراجة نحو محطة الوقود أسفل الطريق ليفتعل شجاراً مع المحاسب بسبب الأسعار المرتفعة! أو يفرغ كل درج في المنزل بحثاً عن مسدسه وبطاقته الشرطية!

كل تلك الأمور حدثت بالفعل.

قلتُ مجدداً: «أبي.» ثم حملتُ القطة بدلاً من هز ذراعه. فقد أضحى يجفل بسهولة بالغة الآن، لا سيما حين يستيقظ من النوم.

ففي الأسبوع الماضي، كاد أن يوجه لكمة لـ **بوني** حين اندفعت إلى غرفة المعيشة لتريَه رسماً وايقظته من قيلولته.

رمش أبي بعينيه واعتدل في جلسته، وابتسم لي بعينين يغشاهما النعاس: «عذراً يا **شين**، لا بد أنني فقدتُ الشعور بالوقت.»

غمز بعينه وأومأ نحو الساعة: «قطعة معدنية لا فائدة منها.»

ابتلعتُ غصتي وابتسمتُ بإشراق. ففي بعض الأحيان، كانت اللحظات التي يبدو فيها شبيهًا بأبي القديم تؤلمني بالقدر ذاته الذي تؤلمني فيه اللحظات التي ينزلق فيها بعيداً عني.

تساءل وهو ينهض واقفاً ويفرك ذقنه ذات الشُّعيرات البيضاء القصيرة: «هل سيعود **جاكوب** إلى المنزل قريباً؟»

كذبتُ وأنا آخذ بيده لأساعده على النهوض من الأريكة:

«إنه يعمل حتى وقت متأخر الليلة. لن يكون هناك سوى أنا وأنت والفتاتان هذا المساء.»

كانت هذه هي الإجابة السديدة؛ فتذكيره بأنني و **جاكوب** قد انفصلنا منذ أن كانت **بوني** رضيعة لن يؤدي إلا إلى حديث طويل يبعث على كدره.

قال وهو يعقد حاجبيه بعبوس:

«لا بأس. لم يعجبني أسلوبه في الحديث معكِ ليلة أمس، إن أردتِ الحقيقة.»

تنهدتُ، وتوقفتُ عن محاولة قيادته نحو المرآب، وسحبته إلى عناق صامت دون كلمات.

لقد أضحينا متأخرين عن موعد اصطحاب الفتاتين حتماً الآن.

4

جيسا

سلاح ناري! إنه يحمل سلاحاً ناريًا!

كان يفصل بيننا حوالي خمسة أقدام، من المكان الذي كنت أجلس فيه في مقعد السائق إلى المكان الذي كان يقف فيه على الطريق الترابي، متكئاً على باب الحافلة.

لو أطلق النار من هذا السلاح، فلن يخطئ هدفه مطلقاً. وكان الشيء الوحيد الذي يفصل بيننا في هذه اللحظة هو قطعة واهية من الزجاج المتشقق، تتذبذب باهتزاز الحافلة كلما انطلقت على الطريق السريع.

ومع أبقاء السلاح مشهراً نحو رأسي مباشرةً، أشار إليّ بيده لكي أفتح الباب.

أطلق الصندوق الأسود في دماغي أوامر صارمة متتالية قبل أن أتمكن من استيعاب مجريات الأحداث كلياً:

افعلي ما يبتغيه. لا تعطِه سبباً لاستخدام ذلك السلاح. لا تفسدي الأمر برمته.

لم تتجاوز ثانية واحدة تلك اللحظة التي ترددتُ فيها ويدي معلقة على مقبض الفتح الخاص بالباب، غير أنها بدت لي وكأنها دهر سرمدي.

ومن خلفي، كان الأطفال يصدرون أصواتاً ملؤها الجزع، ويسألون عما يحدث. كنتُ أعلم أنه يتعين عليّ قول شيء يهدئ من روعهم، ربما طمأنتهم بأن كل شيء سيكون على ما يرام، بيد أن فكي كان متصلباً ومغلقاً بإحكام.

انحرفت عيناي نحو الخزائن المكتظة بالهواتف المحمولة—ثم عادت لتستقر على الرجل الواقف عند باب الحافلة. أخذ يلوح بالسلاح في يده بنزق مهدداً، وإصبعه يستقر على الزناد.

تطلعتُ إلى وجهه، ولا أزال مسمرة في مكاني.

كان يرتدي جورباً نسائياً ضيقاً يغطي رأسه بالكامل، يضغط أنفه وفمه إلى الخلف بشدة؛ كالمشاهد التي تُلتُقط للركاب في قطارات الملاهي المضيئة فور اندفاعها إلى الأسفل مسرعة وسط الرياح. وكان القماش المعتّم يحجب تفاصيل منخريه وفمه، بينما جعلته شمس الظهيرة يتلألأ قليلاً عند موضع العقدة المنعقدة أعلى رأسه. ولم يكن بإمكاني سوى لمح الموضع المفترض لعينيه بالكاد، إذ بدا كفجوتين داكنتين فارغتين.

ومع الاستمرار في توجيه السلاح نحو رأسي، باعد بين قدميه بفتحة تعادل عرض كتفيه متخذاً وقفة ثابتة. وصاح قائلاً:

«افتحي الباب فوراً يا عاهرة!»

من أين جاء هذا المعتوه بحق السماء؟ لم أرَ أحداً يخرج من الشاحنة التي تسد الطريق أمامنا.

تسارعت نظراتي نحو الحافلة البيضاء التي توقفت خلفنا بينما كانت خياراتي تدور في عقلي كالمغزل. لم تكن هناك مساحة كافية على جانبي طريق البستان الضيق لتجاوز الشاحنة الرمادية؛ ليس دون الاصطدام مباشرة بإحدى الأشجار التي تصطف على جانبي الطريق. وكانت الحافلة الصغيرة قريبة جداً منا من الخلف لدرجة أنني سأصطدم بها فور سحب مقبض الحافلة للرجوع إلى الخلف.

وفجأة، جعلتني رائحة الكرز المتعفن المتسربة عبر جهاز التكييف اشعر برغبة عارمة في التقيؤ.

هذا خطؤكِ أنتِ.

تراجعت معدتي رعباً إثر الخاطر، لكنها كانت الحقيقة المجردة. لقد كدتُ أتجاوز لافتة «التحويلة الإجبارية» الغريبة الواقعة في منتصف الطريق. لم أكن أرى أي أعمال صيانة أمامنا، وكانت هناك مساحة شاسعة تتيح لي الالتفاف حولها والمضي قدماً في مسارنا المعتاد.

وبدلاً من ذلك، شغّلتُ إشارة الانعطاف طواعية واقتدتُ الحافلة يساراً نحو البستان عبر هذا الطريق الترابي المتعرج والمريب.

لأنني فكرتُ: ماذا لو رآني شرطي وأنا أخالف لافتة المرور وأوقفني؟ ماذا لو تحقق من رخصة قيادتي، واكتشف هويتي الحقيقية—وأدرك أنه لا ينبغي لي مطلقاً أن أحظى بظيفة قيادة حافلة أطفال؟

لو حدث ذلك، لكان بإمكانه الإبلاغ عني لمسؤول الإفراج المشروط عني في ولاية يوتا—ولدار **برايت بيجينينغز**. وحينها سيعلم الجميع أنني كذبتُ في طلب التوظيف. ولن أستعيد طفلتي **صوفِي** مجدداً للأبد.

لذا، تجاهلت الوخز الحاد في أحشائي والذي كان يصرخ بي لتجاوز اللافتة.

وها هي النتيجة التي أوصلتنا إليها تلك خطوة.

نشج أحد الأطفال بنبرة باكية: «**سيدة جيسا؟**»

همست **بوني** لأختها على بعد أقدام خلفي: «**سيدج؟**»

وانطلقت جوقة من الصرير الصادر عن القماش الرخيص لمقاعد الحافلة مع تجثي المزيد من الأطفال فوقها، محاولين استكشاف ما يجري.

وأطلق أحدهم – لم أستطع تحديد هويته – ضحكة خافتة متوترة، وكأن الأمر برمته مجرد دعابة سخيفة.

طرق، طرق، طرق.

ضرب الرجل الزجاج بالسلاح مجدداً، بقوة أكبر من ذي قبل، مشيراً إليّ لأسمح له بالدخول: «إياكِ وأن تجرئي على لمس الهواتف!»

وأشار بيده نحو الخزائن الظاهرة لكلينَا والممتدة على طول المقبض الجانبي ودرجات مدخل الحافلة.

بدا أن الزمن يتباطأ بينما تتسارع الأفكار في رأسي وتتلاطم.

كان بإمكاني الوصول إلى الخزانة الصغيرة الموسومة باسم **السيدة جيسا** لو انحنيتُ عبر الممر الأوسط ومددتُ ذراعي.

بيد أنه كان قادراً على إطلاق النار عليّ قبل وقت طويل من تمكني من فتح باب الخزانة وإلغاء قفل شاشة هاتفي.

أدرتُ رأسي أدنى دورة ممكنة لألقي نظرة خاطفة على الأطفال برؤيتي المحيطية. كان يتعين عليّ فعل شيء ما؛ ولكن ماذا عساي أفعل دون أن أزيد الوضع سوءاً؟

دوى صوت الرجل المحمل بالسلاح : «افتحيه الآن!»

كانت يدي متعرقة فوق مقبض الفتح. قبضتُ عليه بقوة أكبر، وأنا أتساءل عما إذا كان زلقاً جداً بدرجة تمنعني من الفتح في هذه اللحظة.

شرع أحد الأطفال في البكاء، ومزق الصوت شغاف قلبي بأسلوب جعل من الصعب عليّ جسدياً منع نفسي من الاستدارة لتمتمة كلمات التهدئة.

هم لا يستحقون هذا الرعب.

لكنكِ تستحقينه أنتِ. فكرتُ بذات قصية بعيدة. *إنها الكارما*.

بدا الصوت القابع في رأسي يشبه تماماً صوت زوج أختي **جريج**. لو وضع هذا الرجل الملثم رصاصة بين عينيّ الآن، لقال إنه استراح مني أخيراً. ولكن، هل كانت **صوفِي** ستقول ذلك؟

كان بإمكاني بالفعل تخيل الصوت الذي سيصدره السلاح، فرقعة تصم الآذان تشبه صاعقة رعدية قريبة. غير أنني في هذه المرة، سأكون أنا من ينكفئ على نفسه، ويتداعى إلى الخلف ويهدأ للأبد.

بدأ الرجل يفقد صبره، بيد أنني لم أستطع التحرك.

وفجأة، أزاح السلاح عن رأسي ووجهه نحو نوافذ الحافلة:

«هل ستجبرينني على إطلاق النار على الأطفال؟»

كانت تلك الجملة هي ما أذاب جليدي أخيراً. بدأتُ في سحب المقبض الذي يفتح باب الحافلة.

أمال الرجل المحمل بالسلاح رأسه، وكأنه شعر بالرضا، وأعاد توجيه سلاحه ليكون مصوباً نحو رأسي مجدداً.

نادى صوت صغير مرعوب من خلفي، بالتزامن مع صوت انغلاق باب سيارة قادم من الخلف:

«لا تدعيهم يصعدون إلى الحافلة يا **سيدة جيسا!**»

قلتُ لها بنبرة حازمة، وأنا أمقت طريقة خروج الكلمات من فمي: «لا بد لي من ذلك.»

ومع إبقاء يدي على المقبض، أدرتُ عينيّ نحو المرآة العاكسة لأرى أن سائق الحافلة البيضاء قد خرج من سيارته الآن، ويتحرك نحونا بخطوات متسارعة.

ولنصف ثانية، سمحتُ لنفسي بالأمل في أنه مجرد سائق عادي اتبع لافتة التحويلة. ربما كان بمقدوره مساعدتنا، والمواجهة مع هذا الرجل ذي الأنف المهروس ومحجري العينين الأسودين.

صرخ الرجل الأول بصوت زاعق: «الآن!»

ليس لديكِ خيار آخر، إنه سيقتلنا جميعاً.

كانت أصابعي تشعر بالبرودة والارتباك. لم أكن أستطع رؤية عيني هذا الرجل، لكنني لم أكن بحاجة إلى ذلك. فمن نبرة صوته، كنتُ أعلم يقيناً أن ثمة بريقاً قاتلاً يلمع فيهما. فالرجال من أمثاله متوقعون بقدر ما هم متقلبو الأطوار.

وأخيراً، أجبرتُ يدي على الإمساك بالمقبض الزلق وسحبه.

افعلي ما يبتغيه.

دار رأسي واضطربت أحشائي. وأخذ الأطفال يصرخون من خلفي بوهل حقيقي الآن.

لا أحد قادم لنجدتنا. وأنا أفتح الباب.

كان هذا هو الخيار الوحيد الذي يبقينا على قيد الحياة في هذه اللحظة.

والآن برز رجل ثانٍ بلا عينين وبوجه مهروس يقف بجوار الأول.

كانت آلية الباب قد تحركت بالفعل، ولم أعد بحاجة للسحب أكثر.

وسقطت يدي واهنة إلى جانبي بينما انفتح الباب على مصراعيه.

5

تيد

كان الجورب النسائي يجعل وجهي يفيض عرقاً بشكل غزير. والحال ذاته ينطبق على القفازات المطاطية القابعة في يديّ؛ فضلاً عن أنني كنتُ لا أزال ألهثُ بشدة إثر دحرجة لافتة التحويلة الثقيلة وإعادتها إلى الحافلة بنفسي.

غير أن شيئاً من ذلك لم يكن يهم.

ما كان يهم حقاً، هو أننا أنجزنا المهمة بالفعل! لقد انقضى الجزء الأكثر صعوبة؛ فسائقة الحافلة ذات الشعر الأحمر المحترق قادت المركبة تماماً بالأسلوب الذي أردناه، ثم فتحت الباب فور أن طرق **أندي** عليه.

كان كل شيء يسير وفق الخطة المرسومة، بيد أن معدتي كانت لا تزال تدور وتضطرب كالغسالة. ولم يكن يدور في خلدِي سوى فكرة واحدة: *نحن نفعل هذا حقاً! تباً، نحن ننفذ هذا المخطط بالفعل!*

لقد تخيلتُ سيناريو هذا اليوم في رأسي ألف مرة، غير أن الواقع كان أشد هولاً مما وطّنتُ نفسي عليه. كانت صرخات الأطفال

ونشيجهم لا تزال تتردد في أذنيّ؛ بيد أن الأمر برمته سيكلل بالنجاح والربح في النهاية.

كان أحد الأطفال الصغار يقول بنبرة مرتعشة: «أريد أمي.»

وجعلني ذلك أستشعر وخزاً من الذنب، غير أنني ذكّرتُ نفسي بأنهم مجرد أطفال؛ والأطفال كالأشرطة المطاطية، سرعان ما يستعيدون مرونتهم ويتجاوزون الأمر!

وهذه الأشرطة المطاطية بالذات، تساوي ثروة طائلة من المال! ربما لم يكن أولياء أمورهم من أصحاب الثراء الفاحش؛ فدار **برايت بيجينينغز** لرعاية ما بعد المدرسة تحظى بدعم حكومي، مما يعني أنه يتعين عليك أن تكون فقيراً ولو بقدر يسير لكي ترسل طفلك إليها. بيد أن ذلك لم يكن يشكل عائقاً، فقد كان كل هذا جزءاً من الخطة.

استجمعتُ تركيزي، حرصاً على إتمام الخطوات التالية بسلاسة مطلقة.

ابذل قصارى جهدك يا تيد! فكرتُ متذكراً صوت أمي الحاد المعبأ برائحة سجائر المارلبورو—الصوت ذاته الذي تطلقه في كل مرة أُطرد فيها من وظيفة بائسة، أو أترك فيها شطيرة التسخين السريع في الفرن لفترة أطول مما تحب.

ربما كانت ستتظاهر بالرعب والهلع لو تسنى لها رؤيتي في هذه اللحظة؛ إذ ستتحول جبهتها إلى مروحة مطوية من

التجاعيد الغائرة، وستعقد فمها وكأنها ابتلعت حبة ليمون حامضة. غير أنني كنتُ واثقاً من أنها ستستشعر قدرًا ضئيلاً جداً من الإعجاب بالحجم المذهل للجهد الذي بذلتُه أنا و **أندي** لإنجاح هذه العمل. وإن كان ثمة شخص في هذا العالم قد علمني أن القانون مجرد اقتراح وليس قاعدة حتمية – طالما أنك لن تُضبط متلبساً – فذلك الشخص هو أمي العزيزة!

وبينما كان **أندي** يبقي سلاحه مشهراً نحو سائقة الحافلة – **السيدة جيسا**، كما ورد في الشعار الأرجواني المطرز بحروف ملتوية – اندفعتُ متجاوزاً إياه وأخذتُ أسحب الهواتف من الخزائن. كان بإمكاني سماع أنفاسه المرتفعة تطغى على نشيج الأطفال، بينما كنتُ ألقي بكل هاتف داخل كيس بلاستيكي من متاجر «والمارت» بضجة خفيفة.

وعلى بعد أقدام معدودة، كانت الرائحة المركبة المنبعثة من **أندي** – خليط عرق جسده وزيت شعر النعناع الذي يعشقه – تجعل عينيّ تدمعان. كان **أندي** مقرفاً للغاية، وكان يتصرف بغباء أحياناً، بيد أنه – بخلافي أنا – كان يتعامل مع السلاح وكأنه امتداد طبيعي ليده. وكان الناس يخطئون التقدير دائماً فيظنونه مجرد شاب معاصر ولطيف بفضل خدوده الممتلئة، وعينيه الخاملتين، وشعره البني المجعد الذي يتدلى حتى كتفيه

ونادراً ما يغسله. غير أن ذلك كان خطأ فادحاً؛ فـ **أندي** كان قادراً على أن يكون شرساً وسافلاً إلى أقصى حد!

كانت الفتاة الصغيرة الجالسة في المقعد الأقرب إليّ – طفلة ضئيلة الحجم بخصلات شعر سوداء قصيرة ومجعدة – تجلس وركبتها على مقعد الحافلة، وتشخص ببصرها نحوي بنظرة جعلتني أخشى أن يكون الجورب النسائي من النوع الشفاف بعد كل شيء! بيد أنني كنتُ أعلم أنه ليس كذلك، فقد قرأتُ كلمة «معتم» بنفسي عشرات المرات على غلاف الجوارب التي تعهدت بـ «عدم التمزق أو التنسل».

وحين أملتُ رأسي نحوها، اتسعت عيناها بغتة وانحنت متوارية، متشبثة بالفتاة الطويلة النحيفة الجالسة بجوارها— أختها، كما حزرتُ، نظراً للشبه الصارخ بينهما.

صحت قائلاً: «هي! أنتِ!»

غير أن صوتي خرج حاداً وغريباً، على عكس ما تدربتُ عليه تماماً! تنحنحتُ وأعدتُ المحاولة بنبرة أعمق وأكثر خشونة: «هي، أنصتوا جميعاً!»

ثم ألقيتُ الهاتف الأخير في الكيس وتلوتُ الجملة التي حفظتها أنا و **أندي** عن ظهر قلب:

«قفوا وضعوا أيديكم على المقعد الذي أمامكم! إن فعلتم ما نأمركم به، وأغلقتم أفواهكم اللعينة، فلن يصاب أحد بأذى!»

التفتت جميع الرؤوس في الحافلة نحوي، لكن أحداً لم يتحرك للوقوف. وكان العرق المتدفق على مؤخرة عنقي يسبب لي حكة جعلتني أرغب في تمزيق الجورب النسائي عن وجهي.

قبضتُ على سلاحي بقوة أكبر، خفية أن يسقط من يدي إن بدأت في الأرتجاف كما تفعل ساقاي. كان جسدي يشتعل بالأدرينالين والكميات المفرطة من قهوة محطات الوقود.

صرخ **أندي** بصوت زاعق جعلني أقفز فزعاً:

«افعلوا ما يقوله فوراً!»

وكان للأمر مفعول السحر لدى الأطفال؛ إذ تدافعوا لرفع أجسادهم عن المقاعد ورفع أيديهم في الهواء، والذين كانوا يبكون خفضوا صياحهم إلى نشيج خافت.

وبينما كان **أندي** يبقي سلاحه مسلطاً على سائقة الحافلة، مدَدتُ يدي داخل الجيب الأمامي الكبير لسترتي ذات القلنسوة وسحبتُ إحدى الرباطات البلاستيكية الطويلة ذات اللون الأسود.

صحت في **السيدة جيسا**: «اممدي يديكِ!»

كانت غرتها المتقطعة تبدو وكأنها قُصت بمقص أطفال طفولي؛ إذ كانت أقصر بكثير في الجانب الأيمن مقارنة بالجانب الأيسر. مدّت ذراعيها لي دون تردد، وهي ترتجف كفرع شجرة في مهب الريح.

ربطتُ كل يد على حدة، ثم جمعتهما معاً، تماماً كما تدربتُ أنا و **أندي**.

وكانت هناك فتاة صغيرة ذات ضفائر شقراء، تقف وأيدها تحوم فوق المقعد القابع أمامها، تتطلع بذهول واجم بينما كنتُ أشد الرباطات بإحكام.

كنتُ أخشى أن تحاول سائقة الحافلة القيام ببطولة زائفة؛ كالاندفاع نحو الخزائن للوصول للهواتف، أو إلقاء نفسها فوقي أو فوق **أندي** كدرع بشري—تلك التصرفات التي تجعلك تصبح «أسطورة محلية» في أخبار القناة الإخبارية.

غير أنها بدت متلهفة للغاية للسماح لي بشد تلك الرباطات حول معصميها، لدرجة أنني استشعرتُ الذهول بنفسي!

وفجأة، أصدر هاتفي، ثم هاتف **أندي**، ثلاث نغمات خفيفة متتالية. إنه المنبه الثاني؛ حان وقت التحرك! كان من المفترض أن تصل الحافلة إلى دار **برايت بيجينينغز** عما قريب. وحين تتأخر، لن يقلق أحد كثيراً – على الأقل، ليس في التو واللحظة؛ فالازدحام المروري وحافلة مليئة بالأطفال يتسببان في التأخير دوماً.

وهذا يعني أن أمامنا نحو خمس عشرة دقيقة قبل أن يبدأ أي شخص في استشعار القلق أو إثارة الشكوك.

وسنكون قد ابتعدنا كلياً بحلول ذلك الوقت.

ركل **أندي** حذاء سائقة الحافلة بوقاحة متسائلاً:

«هي، ما اسمكِ يا عاهرة؟»

يبدو أنه لم يتجشم عناء قراءة الشعار المكتوب بحروف ملتوية؛ فـ **أندي** رجل أفعال، وليس رجل تفاصيل—أما أنا فالعكس تماماً.

همست المرأة بنبرة خافتة: «جيسا.»

بدا صوتها أصغر سناً مما يوحي به مظهرها. كنتُ أظنها في أواخر الأربعينيات بسبب شعرها المريع، غير أنني صعدتُ بها إلى أوائل الثلاثينيات الآن.

نغزني **أندي** بقدمه، بيد أنني كنتُ قد سحبتُ بالفعل المفكرة الصغيرة من جيب سترتي. *لا أجهزة تكنولوجية*؛ هكذا اتفقنا منذ البدء في التخطيط، فالأمور التي يمكن لـ «الأخ الأكبر» تتبعها لا تصدق!

ركل **أندي** حذاءها مجدداً تسائلاً: «جيسا ماذا؟»

أردتُ أن أقول له إنه ليس بحاجة لفعل ذلك، فهي تنفذ كل ما نطلبه بدقة، لكنني لم أكن لأجرؤ على مساءلته أمام الجميع؛ فهو يمقت ذلك شديداً.

ترددتْ لحظة، ثم قالت: «جيسا... لاندون.»

سجلتُ ذلك في المفكرة.

قال **أندي** وهو يلوح بالسلاح نحو البستان، مخرجاً اسمها وكأنه يناديها بتلك الشتيمة مجدداً:

«امشي إلى حيث آمركِ بالسير يا **جيسا**. لا يوجد أحد هنا، لذا إن صرختِ، فلن يسمعكِ أحد سواي. افعليها، وسأطلق النار على وجهكِ مباشرة، أفهمتِ؟»

ولثانية واحدة، تخيلته يفعل ذلك حقاً – يطلق النار على وجهها مباشرة! أزحتُ تلك الصورة الدموية عن ذهني بأسرع ما يمكن، مطمئناً نفسي بأنه يلتزم بالخطة؛ فهو يبتغي المال بالقدر ذاته الذي أبتغيه أنا.

أومأت **جيسا** برأسها ونهضت واقفه، منكمشة على نفسها ابتعاداً عن السلاح.

زمجر **أندي** قائلاً: «هكذا إذن! نزولاً عبر الدرجات. سيرِي يا **جيسا**!»

وبينما كان **أندي** يتبعها، أدار رأسه نحوي وأومأ برأسه. لقد جاء دوري الآن.

رمقتُ الفتاة الصغيرة ذات الخصلات السوداء القصيرة والمجعدة الجالسة بجوار أختها، وتمنيتُ لو أنني لم أفعل! كانت الدموع تخترق رموشها كدمية حزينة. والنظرة التي تتطلع بها إليّ ذكرتني بذاك الصيف حين كنتُ في العاشرة من عمري، وكان أبي يدفع لي دولارين لقاء كل سنجاب أراديه قتيلاً عن

السور باستعمال قوس الرماية الخاص بي. كانت السناجب تفسد ثمار القرع الضخمة التي نزرعها في الحقل الفارغ خلف المجمع السكني للمقطورات— ذلك القرع الذي كنا نبيعه في متجر «ذا فارمستيد» بعشرة دولارات للواحد، لكن ليس إذا كانت فيه ثقوب ناتجة عن قضمها.

لم أكن بارعاً في الرماية. كان هناك حيوان صغير، كنت قد أصبته في ذيله.

والطريقة التي كان يتطلع بها إليّ حين اقتربتُ منه بدرجة تكفي لرؤية عينيه، هي النظرة ذاتها التي تفترسني بها هذه الفتاة الصغيرة في هذه اللحظة؛ عينان متسعتان من الرعب، وقلب ينبض بسرعة فائقة لدرجة تدفعك لرؤية ضخه في حنجرته!

استشعرتُ حزناً بالغاً حيال ذلك السنجاب لدرجة أنني اختبأتُ في الحظيرة وأخذتُ أبكي، حتى جاء أبي يبحث عني وصفعني بالجانب المسطح لحذاء تنِس قديم! وحين هجرنا بعد شهر واحد، أوهمتُ نفسي بأن ذلك كان السبب.

أزحتُ نظري عن الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأسود المجعد. بخلاف السنجاب، ستكون بخير؛ فنحن لن نلحق الأذى بالأطفال.

ومع غياب **جيسا** عن المشهد، استخدمتُ مؤخرة سلاحي لتهشيم كاميرة المراقبة القديمة المجهزة في لوحة القيادة والتي سجلت

كل شيء. لم يكن ذلك الجهاز المتهالك متصلاً بأي شبكة، بل كان يكتفي بتسجيل اللقطات فوق بعضها يومياً حتى تنفد بطاريته. لقد كانت دار **برايت بيجينينغز** بحاجة إلى حافلات جديدة منذ فترة طويلة، وكان هذا أحد الأسباب.

شرعت إحدى الفتيات في الصراخ – وواصلت الصراخ دون توقف – حتى بعد أن تساقطت الأجزاء الأخيرة من الكاميرة المهشمة على مقعد السائق.

استدرتُ بسرعة وصرختُ: « اصمتوا!»

خفضت من مستوى صوتها لكنها لم تتوقف كلياً. وكان بعض الأطفال الآخرين لا يزالون يبكون بصوت خافت. تذكرتُ ما قاله لي **أندي** بالأمس حين تناقشنا في كل تفصيلة للمرة المائة: *يجب عليك القضاء على أي مشكلة فوراً! إن لم يظنوا أننا نعني ما نقول، فسوف يختلقون المتاعب! ارعبهم منذ اللحظة الأولى!*

تمتمتُ بيني وبين نفسي: «سحقاً ملعوناً!»

ثم سحبتُ نفساً عميقاً وصرختُ بأعلى صوتي محاكياً أفضل نبرة لـ **أندي**: «اخرسوا!»

وحركتُ السلاح جيئة وذهاباً عبر الممر الأوسط، حرصاً على تمريره فوق رؤوس الأطفال العشرة جميعاً مرة واحدة على الأقل: «تباً لكم، اخرسوا! إن لم تفعلوا، فسوف يطلق صديقي النار على **السيدة جيسا!**»

وكان للتهديد أثره القاطع؛ إذ لم ينبس أحد حتى بنشيج!

سحبتُ حزمة أخرى من الرباطات البلاستيكية من الجيب الأمامي لسترتي وأجريتُ عداً سريعاً: عشرة أطفال في الحافلة. وسوف يستغرق الأمر ثلاثين ثانية لتأمين كل واحد منهم. وبعدها يمكننا العودة إلى الطريق.

أسرع يا تيد!

ابذل قصارى جهدك!

6

سيدج

مع وجوههم المهروسة والمشوهة، بدا الرجال الذين غطوا رؤوسهم بجوارب طويلة وكأنهم ذلك المخلوق من فيلم «Jeepers Creepers». كنت قد تسللت إلى الطابق السفلي لمشاهدة الفيلم ذات ليلة عندما غطّ في النوم جدي بينما كان يعتني بي و**بوني**.

وكان مجرد التفكير في هذا الرجل كأنه ذلك الوحش ذو الرأس المخيف يرعبني بدرجة جعلتني أرغب في الاختباء تحت مقعد الحافلة والبكاء بحرقة.

لقد ربطوا الرباطات على معاصمنا بشدة بالغة، لدرجة أن بشرتي كانت تحترق وأصابعي بدأت تفقد الشعور وتتخدر.

بيد أنني رفضتُ البكاء مطلقاً؛ لأن **بوني** – التي كانت تنتحب – كانت تواصل التطلع إليّ وكأنها بحاجة لأن أكون مصدر ثبات وهدوء لها.

لم أكن هادئة من الداخل، ولا حتى بقدر ضئيل! كان ثمة شعور في معدتي يشبه السقوط المتواصل من أعلى درجات السلم؛

غثيان ودوار لا يتوقفان. غير أنني كتمتُ كل ذلك الرعب في أعماقي من أجل أختي.

واصلتُ النظر عبر النافذة نحو **السيدة جيسا**، بالطريقة ذاتها التي تواصل بها **بوني** النظر إليّ، بيد أن ذلك جعلني أستشعر سوءاً أكبر؛ إذ كانت **السيدة جيسا** تنفذ كل ما يطلبانه منها بامتثال تام، وكأن الأشرار هم الكبار المسؤولون الآن، وهي مجرد طفلة مثلنا!

لو كانت أمي هنا، لفعلت شيئاً ما حتماً. لم أكن أعلم ما الذي ستفعله بالظبط، لكنني واثقة من أنها كانت ستتصرف؛ ربما دهستهم بالحافلة، أو كسرت مقبض تغيير السرعات وضربتهم به على رؤوسهم! أي شيء! لم تكن لتعصر رأسها كطفلة، وتتبع الرجل الأول خارج الحافلة، وتستسلم لما يحدث ببساطة! كان شعور الخوف والغثيان يتفرقع في معدتي كحبيبات الفوار المرعبة.

وانتهى الرجل الثاني – الذي هدد بإطلاق النار على **السيدة جيسا** إن لم نلتزم الصمت – من ربط **ميندي**، الفتاة القابعة في المقعد الأخير.

انكمشت **بوني** نحو جسدي وأصدرت نشيجاً خافتاً حين استدار فجأة وسار بخطوات ثقيلة عائداً عبر الممر إلى مقدمة الحافلة.

كان ثمة شيء مألوف فيه، بيد أن ذلك قد يكون مجرد وهم ناجم عن تخيلي المستمر لوجه وحش «Jeepers Creepers» المهروس. ولسبب ما، بدا هذا الرجل أقل إخافة من الآخر؛ ربما بسبب طريقة ارتجاف يده التي تحمل السلاح قليلاً.

أشار إليّ وإلى **بوني** بالسلاح ثم نحو درجات الحافلة:

«أنتما الاثنتان، تحركا للأسفل.»

أنا واثقة تقريباً من أنني أعرفه! وومضت شرارة التعرف في دماغي مجدداً؛ فلم يكن الأمر يقتصر على شبه وجهه بذلك المخلوق السينمائي فحسب، بل كان صوته أيضاً يحمل النبرة ذاتها. كان ثمة شيء مألوف في صوته، وكأنني سمعته منذ زمن بعيد. بيد أنني حين حاولتُ نبش الذاكرة للوصول للقصة، انطفأت الشرارة.

ربما كنتُ أتخيل الأمر برمته. غير أنه جعل أفعى الخوف تتلوى في معدتي وتعتصرها بإحكام، حتى أضحيتُ عاجزة عن التنفس بانتظام.

تحركتُ نحو ممر الحافلة لأتمكن من نزول الدرجات والسير نحو البستان، رغم أنني لم أكن أبتغي ذلك مطلقاً.

أصدرت **بوني** صوتاً صغيراً غريباً حين ابتعدتُ عنها قليلاً، فأمال الرجل رأسه ليتطلع إليها دون أن ينبس ببنت شفة. كان

وجهها محمراً بشدة من أثر البكاء، وفمها معقوداً بإحكام وكأنه ممتلئ بالنحل الذي تحاول حابسه في الداخل.

كان المخاط والدموع ينهمران على وجهها، بيد أنها كانت مصممة على عدم إصدار أي صوت؛ فلن تسمح لهم بإطلاق النار على **السيدة جيسا** اللطيفة.

خطوتُ خطوة إلى الخلف نحوها ومددتُ يديّ المربوطتين لأقبض على إصبعها الصغير—لمسة خفيفة لطيفة فحسب. همستُ لها: «تعالي يا **بوني**، سيكون كل شيء على ما يرام، تعالي معي.»

انهمرت المزيد من الدموع على وجنتيها، مبللة مقدمة قميصها الأرجواني المزين بشعار «ماي ليتل بوني»، غير أن فمها ارتخى قليلاً وتبعتني وهي تتجه نحو الممر.

وكان الرجل الأول – الذي أخذ **السيدة جيسا** بعيداً – بانتظارنا فور أن وطئت أقدامنا التراب. وكان سلاحه يبعد بضعة أقدام فحسب عن رأسي:

«من هذا الاتجاه.» وأشار بيده الحرة نحو الباب المفتوح للشاحنة الرمادية، على بعد عشر ياردات تقريباً: «إن حاولتِ القيام بأي شيء، فستتلقى **السيدة جيسا** رصاصة في رأسها.»

أصدرت **بوني** ذلك الصوت مجدداً، واشتعلت شرارة من الغضب في معدتي. أردتُ أن أصرخ فيه:

لستَ بحاجة لتكرار ذلك طوال الوقت، نحن نفعل كل ما تأمرنا به!

لكنني التزمت الصمت، ولسبب ما أضحكه ذلك، رغم أننا كنا نفعل بالضبط ما أمرنا به.

«يا لكما من فتاتين مطيعتين وهادئتين!»

حدقتُ فيه مباشرةً ولاحظتُ وجود حلقة رطبة حول فمه، وكأنه كان يلعق شفتيه. وكان ذلك الجزء من الجوارب الشفافة قد أصبح أكثر شفافية، فظهرت أجزاء صغيرة بيضاء عندما فتح فمه. أسنانه.

تنهدت **بوني** بصوت مرتفع من خلفي، لكنها واصلت السير متجاوزة الرجل. لم أستدر للنظر، غير أنني استطعتُ سماع صوت المزيد من الأطفال وهم يتبعون خطانا من الخلف.

كان الحصى يتكسر تحت أحذيتنا، والشمس تلامس وجنتيّ. وانسكبت رائحة التراب والعشب الزكية في البستان المكتظ بالأشجار ونحن نقترب من الشاحنة الرمادية. همستُ مجدداً: «لا بأس يا **بوني**.»

استكشفتُ البستان بجمود دون تحريك رأسي، أملًا في رؤية منزل في الأفق، أو سيارة أخرى تسير على هذا الطريق الترابي، أي شيء يوحي بأن ثمة من يمكنه رؤيتنا! ألم يكن من المفترض أن يتبع سائق آخر لافتة التحويلة ذاتها في أي لحظة؟

غير أنني لم أستطع سماع صوت أي سيارات قادمة على الطريق. وكان الصوت الوحيد المسموع هو حركة الأطفال المنتظمين في خط خلفي وخلف **بوني**، وصوت الرجل ذي الحلقة الرطبة حول جوربه وهو يأمرهم بالإسراع ومواصلة السير نحو الشاحنة الرمادية.

ولم يكن يقع تحت بصري سوى صفوف متراصة من الأشجار. كان الطريق الترابي ضيقاً جداً ومكتظاً بالأعشاب الضارة لدرجة جعلتني أتساءل عما إذا كان هذا الطريق مستخدماً حقاً؛ إذ لم تكن ثمة آثار إطارات تُذكر.

وفي شهر تموز (يوليو)، كان البستان يعج بالنشاط والحركة عادةً أثناء قطف العمال للكرز، غير أن الموسم كان قد انتهى الآن.

وانتقلت عيناي نحو الأبواب الخلفية للشاحنة الرمادية، المفتوحة على مصراعيها على بعد أقدام معدودة أمامي، كأنها مدخل كهف مهيب؛ شديدة الظلمة ومترعة بأشياء قد تقفز عليك في أي لحظة.

أردتُ الاستدارة والتطلع إلى الأطفال الآخرين، غير أن كل ما كان يشغل تفكيري هو الرجل القابع خلفنا، والذي يسوق آخِر الأطفال خارج الحافلة، والرجل الآخر الذي يقودنا نحو الشاحنة الرمادية. ولسبب ما، كنتُ أعلم أنني لو نظرتُ إلى وجوه

الأطفال المرعوبة، فسوف أتسمر في مكاني وأتوقف عن السير، وحينها سيتوقف الجميع، وسنقع جميعاً في مشكلة عارمة. لذا، واصلتُ السير كالعازف الساحر، و**بوني** والأطفال الآخرون يتبعون خطاي.

أين كانت **السيدة جيسا**؟ هل كانت داخل تلك الشاحنة المظلمة؟ وكيف لي ولـ **بوني** الصعود إليها وأيدينا مربوطة؟

كان كل جزء في جسدي يصرخ بي للهرب! غير أنني كنتُ لا أزال أستشعر ذلك السلاح الموجه نحو مؤخرة رأسي.

وسرعان ما اقتربت خطوات ثقيلة ومتسارعة من خلفنا فور وصولي أنا و **بوني** إلى مصد الشاحنة الخلفي. أدرتُ رأسي في الوقت المناسب لأرى الرجل ذي الجورب النسائي البني الفاتح يهرول متجاوزاً إياي ليقف بجوار الرجل ذي الجورب الداكن. قال بصوته الغريب والأعمق من اللازم – والذي يشبه صوت «باتمان» نوعاً ما: «حين أرفعكِ للأعلى، اندفعي نحو الجزء الخلفي من الشاحنة بسرعة فائقة، أفهِمتِ؟»

أومأتُ برأسي، غير أنني أردتُ الصراخ لمجرد التفكير في أنه سيلمسني!

همست **بوني** بنبرة خافتة تعكس أفكاري ذاتها:

«لا أريد الدخول إلى هناك يا **سيدج**.»

قلتُ لها محاولة التظاهر بالقوة:

«إنها مجرد شاحنة صغيرة.»

غير أنها لم تكن مجرد شاحنة صغيرة على الإطلاق!

كان الأمر وكأن كل شيء سيء سمعته يوماً عن ركوب السيارات مع الغرباء قد تجسد فجأة أمامي. بيد أن أياً من الأشياء التي تدرّبتُ عليها للهرب لم تكن تجدي نفعاً هنا؛ فلا يمكنني الركض، ولا يمكنني الرفض، ولا يمكنني العثور على شخص بالغ لنجدتنا!

اعتني بأختكِ. صدى صوت أمي يتردد في ذهني. *الأخوات للأبد.*

وللمرة الأولى، بدت كلمات أمي التي تتراكم في دماغي مهمة للغاية بدلاً من كونها مزعجة.

ابتلعتُ غصتي بمرارة واستعددتُ بينما مد الرجل ذراعه الأولى نحو جسدي، مع إبقاء سلاحه موجهاً نحو **بوني** بالذراع الأخرى.

وبحركة واحدة متسارعة، حملني الرجل ووضع مؤخرتي على الحافة الخلفية للشاحنة. ونبس بصوت حاد قائلاً: «تحركي!» مشيراً بالسلاح نحو الظلمة التي تشبه الكهف.

وتحركتُ بالفعل، مدركة فجأة أنني – بعد **السيدة جيسا** – الشخص الأكثر قرباً لصفة «الكبار» في هذا المكان! وأنا لستُ بالغة، ولا حتى قريبة من ذلك! وللمرة الأولى، لم يمنحني كوني

طالبة في الصف السادس طويلة القامة أي شعور بالقوة أو الضخامة مطلقاً. بالطبع، كان بإمكاني الاعتناء بـ **بوني** بالذهاب معها إلى بركة الأطفال الصغار حتى لا يدفعها «كينان» نحو المنزلق مجدداً. نعم، كان بإمكاني السماح لها بمرافقتي حين أذهب إلى الحديقة، وكان بإمكاني مساعدتها في ربط حذائها حين يفك أحدهما، أو التظاهر بالإعجاب بتماثيلها الطينية بالطريقة ذاتها التي تفعلها أمي.

غير أن أياً من تلك الأشياء لم يكن قادراً على إنقاذنا الآن!

7

تيد

بحلول الوقت الذي حُشِر فيه الأطفال داخل الشاحنة الصغير، سحبتُ باب جانب السائق في حافلة المطار البيضاء بقوة، ونزعتُ الجورب النسائي عن وجهي لآخذ نفسي، وأنا أفيض عرقاً بغزارة!

كنتُ أعلم أن اليوم سيكون عصيباً وحاداً؛ وكنتُ أعلم أن **أندي** سيتصرف بانفعال شديد؛ غير أنني أوهمتُ نفسي بأنني تدربتُ على كل جملة وكل خطوة لمرات عدة، حتى بدا الأمر وكأنه تمثيل مسرحية ليس إلا—دون أي شعور حقيقي بالخطر!

بيد أن الواقع لم يكن كذلك مطلقاً.

أجبرتُ نفسي على سحب ثلاثة أنفاس عميقة، شهيقاً وزفيراً، تماماً كما كان يوصينا ذلك الرجل في مجموعة إعادة التأهيل في السجن: *ركز على تنفسك، الأمر بهذه البساطة، وستستشعر الهدوء.*

كنت أظن حديثه مجرد هراء في ذلك الوقت، غير أن ذلك المعتوه كان على صواب بعد كل شيء!

صفا ذهني قليلاً، وبدأت ضربات قلبي تتباطأ. وحملت النسائم المنعكسة عبر النافذة المفتوحة برودة تلطف مؤخرة عنقي المتعرقة.

وللمرة الأولى، استشعرتُ الامتنان لأنني الشخص الذي يقود حافلة المطار ذات الرائحة المعبأة بعطر **أندي**؛ فقد ساد الهدوء أخيراً! لا أحد يبكي، ولا أحد يصدر أصوات نشيج خافتة حين أشد الرباطات البلاستيكية، ولا أحد يتطلع إليّ وكأنني شيطان مريد!

لقد أربكني ذعر الأطفال ورعبهم بدرجة أكبر بكثير مما توقعتُ!

مررتُ أصابعي عبر شعري المبتل بالعرَق وتطلعتُ في المرآة العاكسة. كان وجهي محمراً ومبقاعاً وكأنني خرجتُ للتو من حمام ساخن كالحمم البركانية، لكن بخلاف ذلك كنت أبدو بخير. كان شعري البني الداكن قصيرًا بما يكفي بحيث لا يصبح أبدًا فوضويًا، على عكس شعر آندي. كان أشبه بقنفذ غاضب، لكن ذلك أمر مختلف.

وأمامي، أضاءت المصابيح الخلفية لحافلة دار الرعاية.

شاهدتُ آندي وهو يقود حافلة **برايت بيجينينغز** ببطء إلى داخل البستان، مروراً بين صفوف الأشجار الكثيفة. كانت الأغصان

قريبة جدًّا لدرجة أنها كانت تحك جوانب الحافلة كصوت الأظافر على السبورة، لكنه واصل القيادة رغم ذلك.

وجعلني المشهد أطلق ضحكة عالية! فقد بدا وكأنه يخوض مغامرة وعرة في أبطأ وأغبى حافلة على الإطلاق! وأخذت جوانب الحافلة الباهتة باللونين الأزرق والأبيض تحتك بمزيد من أغصان الأشجار، وأصدر بعضها صفيراً حاداً حين لامست الهيكل المعدني.

ولم يقطع مسافة طويلة قبل أن تعترض طريقه جمهرة من الأشجار المتقاربة التي كانت تقتضي منه دهسها للمضي قدماً. وأضاءت مصابيح الفرامل؛ فلم يكن الأمر يستحق عناء التوغل أكثر داخل البستان. فبعد انتهاء موسم القطاف، نادراً ما يُستخدم هذا الطريق. وحتى لو سلك أحدهم هذا الاتجاه، فسيتحتم عليه معرفة ما يبحث عنه بالتدقيق.

شاهدتُ آندي وهو يفتح باب الحافلة، وينزل الدرجات راكضًا، ويمر بجانبي مسرعًا عبر البستان. كان قد خلع جواربه الطويلة أيضًا، على الرغم من أن شعره الطويل المتناثر بلون البني الفاتح ولحيته غير المهذبة لم يبدوا مختلفين كثيرًا عن المعتاد. كان آندي يبدو دائمًا وكأنه قد نهض لتوه من السرير. لكن النظرة الحادة والمركزة في عينيه كشفت حقيقته. كان آندي في حالة تركيز تام.

وفور قفزه إلى مقعد السائق في الشاحنة الرمادية، أدخلتُ المفتاح في مقبض التشغيل وأدرتُ حافلة المطار.

لقد اكتمل الجزء الأول من الخطة. وأضحينا نحتجز الجميع بإحكام—بالمعنى الحرفي للكلمة!

وانسابت دفقات من الارتياح والأدرينالين في جسدي، وأطلقتُ ضحكة متوترة.

وقبل أن أغير السرعة للمضي قدماً ومتابعة **أندي** نحو الطريق الرئيسي، فتحتُ خزانة القفازات ووضعتُ سلاحي في الداخل، ثم سحبتُ بحذر ورقة مطبوعة كنتُ قد دسستُها هناك سابقاً.

كانت الورقة تتضمن ثلاثة عشر اسماً مطبوعاً: اسم سائقة الحافلة في الأعلى، تعلوه قائمة تضم أسماء الأطفال الاثني عشر الذين يركبون هذه الحافلة بانتظام، إلى جانب أعمارهم:

جيسا لاندون، 38 عاماً

1. **إيفا جونسون، 7 أعوام**
2. **بوني هالفرسون، 7 أعوام**
3. **كروسبي نيفيل، 7 أعوام**
4. **كاسيا بيرجر، 7 أعوام**
5. **ميندي جاميل، 7 أعوام**
6. **شارلوت نيلسون، 8 أعوام**
7. **إيفلين ماركس، 8 أعوام**

8. **كيد بليدسو، 8 أعوام**
9. **نورا كاتز، 8 أعوام**
10. **روز كارلتون، 9 أعوام**
11. **بن ويتلوك، 9 أعوام**
12. **سيدج هالفرسون، 12 عاماً**

طابقتُ القائمة المطبوعة مع القائمة المكتوبة بخط يدوي كاد لا يُقرأ والتي أعددتُها للتو عند صعودنا الحافلة، ثم شطبتُ بقلم اسمي **كاسيا بيرجر** و **نورا كاتز**، اللتين حظيتا بلطف الأقدار لكونهما مريضتين اليوم أو ما شابه.

وبخصم الغائبتين، يتبقى عشرة أطفال بالإضافة إلى سائقة الحافلة. وهذا يجعل الفدية نحو مائتي ألف دولار عن كل طفل! وكنتُ أشك في أن أحداً يهتم بالسائقة لدرجة دفع فدية لقاء إطلاق سراحها؛ فبقدر ما استطعتُ التخمين، لم تكن سوى نكرة لا قيمة لها.

استكشفتُ باقي نص رسالة الفدية المطبوعة مسبقاً، وأنا أستشعر تحول الاضطراب في معدتي إلى ترقب ولهفة.

كانت الرسالة مثالية! وسيسير الأمر برمته وفق ما خططنا له تماماً. ثم دستُ القائمة المكتوبة بخط اليد والمجعدة في جيب بنطالي لأقوم بإحراقها لاحقاً.

لم أعد أستطيع رؤية **أندي** والشاحنة الرمادية، بيد أن ذلك لم يكن يشكل عائقاً؛ إذ كان عليّ التوقف لفترة قصيرة قبل أن نلتقي مجدداً على أي حال.

وعندما كنا نضع خططنا سابقاً، كنتُ قد تذمرتُ من الوقوع في هذه المهمة بالذات؛ إذ بدت لي فكرة التوجه نحو المدينة فور إتمام ما فعلناه وإظهار وجهي – نوعاً ما – أشد أجزاء الخطة مجازفة وخطورة. بينما كل ما كان على **أندي** فعله هو قتل الوقت، والقيادة برفقة الأطفال لفترة من الزمن حتى يختلط عليهم الأمر كلياً حيال المكان الذي نقتادهم إليه.

غير أنني، في هذه اللحظة، استشعرتُ الامتنان لأن **أندي** هو من علق برفقة الأطفال لفترة أطول قليلاً؛ إذ كنتُ أخشى بالفعل لحظة إنزالهم من الشاحنة.

ركز *فقط يا تيد!* أعدتُ حديث نفسي مجدداً. *أنت قادر على إتمام الأمر يا صاح!*

8

شينا

كان الازدحام المروري هو الأسوأ على الإطلاق في شارع **ستيت ستريت!**

لم يكن يفصلنا سوى كتلتي أبنية منفصلتين للوصول إلى دار **برايت بيجينينغز**، غير أن جدار المركبات المتراصة لم يتحرك منذ عشر دقائق على الأقل. لا بد من وقوع حادث مروع خلف الإشارة الضوئية التالية؛ فصفارات الإنذار تنبعث بحدة، دون أن تتمكن عيناي من اختراق السياج النباتي الكثيف الذي يفصل موقف سيارات مطعم "سَبواي" عن الكنيسة المجاورة.

ودقيقة تلو أخرى، أخذت كل مشاعر التفاؤل التي تملكتني سابقاً – بشأن إنهاء الميزانية في الوقت المحدد، وإعداد وجبة عشاء شهية لأبي والفتاتين – تتلاشى كفقاقيع صابون تفرقعت في الهواء!

كانت أصابع أبي ترتجف، وهو ينقر بها على ركبته، وكأنه يستعد للقفز من السيارة في أي لحظة. لم يفعل ذلك قط من قبل، بيد أن الأشهر القليلة الماضية كانت مفعمة بتصرفات غير مسبوقة.

تمتم أكثر لنفسه منه إليّ:

«يا إلهي، هذا المشهد يعيدني للوراء بحق.»

ألقيتُ عليه نظرة سريعة، وأنا مشوشة ونفاد صبري يتزايد بانتظار حركة المرور: «يعيدك إلى ماذا؟»

عقد حاجبيه، وكأنه يفتش بين شظايا ذكرياته المتناثرة:

«حادث التصادم المروع على الطريق 405. هل أخبرتكِ يوماً عن تلك الواقعة؟»

«كلا، أخبرني.» وهذه المرة كانت الإجابة صادقة، فلم أسمع هذه القصة قط. أرخيتُ قبضتي على مقود السيارة "السوبارو" القديمة واستعادت نفسي بعض الصبر. من المؤكد أن المعلم الذي يشرف على عملية التوصيل في المركز الترفيهي قد رأى الازدحام المروري، مما يعني أنني لن أحصد نظرات اللوم إن وصلتُ في الساعة الرابعة والدقيقة الثانية!

هدئي من روعكِ، ذكّرتُ نفسي، *كل شيء على ما يرام.*

إمال أبي جسده للأمام، ملوحاً بيده في رؤيتي المحيطية: «انقلبت سيارة دفع رباعي على جانبها في منتصف الطريق السريع. وتلقينا البلاغ في ذروة الازدحام، بالطبع! مصدات السيارات متلاصقة تماماً، كما هو الحال هنا. وكان علينا المناورة بسيارة دورية الشرطة وسط هذه الفوضى،

والصفارات تدوي! بيد أن أحداً لم يكن يفسح الطريق بالكامل، هم لا يفعلون ذلك مطلقاً.»

أومأتُ برأسي متابعةً، وأنا أستمع بنصف تركيز فقط، أراقب أضواء الفرامل التي ترمش أمامي بينما يكتسب أبي حماسة في سرد قصة عن المرة الأولى التي رأى فيها المسعفين يستخدمون جهاز "فكوك الحياة" الهيدروليكي لفتح مركبة مهشمة في موقع حادث.

وفقدتُ خيط قصته وأنا أراقب امرأة تبعد عنا بضع سيارات وهي تترجل من مركبتها وتسرع نحو التقاطع!

عبستُ ومددتُ عنقي، بيد أنني لم أتمكن من رؤية التقاطع أو مركز دار الرعاية. لا بد أن الحادث في الأمام كان كارثياً!

«... لا تفهميني خطأ يا **شين**؛ فقد تعاطفتُ مع تلك المسكينة المحتجزة داخل السيارة، غير أن تلك الآلة كانت شيئاً مهيباً يستحق المشاهدة! كان عليكِ رؤيتها، فقد اخترقت الحديد وكأنه لا شيء! ضغطتان خفيفتان، وفجأة خُلع الباب كلياً، وها هي قابعة في الداخل، بوجل وحسرة، تتنفس بصعوبة دون أن تصاب بخدش واحد! هل تصدقين ذلك؟»

ابتسمتُ له رغماً عن القلق الذي يجري في عروقي:

«هذا حظ وافر بحق.»

قال وهو يهز رأسه وعيناه نائيتان غير أنهما تلمعان ببريق ذاكرة حية:

«أوفر حظ رأيته في حياتي! كان عليكِ رؤية وجهها حين سحبناها للخارج؛ كانت تكتفي بترديد: "شكراً لكم، شكراً لكم"، مراراً وتكراراً. فحصها المسعفون، وكانت بخير، مذهولة فحسب. تلك كانت أفضل البلاغات، أتعلمين؟» ثم ارتعش صوته قليلاً: «البلاغات التي نصل فيها في الوقت المناسب، ونفعل فيها الصواب، ونغدو فيها أبطالاً حقيقيين، ولو لدقيقة واحدة فقط.»

قلتُ بنبرة خافتة وأنا أعلم أن ذكرياته قد تحولت إلى البلاغات التي لا تزال تطارده: «لقد ساعدتَ الكثير من الناس يا أبي.»

هز كتفيه وتطلع عبر النافذة. وكانت مفارقة مريرة في مرض ألزهايمر أنه يلتهم الذاكرة قصيرة الأجل أولاً، بينما تظل الأشياء التي يبتغي نسيانها هي الأكثر انغراساً في أعماقه!

سحبتُ نفساً منتظماً بينما تزحف السيارة التي أمامي بضع بوصات ثم تضغط على الفرامل للمرة المائة.

وحين رمقتُ هاتفي المحمول لأتصل بدار **برايت بيجينينغز** وأخبرهم أنني سأتأخر حتماً بسبب الازدحام المروري، رأيتُ أنني أضعتُ مكالمة وردتني منهم بالفعل!

عبستُ وألغيتُ وضع الصامت عن الهاتف.

فعادةً، لا يتصل الموظفون من طلاب الثانوية العامة إلا حين أتأخر حتى الدقيقة الأخيرة تماماً – أي في الخامسة مساءً بالتدقيق. ولا يزال أمامي ست دقائق كاملة!

تباً! هل أصيبت إحدى الفتاتين بأذى؟ هل دُفعت **بوني** نحو المنزلق مجدداً؟ كزززتُ على أسناني حنقاً؛ لو كانت **سيدج** قد أرسلتها إلى بركة الأطفال بمفردها...

قال أبي للمرة الثامنة وهو يربت على كتفي:

«إنه مجرد ازدحام يا **شين**، لا داعي للعجلة، سنصل عندما...»

توقف عن الحديث وتطلع عبر النافذة، وللحظة حسدتُ الغشاوة القابعة في دماغه والتي جعلته ينسى الموضع الذي نتجه إليه من الأساس!

قلتُ محاولة الحفاظ على نبرة خفيفة:

«شكراً يا أبي.» ثم نقرتُ على المكالمة الفائتة.

وبدلاً من صوت موظف الاستقبال، جائني خط مشغول مزعج! سحبتُ نفساً آخر، مشجعة نفسي بتذكر أن نظام هواتف جديداً كان جزءاً من ميزانية المدارس الابتدائية المحلية ومراكز الرعاية التابعة لها. غير أن فكرة استمرار أي جهة في استخدام خطوط أرضية، لا سيما مؤسسة ترعى نصف أطفال مقاطعة أدا، بدت مضحكة للغاية اليوم!

ودوت صفارة إنذار أخرى بالقرب منا، وانسابت برودة قاسية على طول عنقي. ماذا لو حدث خطب مروع في المركز الترفيهي؟

قبضتُ على مقود السيارة بقوة أكبر وأنا أفكر في حوادث إطلاق النار بالمدارس، أو تسرب الغاز، أو حوادث السير!

تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر للمرة الثانية عشرة، وزحفنا للأمام ببطء شديد—بقدر يكفي فقط لرؤية مدخل دار الرعاية!

مد أبي عنقه لاستكشاف الأمر قائلًا:

«يا إلهي! **شين**، ثمة خطب خطير يجري هناك! ألم تكن الفتاتان ترتادان تلك الدار لرعاية الأطفال في زمن ما؟»

لم أجبْه.

وبدلاً من ذلك، وضعتُ السيارة على وضع التوقف في منتصف الطريق. كانت ساقي قد تحولتا إلى معكرونة باردة وواهية!

لم يكن هناك حادث سير أمامنا!

كان موقف سيارات دار **برايت بيجينينغز** مكتظاً بالأنوار الحمراء والزرقاء الوامضة—سيارات شرطة، عشرون سيارة على الأقل!

وكان باقي موقف السيارات مليئاً بالموظفين وأولياء الأمور. أضحيتُ عاجزة عن التنفس؛ فالمشهد يبدو تماماً كأحد مشاهد إطلاق النار في المدارس التي يغطيها التلفاز في الأخبار!

لا يمكن أن يحدث هذا هنا!

ودون التفوه بكلمة واحدة لأبي، فتحتُ باب السيارة بقوة وشرعتُ في الركض نحوهم.

اعتصرت معدتي تماماً كما حدث حين غابت **سيدج** عن ناظري في متجر "إيكيا"، بينما قضيتُ وقتاً أطول من اللازم أتطلع إلى معروضات تنظيم الأدراج! اندفاع مهول من الأدرينالين والذعر جعلني أستشعر رغبة في التقيؤ أو الإغماء!

غير أن الأمر في هذه المرة كان أشد هولاً؛ فهناك خطب مروع، شيء كاريثي قد حدث بالفعل!

انحرفتُ حول سيارة توقفت مع إضاءة مصابيح الطوارئ عند مقدمة التقاطع. ومثلي تماماً، لا بد أن هذا الولي للأمر قد وصل لاصطحاب طفله وشاهد الفوضى العارمة في موقف السيارات.

كلا، كلا، كلا!

كان ممر المشاة يعرض كف التوقف الأحمر، غير أنني ركضتُ عبر الطريق على أي حال.

لم تكن هناك سيارات مسرعة؛ فالحركة كانت متوقفة تماماً. وعلى طول الطريق في كل الاتجاهات، كان الناس يميلون عبر نوافذهم، وبعضهم يضغط على أبواق السيارات. غير أنه وسط الجمود المروري عند التقاطع الملاصق لدار الرعاية، كانت جميع العيون شاخصة نحو موقف السيارات.

اندفعتُ وسط الجموع متجهة نحو فتاة مراهقة طويلة القامة ترتدي قميص بولو باللون الأزرق الداكن يحمل شعار **برايت بيجينينغز**. وكانت شارتها تحمل اسم **شيلي**.

صرختُ بها وأنا أشق طريقي بسرعة وقلبي يدق كالمطرق داخل صدري: «ماذا يحدث؟ أين طفلتاي؟»

رمقتني **شيلي** ومدت ذراعيها إلى جانبيها بحركة عاجزة: «نحن نبذل كل ما بوسعنا.»

«تبذلون كل ما بوسعكم؟» وقف قلبي في حنجرتي وأردتُ خنقها في تلك اللحظة: «عن ماذا تتحدثين؟ أين طفلتاي بحق السماء؟»

واندفعت امرأة أخرى ذات شعر بلاتيني فوضوي متجاوزة إياي، وهي تنشج بالفعل: «أخبرينا الآن!»

تطلعت **شيلي** بيننا وعيناها متسعتان: «نحن نعد تنبيهات نصية الآن لنتمكن من...»

صرختُ بها: «لتتمكنوا من ماذا؟ أخبرينا بما يحدث فوراً!»

«الحافلة مفقودة.»

تراجعت المرأة ذات الشعر البلاتيني وكأنها تلقت صدمة قاسية. وكانت تتنفس بسرعة فائقة، وتتسع منخراها مع كل شهيق.

ولم أكد أخرج الكلمات وأنا ألهث: «ماذا يعني ذلك؟ لا يمكنكم فقدان حافلة كاملة بساطة!»

وكانت المرأة الأخرى تتحدث في الوقت ذاته، وكلتانا نصرخ معاً: «ماذا... لماذا... ألا يمكنكم تتبعها؟ ألا تملك السائقة هاتفاً محمولاً؟ لماذا لم تعثروا عليهم بعد؟»

لا يمكنكم فقدان حافلة كاملة.

وللحظة خاطفة، اخترقت فقاعة من الأمل الركام القاتم للهلع في أحشائي بأن الوضع لا يتضمن مسلحاً مطلقاً، وأنه لم يمت أحد! الحافلة مفقودة، وطفلتاي ليستا هنا، مما يعني ثمة احتمال بأن شيئاً سيئاً لم يحدث بعد!

وتسارعت الأفكار في رأسي كأطواق نجاة يائسة: ربما أولياء الأمور والشرطة في هذا الموقف يفزعون بلا سبب. ربما تعرضت الحافلة لثقب في الإطار. ربما تقيأ أحد الأطفال واضطروا للتوقف. ربما..

قالت **شيلي** وصوتها يخالطه البكاء: «أنا آسفة حقاً، لقد أعدنا تتبع مسار الحافلة مرتين الآن... لكن لا يوجد شيء! وسائقة الحافلة لا تجيب على هاتفها.» ثم نظرت خلفها، حيث كان ضابط شرطة يتحرك نحونا عبر موقف السيارات: «الشرطة ستتولى الأمر، ويريدون التحدث إلى الجميع. أنا فقط... أنا آسفة.» وانكسر صوتها عند الكلمة الأخيرة.

ودون أن تنبس المرأة التي بجواري بكلمة أخرى، أطلقت عويلاً مدوياً واندفعت نحو ضابط الشرطة.

وتطلعتُ أنا و **شيلي** إلى بعضنا البعض. كان من الجلي القاسي أن كلينا لا تدرك ما يتعين فعله.

ومن خلفي، أدركتُ أن ثمة من يصرخ بصوت زاعق!

ووخز تحذير جديد دماغي؛ إذ إنني أعرف هذا الصوت تماماً!

استدرتُ في الوقت المناسب لأرى أبي يهوي بيديه على غطاء شاحنة: «اهدأ وتوقف عن إطلاق البوق! كان ينبغي لأحدهم أن يضربك حين كنت طفلاً!» دوى صوته الجهوري قاطعاً الفوضى العارمة لأصوات الفزع، وأبواق السيارات، وصفارات الإنذار القادمة من بعيد.

كان أبي يواجه شاحنة ضخمة مرتفعة متوقفة في صدارة التقاطع. كانت تضم إطارات عملاقة وعلماً متدلياً من الخلف. وكان هناك شاب بعمر الجامعة ذو شعر متدرج يميل بجسده عبر نافذة السائق.

كلا، لا يمكن أن يحدث هذا الآن!

ومع صرخة مكتومة، هرولتُ عائدة عبر الطريق ذاته الذي جئتُ منه في موقف السيارات، وعدتُ إلى ممر المشاة، وسحبتُ أبي من معصمه—بقوة أكبر مما ينبغي، غير أنني لم أمتلك رباطة الجأش للهدوء، أو إخباره بأن الفتاتين في خطر. لذا، قبضتُ عليه بحنق.

استدار أبي ونظرات الغضب تشتعل في وجهه المحمر وسحب ذراعه بسرعة. وسخر الشاب ذو الشعر المتدرج ضاحكاً، وكأن هذا المشهد جزء من برنامج تلفزيون الواقع.

صرختُ به محاولة التشبث به: «أبي، توقف!»

انزلقت أصابعي لتمسك بساعته.

وقبل أن أتمكن من إغماض عينَي، انفك المشبك، وهوت الساعة بسقوط حاد على الأسفلت عند أقدامنا.

تسمر أبي في مكانه كلياً ولمس معصمه، ووجهه يفيض بالحمرة الغاضبة، وعيناه ترمشان نحوي، ناسية الشاحنة ذات البوق الزاعق تماماً.

وفي رؤيتي المحيطية، استطعتُ رؤية ضابط شرطة يتجه نحو موقعنا.

قال أبي وهو يقف في منتصف الطريق وذقنه ترتجف من الغضب الشديد: «ماذا تفعلين بحق السماء يا **شين؟**»

كاد صوته يضيع وسط الصخب، غير أن كلماته نفذت كالسهام؛ لأنني لم أكن أملك أدنى فكرة عما أفعله!

9

سيدج

مع كل ثانية تمر، كان داخل الشاحنة الرمادية يزداد حرارة ليصبح كأنه أتون يغلي! حاولتُ جاهدة ألا أتخيل أننا نُطهى أحياء جميعاً في الداخل، غير أنني لم أتمكن من طرد الفكرة من رأسي.

كانت الأرضية المكشوفة ناتئة وغير مستوية، وتبرز منها أجزاء معدنية وكأنه كانت ثمة مقاعد مثبتة هنا في السابق.

وبدأ بعض الأطفال في الصراخ فور أن أصفق الرجل الأبواب الخلفية بقوة، لتغرق الشاحنة الحارة والخانقة في ظلمة حالكة.

وكانت **بوني** من بين الذين شرعوا في البكاء.

همستُ لها وأنا أستمع لصوت خطوات الرجل وهو يهرول نحو جانب السائق: «صه! سيغضب ويعود إلينا مجدداً!»

وانفتحت النافذة الصغيرة الفاصلة بين مقعد السائق والجزء الخلفي للشاحنة بضع بوصات.

كنتُ واثقة من أن الرجل سيصرخ بنا، ويزأر مجدداً مهدداً بإطلاق النار على **السيدة جيسا**ـــالتي كانت تجلس منحنية في

أقصى الجزء الخلفي من الشاحنة، ويدها وذراعاها موثوقتان معاً خلف ظهرها.

غير أن **السيدة جيسا** هي من صرخت بدلاً منه! نهرتنا بنبرة حادة قاسية: «التزموا الصمت الآن!»

كان صوتها جافاً وشديد القسوة لدرجة أن **بوني** لم تكتمل عويلها حتى!

وساد الصمت التام بين باقي الأطفال أيضاً.

وأصفق السائق النافذة بقوة دون أن ينبس ببنت شفة.

انزلقتُ لاقترب أكثر نحو **بوني**، خائفة من النطق بأي كلمة أخرى، واستشعرتُ فجأة بعض الكراهية نحو **السيدة جيسا**! لم تكن كراهية بحد المقت الذي أكنّه للرجلين اللذين يضعان الجوارب النسائية على وجهيهما، بيد أنها كانت كافية لتجعلني أحدق بها بغضب! فحين يبكي الأطفال، من المفترض أن تخبرهم بأن كل شيء سيكون على ما يرام، لا أن تصرخ في وجوههم!

أردتُ أن أقول لها ذلك؛ فلم أكن أخشى مجادلة الكبار—وهذا بالتدقيق ما ورد في الملاحظة المكتوبة في بطاقة تقريري المدرسي من **الآنسة بتلر** في العام الماضي—غير أن الشاحنة اندفعت فجأة للأمام، وكادت تطوح بي فوق **بوني**!

إلى أين يقودنا هذان الرجلان؟ وما الذي ينويان فعله بنا؟

في إحدى المرات، سمحت لنا جليسة الأطفال أنا و **بوني** بمشاهدة حلقة من برنامج «دايتلاين» عن فتاة اختطفت في طريق عودتها من المدرسة. وكانت صورتها تملأ اللوحات الإعلانية الضخمة والملصقات في المدينة التي تعيش فيها، رغم مرور عشر سنوات على اختفائها.

قالت جليسة الأطفال حينها—والتي كانت تكبرني بثلاث سنوات ولكنها أقصر مني ببوصتين: «هذا محزن للغاية، عائلتها المسكينة عاجزة حتى عن إقامة جنازة لها.»

ولأنني كنت أدرك أنها ماتت حتماً: هل سأنتهي أنا و **بوني** على لوحة إعلانية كهذه أيضاً؟ قال الرجلان إنهما لن يؤذيانا إن نفذنا ما يطلبانه، غير أنني أجزم أن الخاطف الذي اختطف تلك الفتاة الأخرى قال لها الشيء ذاته!

أغمضتُ عينَي بإحكام.

وانعطفت الشاحنة انعطافاً حاداً نحو اليسار، مما أدى إلى اندفاعنا جميعاً نحو الجانب. ثبّتُ قدمَي ضد جزء معدني بارز من الأرضية وتماسكتُ حتى لا أسقط.

ضمت **بوني** جسدها بيقين أشد نحو جسدي وأصدرت أنيناً خافتاً، غير أنها لم تصرخ مجدداً.

طرق، طرق، طرق.

وارتفعت شهقات باقي الأطفال وهم يفقدون توازنهم ويصطدمون بجوانب الشاحنة.

وقال صوت **كيد** الضئيل والخائف: «أنا أصاب بدوار السيارة.»

وهمس شخص آخر، ربما كانت **إيفا** أو **ميندي**: «وأنا أيضاً.»

لم أكن أُصاب بدوار السيارة بسهولة؛ فقد قرأتُ كتابي طوال الطريق إلى «ماكول» في الصيف الماضي، حين ذهبنا إلى البحيرة مع أمي وجدي. غير أن معدتي هي الأخرى بدأت تضطرب داخل هذه الشاحنة الحارة والمظلمة التي تواصل الانعطاف الحاد نحو اليسار، وكأننا ندور في حلقات مفرغة!

ونفذ شعاع ضوء واحد باهت وشديد الضآلة عبر إحدى النوافذ المدهونة باللون الأسود خلف رأسي، غير أنه لم يحدث أي فارق؛ إذ بدا وكأنه نجم ميت وسط الظلام.

قالت **روز** بصوت محشرج بالدموع: «يجب أن أذهب إلى الحمام، لقد حبستُ بولَي بعد المدرسة حتى لا تفوتني الحافلة.»

غصت **بوني** قائلة: «وأنا أيضاً.»

وأنا أيضاً، تفكرتُ في نفسي، لكنني كتمتُ الأمر.

لم تنبس **السيدة جيسا** ببنت شفة لعدة دقائق. لماذا لا تقدم يد المساعدة؟ بدلاً من ذلك، كانت تقبع هناك كقطعة خشب جامدة!

قلتُ بأعلى وأقوى صوت أملكه: «تماسكوا فحسب، سنصل إلى هناك قريباً.» كان ثمة من يحتاج للقول ذلك، وكان ثمة من يتوجب عليه مواساة هؤلاء الأطفال.

تباً!

وقبل أن أستوعب ما حدث بالتدقيق، ضربت رائحة القيء الكريهة أنفي!

همس **كيد** وهو ينتحب الآن أيضاً: «أنا آسف...»

***

لفترة من الوقت، حاولتُ تتبع الاتجاهات التي تنعطف إليها الشاحنة: يسار، يسار. يمين، يمين، يمين، ثم انعطاف حاد نحو اليسار. يسار، يسار، يسار، ثم انعطاف حاد نحو اليمين. كانت الانعطافات تتوالى بسرعة متسارعة، وتملكني الخاطر مجدداً بأننا ندور في حلقات مفرغة! هل يحاولون إرباكنا؟ تجريدنا من القدرة على تحديد مسارنا أو المسافة التي قطعناها؟

على الأقل، كان ذلك الخاطر يُشغل تفكيري بعيداً عن رائحة القيء الحارة الخانقة، وعن مثانتي التي أضحت كبالون على وشك الانفجار!

وسرعان ما استسلمتُ وتوقفتُ عن تتبع الانعطافات، وشرعتُ أدعو أن نتوقف قريباً. لم تكن ثمة طريقة لمعرفة مقدار الوقت الذي مضى، غير أن الرحلة بدت لي أطول وأقصر في الوقت ذاته مقارنة بطريقنا نحو «ماكول».

كان حلقي جافاً تماماً وكأنه محشو بالقطن، وجسدي يستشعر الشعور ذاته الذي انتابني يوم بقيتُ أنا و **بوني** في حوض الاستحمام الساخن بالمركز الترفيهي لفترة أطول من اللازم— حرارة وحكة ودوار خفيف في الوقت ذاته.

وبعد **كيد**، سمعتُ اثنين آخرين من الأطفال يتقيآن: **روز** و **شارلوت**؛ وعرفتُ ذلك لأن كلتيهما همست باعتذار عقب ذلك. جعلتني الرائحة أستشعر رغبة في التقيؤ أيضاً، غير أنني كتمتُ الأمر في أعماقي. واستقام الطريق أخيراً، مما أتاح لمعدتي أن تستريح قليلاً، بيد أن ذلك لم يغير شيئاً من حاجتي الماسة للتبول! شددتُ جسدي وتماسكتُ لدرجة أن أسناني أخذت تؤلمني من شدة الكز عليها.

بدا جسد **بوني** الملتصق بي كقطعة كعك نصف مطهوة ذابت على جسدي. وكانت قد لزمت الصمت لفترة قصيرة، غير أنني أضحيتُ أستشعر ارتعادها الآن—ارتجافات طويلة تتزايد مدتها مع كل مرة.

قالت بنبرة خافتة كدتُ لا أسمعها: «**سيدج**، لا أستطيع الاحتمال أكثر...» واستطعتُ سماع الرعب والخجل يشتعلان في همسها.

همستُ لها مجدداً: «لا بأس يا **بوني**.»

غصت قائلة وصوتها يتحشرج بينما بدأ جسدها يرتعد مجدداً: «كلا، ليس بأمر عادي! أنا لستُ طفلة صغيرة!»

ابتلعتُ الغصة القاسية القابعة في حنجرتي وأغمضتُ عينَي بإحكام مجدداً. ثم انحنيتُ نحوها وهمستُ:

«أعلم أنكِ لستِ كذلك، وأنا أيضاً بحاجة للتبول، الأمر ليس بالخطب الجلل.»

وقبل أن أتمكن من التفكير في الأمر بعمق، توقفتُ عن شد عضلاتي وأطلقتُ العنان لمثانتي.

كان الشعور فظيعاً ومريحاً في الوقت ذاته! اخترق السائل الحار بنطال الجينز الذي أرتديه وجعل وجنتيّ تشتعلان بحمرة أشد خجلاً. لم أتبول في بنطالي قط من قبل! غير أن **بوني** فعلتها في العام الماضي حين كانت في الروضة، وأرسلت المعلمة ملاحظة معها تفيد بضرورة ارتدائها حفاضات تدريبية للقدوم إلى الصف إن تكرر الأمر. وكانت **بوني** شديدة الخجل من العودة لدرجة أنها تظاهرت بالمرض لتتمكن من البقاء في المنزل في اليوم التالي.

لزمت **بوني** الصمت وأصدرت شهقة صغيرة: "أوه!"
واستطعتُ سماع نشيجها الخافت، غير أنها توقفت عن الارتعاد وهمست:
«شكراً يا **سيدج**.» ثم فعلت الشيء ذاته مثلي.

10

جيسا

«تستحق **جيسا لاندون** أن تتعفن في الجحيم».

تلك كانت الكلمات التي فاه بها شقيق زوجي السابق حين أدلى بشهادته في جلسة الاستماع بالمحكمة منذ أكثر من ثلاثة أعوام بقليل. تطلع إليّ مباشرة وبصقها في وجهي، وكأنه لم يسألني قبل سنوات عما إذا كنتُ أرغب في إضافة الجبن إلى شطيرة البرغر في حفلات الشواء العائلية! وكأنه لم يكن يختلس النظرات بصمت إلى الخدوش المنتشرة على ذراعي والندبة البنفسجية والصفراء على فخذي، حيث كان شقيقه قد دفعني بقوة إلى الحائط.

وظلت كلماته تتردد في ذهني كحلقة لا تتوقف:

تستحق جيسَا لاندون أن تتعفن في الجحيم.

لأنني، وها أنا ذا، أتعفن في الجحيم بالفعل!

فقدتُ القدرة على تتبع عدد الأطفال الذين تقيأوا وتبولوا على أنفسهم. وكانت الرائحة القاتمة والغليظة القابعة داخل الشاحنة المكتومة الخالية من الهواء شديدة السوء لدرجة أنني لم أعد أدرك ما إذا كنتُ أخشى التنفس أم أخشى التوقف عنه!

وكان بعض الأطفال لا يزالون ينتحبون.

أردتُ احتضانهم، ومواساتهم، غير أن ذراعيّ ويديّ كانتا موثوقتين بالرباطات البلاستيكية بشدة، لدرجة أنني فقدتُ الشعور بأصابعي وأصابع قدميّ كلياً. وكنتُ أواصل فتح فمي لأخبرهم بأن كل شيء سيكون على ما يرام؛ فكان بإمكاني فعل ذلك على الأقل، إذ لم يكن فمي مكمماً بالشرائط اللاصقة. كان بإمكاني قول شيء لطيف بدلاً من الصراخ في وجوههم بحدّة للنوم والتزام الصمت حين شرعت إحدى الفتيات الصغيرات في الصراخ أول مرة.

غير أنني لم أكن لأخبرهم بأن كل شيء سيكون على ما يرام؛ فقد سلكتُ هذا الطريق من قبل:

«لا بأس يا **صوف**، أنا آسفة لأن الصراخ أقلقكِ من نومكِ. كان مجرد التلفاز... كان الصوت مرتفعاً للغاية بين والدكِ وبيني. كل شيء على ما يرام، عودي إلى النوم يا حبيبتي.»

فركت **صوفي** عينيها واستلقت مجدداً في الفراش:

«حسناً يا أمي.»

وصدقتني! وكان ثمة ارتياح في ذلك، بل وحتى نوع من القناعة، جعل كل ما ينتظرني خارج غرفة نومها أسهل على الاحتمال قليلاً...

سأل أحد الأطفال: «متى سيخرجوننا من هنا؟» وظلت الكلمات معلقة في الظلمة التي تشبه الكهف في منطقة الشحن دون إجابة. لم يجبه أي من الأطفال الآخرين، فقد كان السؤال موجهاً إليّ بوضوح.

أطبقتُ شفتيّ بإحكام ووضعتُ رأسي على ركبتَي.

مكثتُ على حافة فراش **صوف** لبضع ثوانٍ أخرى حتى انتظم تنفسها وارتخت شفتاها الوردية أثناء النوم. وضعتُ يدي – التي تؤلمني حيث انغرزت أصابعه – على ذراع **صوف** الصغيرة المثالية. ومررتُ يدي ببطء على شعرها الداكن الناعم، بينما لا أزال أستشعر وخز فروة رأسي حيث قبض على شعري وأنا أحاول التملص من قبضته الحديدية. كان يبتغي مني أن "أنظر في عينيه" بدلاً من أن أكون "عاهرة خجولة" بالابتعاد عنه.

كانت **صوف** تعشق والدها، وكنتُ أنا كذلك!

وحين بدأ الشجار في الطابق السفلي، كان يعد لنا شطائر الجبن المشوي في وقت متأخر من الليل، مرتدياً سروال "غودزيلا" القصير الذي يضحكني.

ذلك كان **مات** الحقيقي! **مات** الذي يحمل العناكب للخارج بدلاً من دهسها، و**مات** الذي يكتب لي رسالة حب في كل عيد ميلاد، وفي كل عيد حب، وفي كل عيد ميلاد مجيد، و**مات** الذي أعد

لي حساء الأحرف الأبجدية في أواخر الظهيرة أثناء حملي بـ **صوف** لأنه كان الشيء الوحيد الذي أستطيع تناوله دون تقيؤ!
انعطفت الشاحنة بسرعة فائقة، مما أدى إلى طردنا جميعاً نحو اليمين.
سأل أحد الأطفال الصغار: «سيدة **جيسا**؟ سياتي أباؤنا وأمهاتنا للبحث عنا، أليس كذلك؟»
ابتلعتُ الغصة القابعة في حنجرتي، والمترعة بكل أشكال المواساة – والأكاذيب – التي أردتُ طمأنته بها.
كل ما استطعتُ قوله هو: «تماسكوا لفترة أطول قليلاً فحسب، حسناً؟»
وفي الواقع، كان هذا أفضل ما يمكن لأي منا فعله الآن: تقبل العاصفة المريعة، والتقوقع على الذات، والاحتمال حتى تنتهي!
تماماً كما فعلتُ لليالٍ طوال حين كان **مات** ثقلاً بالشراب وغاضباً. لا تستفز الدب، ولا تقاوم!
وحين عدتُ بخطوات خفيفة إلى الممر وأغلقتُ باب **صوف**، كان الطابق السفلي ساكناً. ظننتُ أن **مات** قد خلد إلى النوم. وكان ذلك أمراً جيداً؛ فالنوم عادة ما يعيد ضبط الليالي السيئة.
غير أنه لم يكن نائماً؛ بل كان بانتظاري عند أسفل الدرج، مستعداً لمواصلة ما بدأه حين شرعت **صوف** في البكاء:

«ذلك الرجل الذي ظهر على كاميرا الباب؟ رأيتُ وجهه حين فتحتِ الباب يا **جيسا**! لا تخبريني أنها المرة الأولى التي يأتي فيها إلى المنزل! أنتِ تعرفينه، هل تخونينني معه؟»

هززتُ رأسي، آملةً أن يرى الدموع التي تملأ عيني؛ ففي بعض الأحيان كانت تلك الدموع تخرجه من نوبته. غير أن الأمر لم يجدِ نفعاً هذه المرة: «ولماذا تحتاجين إلى اشتراك النادي الرياضي بشدة؟ من تلتقين هناك؟ إياكِ وأن تكذبي عليّ يا **جيسا**...»

ضغط سائق الشاحنة على الفرامل بقوة قاسية، لينتشلني من كابوس ويدفعني نحو الكابوس التالي!

وانطفأ المحرك.

كان رأسي يستشعر ثقلاً كبالون من الرصاص، فارغاً وشديد الثقل لدرجة أنني كدتُ أعجز عن رفعه.

هل توقفنا أخيراً؟ وما الذي سيعقب ذلك؟ ومن هؤلاء المرضى النفسيون؟

رد دماغي بسرعة:

إنهم كالدببة، وسيفتكون بكِ ما لم تتظاهري بالموت.

آنّ **كيد** بصوت رتيب، وكان صوته من الأصوات القليلة التي ميزتها: «سيدة **جيسا**...»

نهرتُه والخوف يدفع الكلمات بقسوة أشد مما أردتُ:

«نفذوا ما يطلبه الرجلان فحسب!»

ساد الصمت على كل شيء وكل شخص لمدة نصف ثانية.

ثم سمعتُ ضوضاء: *طرق، واحتكاك، ثم طرق.* وكانت الحركة تصدر من الجانب الآخر للشاحنة. هل نهض أحد الأطفال؟

رمشتُ في الظلام وأدرتُ رأسي بسرعة، محاولة عاجزة لرؤية من يتحرك في المكان. لقد وقف أحدهم بالفعل!

فحذرتُ بنشيج والهلع يجعل صدري يختنق بالرعب:

«ابقوا جالسين!»

وشعاع الضوء الخافت الضئيل، وهو الشيء الوحيد الذي يخرق الظلمة في الجزء الخلفي من الشاحنة، انطفأ فجأة!

ثم تلا ذلك صوت كشط. وبدأ شعاع الضوء يتسع!

لقد نهض أحد الأطفال – لم أتمكن من رؤية هويته – وأخذ يكشط الطلاء الأسود عن النافذة!

كلا، كلا، كلا! فالرجلان قادمان نحو الخلف وسيفتحان أبواب الشاحنة في أي لحظة الآن!

وهذا النوع من العصيان هو بالظبط ما يجعل الأمور تتدهور من سيء إلى أسوأ على الإطلاق!

11

تيد

من البستان، قُدتُ حافلة **سبيدي شاتل** لمسافة ميلين باتجاه مدينة **بويسي**، عبر أحد المداخل الفردية للضواحي.

كنتُ أردد لنفسي: «ببطء وثبات»، كلما تملكني الإغراء لتجاوز السرعة المحددة قليلاً. لم تكن هناك أي سيارات أخرى في الجوار. والحافلة رقم 315 لم يكن من المفترض أن تصل إلى **برايت بيجينينغز** قبل عشر دقائق أخرى، لذا لم يكن أحد يعلم بعد أن الأطفال مفقودون. لكن لم يكن هناك أي داعٍ للمجازفة.

كانت الحافلة مزودة بمكيف هواء، لكنني فتحتُ النافذة قليلاً فحسب، لأن رائحة عرق **أندي** وشعر زيت النعناع الأحمق ذلك كانت قوية جداً هنا. شعرتُ بالأسف تجاه الركاب الذين سينقلهم إلى المطار لاحقاً هذا المساء—وهو السبب الرئيسي لوجود حافلة المطار معه اليوم. كان البقشيش النقدي من السيدة التي نقلها إلى المطار في وقت سابق لا يزال يقبع في حامل الأكواب في الأمام—إلى جانب منديل مستعمل.

تمتمتُ وأنا أرمي المنديل على الأرض: «مقرف يا صاح!»

كنا قد تناقشنا حول من سيقود كل مركبة، تماماً كما تجادلنا في كل تفصيلة أخرى من الخطة نحو مائة مرة على مدار الشهرين الماضيين. كانت حافلة المطار البيضاء هي سيارة عمل **أندي**، لكنها كانت ذات ناقل حركة أوتوماتيكي. أما الشاحنة الرمادية التي اشتريناها من "كرايغسليست" فكانت تعمل بناقل حركة يدوي (عادي)، وهذا ما حسم الأمر في النهاية. كان بإمكاني تعلم قيادة ناقل الحركة اليدوي—أو على الأقل أخبرتُ نفسي أنني ربما أستطيع ذلك—لكنني كنتُ أعلم يقيناً أن المحرك سيتوقف بي عندما يشتد الضغط.

مع اقترابي من الانعطاف التالي، تفحصتُ المرآة الجانبية ومسحتُ الأفق. كان هذا الجانب من **تريجر فالي** يتكون معظمه من تلال، تتناثر عليها بلدات صغيرة كادت لا تستحق محطة وقود خاصة بها. لذا، حتى خلال "ساعة الذروة"، كانت الطرق خالية تقريباً.

وعندما كان الطريق خالياً تماماً، أبطأتُ إلى أقصى حد، وأنزلتُ نافذة جانب السائق، ألقيتُ بكيس "واللمارت" الذي يحتوي على الهواتف المحمولة في المياه العكرة لخندق مليء بالأعشاب الضارة.

همستُ قائلاً: «وداعاً أيتها العاهرات»، وسعدتُ بالتخلص من قنابل التتبع الموقوتة الصغيرة تلك، حيث أصدر بعضها رنيناً

برسائل نصية قصيرة أثناء قيادتي طوال الدقائق الخمس عشرة الماضية.

ستعثر الشرطة على الهواتف في النهاية. ربما يتمكنون حتى من تتبع تاريخ إشارات أبراج الهواتف المحمولة وصولاً إلى المكان الذي تركنا فيه الحافلة في البستان، بمجرد أن يبدأ التحقيق بشكل جدي.

لكن كل ذلك سيستغرق وقتاً. ولن يقودهم إلى أي شيء على الإطلاق.

سحبتُ نفساً عميقاً وضغطتُ على دواسة البنزين، حريصاً على عدم دفع الشاحنة لتجاوز سرعة خمسة وستين وأنا أتجه نحو مخرج **صن سيت سبرينغز**.

كان المجمع السكني الفاخر يقع في منتصف التلال بين **بويسي** وبقية المناطق الريفية في إيداهو. نصفه كان عبارة عن قصور ضخمة حديثة، بُنيت خلال الطفرة العقارية على مدار السنوات الثلاث الماضية. أما النصف الآخر فكان بيوتاً تبدو أكثر عادية، متوارية في التلال على أرض كانت رخيصة قبل عشر سنوات. كانت هناك سلسلة طويلة من اللوحات الإعلانية الضخمة قبل طريق الدخول إلى المجمع تصرخ بهراء مثل:

الفخامة الريفية، مدينة في التلال، وحياة الريف مع ميزات المدينة.

كانت **صن سيت سبرينغز** على وشك الانتهاء من بناء مدرستها الابتدائية الخاصة—والفاخرة. لكن في الوقت الحالي، كان لا يزال يتعين نقل جميع الأطفال بالحافلات لمسافة عشرة أميال إلى مدرسة **نورثريدج** السيئة في المناطق النائية. وقد حدث شجار كبير حول هذا الأمر.

لكن مدينة **بويسي** أحدثت تغييراً واحداً رداً على تذمر أمهات القصور في **صن سيت سبرينغز**؛ حيث تمت إضافة دار **برايت بيجينينغز** في **بويسي** إلى قائمة برامج الرعاية بعد المدرسة المدعومة من الدولة. لذا، أصبح بإمكان أطفال **نورثريدج** الذهاب إلى هناك لرعاية ما بعد المدرسة أيضاً.

كان هذا نوعاً من الهراء الذي لم أكن لأهتم به من قبل. "**صن سيت سوينغز**"— هكذا كان يطلق عليها سكان **بويسي**، بما تتميز به من أجواء تشبه مدينة «ستيبفورد» والشائعات المتداولة عن ممارسي تبادل الأزواج — لم تكن تعني لي شيئًا. أما أمثالي، ممن عاشوا في إيداهو الحقيقية بالقرب من **نورثريدج**، فقد كانوا يشيرون إلى هذا المجمع المخطط له بـ "**محطة الوقود الجيدة**"، مع محطة "شيفرون" الجديدة والبراقة. حتى إنها تحتوي على إحدى تلك الآلات التي يمكنها إخراج ميلك شيك "أوريو" في دقيقتين. أخذتُ فتاة إلى هناك

مرة، بعد خروجي من السجن. قبل أن يحصل لي **أندي** على الوظيفة في مقلع الحجارة مباشرة.

تبين أن الفتاة فاشلة في النهاية، لكنها كانت السبب في أنني وطأتُ قدماً داخل مطعم بيتزا صغير ولطيف على أطراف المدينة—**سبيدواغونز**.

كان المطعم الصغير منفصلاً عن المشاريع السكنية الجديدة التي ظهرت كزهور من الجص خلال السنوات الثلاث الماضية. كان موجودًا هناك منذ ما قبل ظهور القصور الفخمة، لكنه حصل على تجديد لمظهره.

وهذا هو المكان الذي كنتُ أتجه إليه الآن.

قلتُ لنفسي وأنا أوقف الحافلة على جانب الطريق بجوار **سبيدواغونز**: «يا إلهي!». كانت هناك لوحة حروف صغيرة مزخرفة تواجه الطريق مكتوب عليها: *هل تريد بيتزا مني؟* كان المكان مثيراً للضحك، لكن مع ذلك، حتى من الخارج، جعلت رائحة الدهون والجبن معدتي تقرقر.

لم أكن هنا من أجل البيتزا، رغم ذلك.

نزعتُ قفازاتي، ثم أغلقتُ الباب بمؤخرت وركي وألقيتُ نظرة حولي، محاولاً ألا أبدو مثيراً للشبهات.

همستُ: «تماسك يا تيد، كل شيء على ما يرام».

نظرتُ خلفي إلى الطريق السريع 55. مرت بضع سيارات مسرعة.

نظرتُ إلى اليسار، ثم إلى اليمين. لافتة فاخرة تصرخ **صن سيت سبرينغز**، وتلال بنية قبيحة، و"بستان" مبتذل حيث يمكن للسكان الميسورين قطف التفاح في الخريف.

أمامي، كانت واجهة **سبيدواغونز** الجصية الجديدة ولافتة النيون ترمشان ترحيباً. كان موقف السيارات خالياً، الحمد لله. لم تبدأ ذروة العشاء بعد.

كنتُ أعلم بالفعل أن المكان لا يحتوي على كاميرات مراقبة. ليس حتى الأسبوع الماضي، على أي حال. ومع ذلك، حركتُ عينَي ذهاباً وإياباً عبر المدخل الرئيسي بحثاً عن أي علامة على وجود مراقبة.

لا شيء.

أصدر الباب رنيناً عندما دخلتُ.

قفزت فتاة نحيفة في سن المدرسة الثانوية، مع فك سفلي بارز وعينين بنيتين ضخمتين، من المكان الذي كانت تتكئ فيه على الطاولة مع هاتفها: «أوه، مرحباً، أهلاً بك في...» حدقت بي، ويبدو عليها الهلع بوضوح.

جف فمي، وتمنيتُ لو كان الجورب النسائي على رأسي مجدداً! هل عرفتني من الأسبوع الماضي؟ هل تملك هذه الفتاة ذاكرة

فوتوغرافية أم ماذا؟ ولكن لماذا فمها مفتوح هكذا؟ لقد دخلتُ وخرجتُ في خمس دقائق على الأكثر، لاستكشاف المكان— وشراء بيتزا اللعنة لأنها بصراحة كانت جيدة جداً.

قالت فجأة بنبرة انتصار وهي ترخي وجهها: «مرحباً بك في سبيدواغونز!»

أجبرتُ نفسي على إخراج ضحكة. هي لم تتعرف عليّ. كانت غبية فحسب. لقد نسيت اسم المكان الذي تعمل فيه!

سألتني وجعلت صوتها عالياً وغريباً، وكأنها تحاول المغازلة أو شيء من هذا القبيل: «ماذا يمكنني أن أقدم لك؟»

ابتسمتُ لها مجدداً، وحافظتُ على وجهي محايداً تماماً.

ادخل، اخرج، ولا تترك أثراً في الذاكرة. قلتُ: «صديقتي أنجبت طفلاً للتو»، وانبهرتُ بمدى جودة القصة وهي تخرج من فمي: «أردتُ إرسال العشاء لها الليلة. هي تعيش على بعد بضع كتل سكنية فقط في ذلك الاتجاه، لكنني لا أؤثر إزعاجها. هل يمكنكم توصيلها؟»

أصدرت الفتاة صوتاً لطيفاً، ثم هزت رأسها بقوة. ولم يتحرك شعرها البني القصير المشدود في ذيل حصان محكم: «هذا لطيف جداً منك. نعم، بالتأكيد. ماذا تريد؟ لدينا عرض خاص: اثنتان متوسطان مع الإضافات بعشرين دولاراً».

تظاهرتُ بالنظر إلى قائمة الطعام: «أم، فقط بيتزا كبيرة بالبيروني».

هزت رأسها مجدداً: «حسناً، رائع. ما هو العنوان؟»

كان حلقي جافاً جداً لدرجة أنني كدتُ أعجز عن البلع. مددتُ يدي إلى الجيب الأمامي لسترتي ذات القلنسوة وأخرجتُ الظرف الذي أحضرته معي: «العنوان مدون هنا بالتدقيق. هل يمكنني في الواقع إلصاق هذه الملاحظة على العلبة؟ صديقتي هذه تمر بوقت عصيب، كما تعلمين، أم جديدة. فقط اتركي البيتزا على عتبة الباب لها، حسناً؟ في حال كان الطفل نائماً مثلاً. لقد أخبرتها بالفعل أنني سأرسل العشاء».

هزت الفتاة رأسها لأعلى ولأسفل وكأنها تعرف حقاً مدى صعوبة أن تكون أمّاً جديدة، رغم أنها ربما لم تقبل رجلاً قط في حياتها! اتسعت عيناها ولمعتا: «أوه، بالتأكيد. دعني أحضر بعض الشريط اللاصق لملاحظتك».

بعد ثلاث دقائق، كنتُ أتجه مباشرة للعودة إلى حافلة المطار. بقيت يداي مدفوستين في جيب سترتي، وأنا أقاوم الرغبة في التلويح بقبضتي في الهواء احتفالاً. لقد قمنا بعمل جيد للغاية بالنسبة لشخصين فاشلين يؤديان وظائفهما بحدودها الأدنى.

هكذا كانت أمي تطلق عليّ وعلى **أندي**: «فاشلان يؤديان الحد الأدنى». وكأنه تشخيص لمرض ما! وكأنها تعتقد أنني غبي

وغير مجدٍ تماماً مثله! وكأنها كانت أفضل مني، وهي ترتدي شبكة شعر وتقدم شطائر «سلوبي جو» في دار المسنين في إيميت، ثم تتناول المخدرات وتجلس أمام التلفاز مع البيرة وكيس من البطاطس المقلية حتى تفقد وعيها!

أندي تخرج من المدرسة الثانوية على الأقل. أما أنا فلا. في الواقع، حصلتُ على درجات جيدة، بل وعلى بعض الدرجات العالية الممتازة (A). لكنني قضيتُ الأسبوعين الأخيرين من سنتي الأخيرة في المدرسة في المستشفى، ثم ستين يوماً في السجن.

تعدي على ملكية الغير.

استخدام غير قانوني لمركبة ذات محرك.

القيادة تحت تأثير المواد المخدرة.

حيازة مخدرات.

تخريب جنائي.

خمس تهم، كل ذلك لمجرد أن عمري تجاوز الثامنة عشرة. بفارق أسبوعين. و... لأن الدراجة النارية التي كنت أقودها، وأنا أحاول القفز فوق المنحدر في متنزه كانيون كريك، كانت «مستعارة».

قال **أندي** إن صديقه كان يعلم أنه أخذ الدراجة. ولكن عندما تحطمت—وتحطمتُ معها—وجه "الصديق" التهم؛ ضدي أنا

بالذات! طالما أنني كنتُ الشخص الذي اصطدم بالدراجة حول شجرة في قاع الأخدود، وأُلقي القبض عليّ وبحوزتي ثمن أوقية من الماريجوانا في جيبي الخلفي لم أكن أريدها حتى؛ كان **أندي** قد أعطاني إياها في عيد ميلادي.

لذا، نعم، كان الفشل محتوماً ومكتوباً عليّ بعد ذلك. بغض النظر عن مدى إلحاح أمي بشأن حصولي على شهادة الثانوية العامة أو "السعي لتطوير نفسي"، لم يكن ذلك سيقود إلى أي مكان.

لم يكن أحد يرغب في توظيف شخص لديه سجل إجرامي، أو مواعدة شخص لديه سجل إجرامي. وكانت الوظيفة السيئة في مقلع الحجارة مع **أندي** هي أكبر إنجاز في حياتي كمحُدثٍ بالغ!

لقد تعرضتُ للظلم منذ البداية. لكن انظر إليّ الآن!

كنتُ في طريقي لتنفيذ أكبر وأفضل عملية سرقة واختطاف في **إيداهو**، وكنتُ سأنفذها وأنجو بفعلتي أيضاً!

12

سيدج

كان الطلاء المدهون على نافذة الشاحنة سميكاً، وكان الوصول إليه صعباً ويداي موثوقتان خلف ظهري. غير أنني عندما استدرتُ بظهري، ووقفتُ على أطراف أصابع قدميّ، ثم حككتُ الطلاء بأظفر إبهامي، بدأ يزول قليلاً.

صرخت **السيدة جيسا**: «اجلسي! وتوقفي عن فعل ذلك!»

تجاهلتُ **السيدة جيسا** وواصلتُ الخدش، حتى أضحى الثقب الصغير بحجم قطعة نقدية معدنية—كبيراً بما يكفي لأتمكن من الرؤية عبره حين ألتفت لأتفحص ما أنجزته.

همست **السيدة جيسا** بنشيج حين انساب الضوء القادم عبر الطلاء ووقع عليّ كبقعة ضوء ضوئية صغيرة: «**سيدج**!»

تجاهلتُها، بالأسلوب ذاته الذي أتجاهل به مراقبة الاستراحة في المدرسة حين تخبرني أنه لا يُسمح لي بالجلوس فوق قضبان التسلق، رغم عدم وجود أي قاعدة تمنع ذلك. كانت أمي وجدي يقرآن لنا كتاب «*هاريت الجاسوسة*» في المنزل، وفي بعض الأحيان كنتُ أسأل نفسي عما كانت ستفعله **هاريت** في موقف كهذا.

كانت **هاريت** ستظل جالسة فوق قضبان التسلق، وستستغل الفرصة لتلقي نظرة خارج هذه الشاحنة!

لم ينقشع الطلاء في قطع كبيرة كما كنتُ آمل، وكانت يداي مخدرتين تماماً من الرباطات البلاستيكية لدرجة أنني لم أستطع تحريك أصابعي بسرعة—غير أن الأمر كان ينجح. وحين ألتفتُ مجدداً للستطلاع عبر الثقب الذي أحدثتُه، استطعتُ رؤية ما بالخارج قليلاً.

على بعد بضع أقدام من النافذة، كان ثمة جدار صخري يميل للون الرمادي والأحمر. وكان يرتفع لأعلى ما يمكن لعينَي رؤيته، وكأننا في قاع جرف أو في حفرة ضخمة.

وإلى اليسار من الجدار، باتجاه مقدمة الشاحنة، كانت هناك كومة كبيرة من نوع ما: قطع من الخرسانة، والأتربة، وأجزاء مكسورة من البلاستيك والمعادن. بدا المكان كأنه مكب نفايات، تشابه ذاك الذي ذهبنا إليه في رحلة مدرسية لنتعلم أهمية إعادة التدوير.

لم تكن لديّ أدنى فكرة عن موقعنا؛ إذ لم يكن أي شيء يبدو مألوفاً. هل نوجد في مكب النفايات حقاً؟ أم في قاع جرف؟ وكم من الوقت قضيناه داخل هذه الشاحنة؟ بدت لي الرحلة وكأنها استغرقت ساعات، بيد أن ذلك ربما كان بسبب المأساة المروعة في الداخل. تسارعت أنفاسي، وضايقتُ أحد الأطفال الآخرين

حين حركتُ قدمي بالخطأ. وخلفي، شرعت **بوني** في البكاء مجدداً.

اهتزت الشاحنة، فتسمرتُ في مكاني! وفي الأمام، ارتفع صوت فتح باب السيارة ثم إغلاقه.

تشنجتُ، مستعدة للجلوس مجدداً. لم أسمع باباً ثانياً يُفتح أو يُغلق، مما يعني أن رجلاً واحداً فقط هو من ترجل من الشاحنة. وكنتُ واثقة تماماً من أن الرجل الآخر هو من كان يقود حافلة المطار البيضاء. فهل كان هنا الآن أيضاً؟

ضغطتُ بعيني باقتراب أشد نحو الثقب الصغير الذي خدشتُه في النافذة. استطعتُ رؤيته، لكنه لم ينظر في اتجاهي.

تشنجت معدتي، واستشعرت ارتعاد جسدي. ومع ذلك، مكثتُ في مكاني.

قالت **السيدة جيسا**: «**سيدج!**» بدا صوتها وكأنها على وشك التقيؤ هي الأخرى. تحركت قليلاً، غير أن خياراتها كانت معدومة لإيقافي ويداها وقدماها موثوقة بالكامل.

وقع صوت خطوات ثقيلة على الأرض، وظهر الرجل في نطاق رؤيتي. كان يتطلع نحو كومة الخردة.

تأملتُه بتركيز وكأن عينَي أشعة ليزر: كان يملك شعراً بنياً طويلاً ومنفوشاً، يبدو مجعداً وزيتياً في الوقت ذاته. كان ضخم

الجثة، وتظهر بقع العرق تحت إبطي قميصه البني ذي الأكمام القصيرة وسرواله القصير (الكارغو) الفضفاض.

همستُ بلسان ثقيل في فمي: «إنه يقف هناك فحسب». وكنتُ أستشعر طعم القئ في الهواء الذي يغلي حرارة: «لم يعد يضع الجورب النسائي على رأسه، بل يمسك به في يده». تطلعتُ في كل الأرجاء، محاولة استيعاب ما أراه: «لا أعلم أين نحن». اهتز صوتي قليلاً: «ثمة... جدار صخري، الكثير من الأتربة، وكومة من الخردة».

لزم باقي الأطفال الصمت التام.

ولم تطالبني **السيدة جيسا** بالجلوس هذه المرة. بدلاً من ذلك، جعلت صوتها خافضاً وحاداً وقالت: «**سيدج**، في اللحظة التي يبدأ فيها بالمشي مجدداً، اجلسي فوراً. وأنتم جميعاً، نفذوا ما يطلبه الرجلان بالظبط حين يفتحان الشاحنة، دون أي مجادلة».

هززتُ رأسي بنفاد صبر وواصلتُ النظر.

ركل الرجل حجراً على الأرض وتمتم بشيء تحت أنفاسه.

ثم التفت ليعود.

أول خاطر خطر ببالي هو أنه يشبه **السيد المسيح**، لكن بنظرة شريرة... وسميناً! كانت الشمس تضرب شعره البني الزيتي الذي يصل لكتفيه، ليغدو وكأنه يتوهج قليلاً. وكانت لديه لحية بالطول ذاته لشعره. شفتاه كانتا متشققتين، وكأنه يواصل

لعقهما. وكان ثمة تجعيد كبير وغاضب بين حاجبيه الخفيفين، وعيناه متقاطعتان ضيقتان لأنه كان يواجه الشمس.

فتحتُ فمي لأخبر **السيدة جيسا** وباقي الأطفال بمظهره. لم أكن واثقة كيف سيساعد ذلك، بيد أنه كان الشيء الوحيد الذي تفكرتُ بفعله: « يملك شعراً بنياً طويلاً..»

نهرتني بنشيج ومقاطعة خافتة: «لا تخبرينا بمظهره! ثمة سبب يمنعهم من الرغبة في رؤيتنا لوجوههم!»

ابتلعتُ ريقي دون أن أضيف أي كلمة أخرى. هل كانت محقة في ذلك؟ أم أن كل رغبتها كانت في أن أجلس وألتزم الصمت؟ جعلت تلك الأسئلة معدتي تتلوى باعتصار أشد. كان الشعور ذاته الذي ينتابني حين يكرر جدي السؤال ذاته عليّ مراراً، أو يناديني بـ «شينا»، أو يسألني عن الكتاب الذي نقرؤه عند النوم، رغم أنه الكتاب ذاته الذي قرأناه الليلة الماضية «*هاريت الجاسوسة*». وكأنني بحاجة للحذر شديد الحذر مع الشخص البالغ الذي أحدثه. لم أكن أعلم لماذا تتصرف **السيدة جيسا** بجمود وقسوة شديدين، غير أن ذلك جعل رؤيتي تتغشوش وحلقي ينقبض.

والتفكير في جدي والقراءة عند النوم زاد الوضع سوءاً.

لن نكون في المنزل لموعد النوم الليلة؛ فالشمس كانت قد قطعت معظم طريقها نحو المغيب في السماء.

فهل سنعود إلى المنزل لموعد النوم مجدداً في يوم ما؟
تحرك «ذو الشعر الزيتي» بضع خطوات أخرى نحو الجزء الخلفي من الشاحنة، فتشنجتُ، مستعدة للجلوس على مؤخرتي والتظاهر بأنني لم أره للتو.
سمعت **السيدة جيسا** صوت الخطوات هي الأخرى وأصدرت شهقة لاهثة: «سوف..» ثم صححت كلمتها: «**سيدج**، اجلسي!»
انتفضتُ غضباً، وتجلت جملة من كتاب *«هاريت الجاسوسة»* في عقلي:
احتفظ بهدوء عقلك حين يفقد الجميع عقولهم من حولك ويلقون باللوم عليك.
وكانت إحدى الفتيات الأخريات قد شرعت في البكاء مجدداً.
وسأل صوت **كيد** الوقور والخائف: «ما الذي سيفعلانه بنا؟»
وسأل صوت حاد، ربما كان صوت **روز**، بعلو جعلني أقفز في مكاني: «هل سنموت؟»
قالت **السيدة جيسا**: «كلا، إن التزمنا الهدوء ولم نغضبهما...»
وحول «ذو الشعر الزيتي» عينيه ونظراته نحو الشاحنة.
انتفضتُ مبتعدة عن الثقب وحاولتُ الخَطْو نحو المكان الذي كنتُ أجلس فيه سابقاً. غير أن أحدهم كان قد تحرك بقدمه، فتعثرتُ بها!

شهقتُ وسقطتُ للخلف، لأرتطم بقوة بالأرضية المعدنية— وفوق حضن أحدهم—بصوت اصطدام ثقيل!

واصطدم شيء ما بجانب الشاحنة من الخارج بقوة قاسية! فصرخ بضعة أطفال، وكانت **بوني** من بينهم.

زنر «ذو الشعر الزيتي» بصوت زئيري: «صمتاً! لقد أخبرتكم بعدم التحرك اللعين في الداخل!»

استلقيتُ متسمرة في مكاني، وقلبي يخفق بشدة، رغم أن وركي كان يؤلمني لاصطدامه بشيء حاد على أرضية الشاحنة.

ومترعة بالرعب، انتظرتُ أن يخلع «ذو الشعر الزيتي» أبواب الشاحنة ويجذبني للخارج. وعندما لم يفعل، تزحزحتُ ببطء بعيداً عن الحضن الذي سقطتُ عليه حتى عدتُ لجلسة الاستواء.

همست **بوني** بصوت ضئيل عبر الصمت: «**سيدج؟**» وأطلق همسها موجة أخرى من النشيج عبر أرجاء الشاحنة.

بوصة تلو الأخرى، زحفتُ عائدة نحوها عبر الأجساد الملتصقة حتى أصبحنا جنباً إلى جنب مجدداً. ومع الثقب الصغير للضوء النافذ إلى داخل الشاحنة، استطعتُ التمييز الخفيف لتعابير وجوه الأطفال الأقرب إليّ.

كانت **بوني**، كبقية الأطفال، متسعة العينين ومطبقة الفم بإحكام وكأنها تخشى مما قد ينفجر منه. وكانت قصتها ملتصقة

بجبهتها، مبللة بالعرق وكأننا خرجنا للتو من حمام السباحة في دار **برايت بيجينينغز**.

أدرتُ رأسي لأتطلع نحو **السيدة جيسا** في الزاوية الخلفية للشاحنة. كانت قد رفعت ركبتيها نحو ذقنها ودست رأسها لدرجة أن شعرها الأحمر الساطع غطي وجهها بالكامل.

ومرت الثواني ببطء شديد...

ثم الدقائق... ما الذي يفعله «ذو الشعر الزيتي» بالخارج؟

وسمعت خطى أقدام تقع على الحصى. وكلما ابتعدت الخطى، تملكني الخوف من أنه قد يتركنا نطهى هنا دون أن يخرجنا أبداً! لكن حين تتحرك الأصوات باقتراب منا، كان يمتلكني الخوف من أن يفتح الأبواب ويطلق النار على أحدهم باستخدام ذلك المسدس!

ولا بد أن باقي الأطفال كانوا يتفكرون في الأمر ذاته؛ إذ بعد دقيقة، كان الجميع يتنفسون بسرعة، وكأنه لم تعد هناك كمية كافية من الهواء لتتسع لنا جميعاً...

وربما لم تكن هناك بالفعل!

أغمضتُ عينَي بإحكام وحاولتُ التفكير: *احتفظ بهدوء عقلك...* لم أكن أعلم ما الذي ينتظره «ذو الشعر الزيتي»، لكنني كنتُ أعلم أن كل هؤلاء الأطفال لن يستطيعوا الحفاظ على تماسكهم لفترة أطول.

لذا امسكتُ بأول فكرة خاطرة طرأت على ذهني، وهمستُ فجأة: «**بوني**، أنا ذاهبة في رحلة وسآخذ معي... طماطم».

فخفتت أصوات النشيج والتنفس السريع داخل الشاحنة.

وأصدرت **بوني** صوتاً خافتاً كان يمكن أن يكون ضحكة أو بكاء. حبستُ أنفاسي؛ كانت هذه لعبتها المفضلة، ولعبة أمي أيضاً. كانتا ترغبان دائماً في لعبها أثناء قيادتنا للسيارة. وكنتُ سيئة للغاية في اللعبة، لذا كنتُ أكتفي بالنظر عبر النافذة وتقليب عينَي.

قالت **بوني** أخيراً بنبرة مترددة: «أنا ذاهبة في رحلة وسآخذ معي طماطم وتفاحة».

قلتُ لها: «إذاً يمكنكِ القدوم».

سخرت **بوني**: «كان ذلك سهلاً للغاية!»

سأل **كيد**: «لماذا يمكنها الذهاب في الرحلة؟»

أخبرته **بوني** وهي تستعيد نبرة صوتها الطبيعية تقريباً: «كلاهما أشياءُ حمراء: طماطم، وتفاح. وعليك أن تحاول تخمين النمط».

أصدر أحدهم صوت استيعاب: «أوه!» ثم ارتفع صوت **شارلوت** قائلة: «أنا ذاهبة في رحلة وسآخذ معي دراجة».

قال **بن**: «هل يمكنني القدوم إن أخذتُ معي دراجة وسيارة؟»

قالت **شارلوت** بفخر: «كلا!»

سألت **إيفا**، وهي تنطقها بنبرة كأن أنفها مسدود بالكامل— وكانت تلك المرة الأولى التي أسمعها تقول فيها أي شيء على الإطلاق: «ماذا عن دراجة ونحلة؟»

أجابت **شارلوت** بحماس: «يمكنكِ القدوم!»

وفي الزاوية الخلفية للشاحنة، رفعت **السيدة جيسا** رأسها. لم أتمكن من رؤية عينيها، ولم تصدر أي صوت، غير أن كتفيها كانتا تهتزان لأعلى ولأسفل، لذا كنتُ واثقة من أنها تبكي.

واصلنا لعب اللعبة الغبية لقرابة خمس عشرة دقيقة حتى سمعنا صوت إطارات من بعيد، تدور عبر التراب باتجاه الشاحنة، يتبعها الصوت الخافت لمحرك سيارة.

ابتلعتُ الريق اللزج القابع في حنجرتي.

وخطا «ذو الشعر الزيتي» بضع خطوات سريعة نحو مصدر الصوت.

وتوقفت الإطارات عن الدوران خلفنا مباشرة، وانطفأ صوت المحرك الخافت.

ووانفتح باب بإصرار صرير.

وساد الصمت بيننا جميعاً لدرجة أتاحت لنا سماع «ذو الشعر الزيتي» وهو يقول: «أخيراً اللعنة!»

أردتُ بشدة الوقوف مجدداً والتطلع عبر الثقب في النافذة، لكنني كنتُ أعلم بالفعل أنني لن أتمكن من رؤية ما خلف الشاحنة.

وحذرني الشعور المرتعد والخائف في معدتي ألا أُحرك أي عضلة في جسدي.

كان ثمة شيء على وشك الحدوث الآن!

13

تيد

عندما تحول الطريق الترابي للمحجر أخيرًا إلى منعطفات متعرجة ضيقة، اضطررت إلى إبطاء سرعة الحافلة إلى حد الزحف حتى لا أتلف الجزء السفلي منها. انعطفتُ يساراً واتجهتُ نحو "الحفرة"، وهو قسم مغلق من المحجر تم تحويله إلى موقع نفايات نادر الاستخدام يُلقى فيه الخردة العشوائية وأجزاء المعدات الكبيرة والنفايات الصناعية.

بعد نصف ميل، أوقفتُ الحافلة، ومسحتُ شعري بعيداً عن جبهتي، وأجبرتُ الجورب النسائي الداكن والضيق على الدخول فوق رأسي. ثم تفحصتُ نفسي في مرآة الرؤية الخلفية، فقط للتأكد من تغطية وجهي بالكامل.

تنفستُ قائلاً: «تباً»، مذهولاً من مظهر نفسي! لم يكن بإمكانك رؤية عينَي على الإطلاق؛ فقط ظلان دائريان باهتان على جانبي أنفي، الذي انضغط مسطحاً تماماً مثل الغول في فيلم «شريك». كانت رموشي تحتك بالقماش المشدود بقوة كلما حاولتُ الرمش، وبدأ أنفي يؤلمني مجدداً بالفعل. كان بإمكاني الحصول على مقاس أكبر من الجوارب النسائية، أو قناع

أفضل، لكن كان يتوجب عليّ البحث عنه؛ وده كان يعني ترك سلسلة من الأدلة والآثار خلفي.

بينما كنتُ أتحكم بالحافلة عبر الجزء الأخير من المنعطف الضيق، ظهرت الشاحنة الرمادية عند أطراف "الحفرة". ثم رأيتُ **أندي**ـــمكشوف الوجه ويبتسم لي ببالغ الغباء كالقرد وهو يلتف حول جانب الشاحنة!

انفجر الهلع، ثم الغضب، كشعلة نارية في دماغي!

قال لي عندما توقفتُ وانزلقتُ أمامه وأصفقتُ الباب بقوة:

«أهلاً يا تيدي بير».

نهرتُه فور خروجي من الحافلة:

«يا صاح، ارتدِ الجورب على رأسك مجدداً!» لم يكن هذا ما اتفقنا عليه؛ وكان يعلم أنني أقت المقت لهذا اللقب! من ناحية، جعلني أشعر وكأننا لا نزال في المدرسة الثانوية وأنني ما زلتُ ذلك المراهق النحيل المليء بحبوب الشباب مع تسريحة شعر غبية. ومن ناحية أخرى، لم يكن يستخدمه قط عندما يمزح حقاً؛ بل كان ثمة حقد وراءه يعني أنه يريد إرجاعي إلى حجمي الطبيعي وضبطي في مكاني.

ولم تكن المرة الأولى التي تتحرك فيها دودة من الشك في الجزء الخلفي من عقلي. لم يكن **أندي** خياري الأول كشريك، ولهذا

السبب بالذات: عندما يغضب، أو ينزعج، يمكن أن يتحول إلى بندقية طائشة!

لكن لم يكن الأمر وكأن لديّ خيار آخر؛ فـ **أندي** كان خياري الوحيد... وكان يعلم ذلك.

وكأنه ليثبت وجهة نظري، رفع **أندي** أصبعه الوسطى بتحدٍّ ومال برأسه، باقياً في مكانه خلف الشاحنة. قال وهو يهز رأسه نحو النوافذ المدهونة باللون الأسود:

«الطقس حار اللعنة هنا! لا يمكنهم الرؤية عبر الطلاء. ما الذي أخرك كل هذا الوقت؟»

رددتُ عليه دون أن أتراجع كما أفعل عادة:

«استغرقتُ الوقت المناسب بالظبط». وفعلتُ ذلك بالفعل؛ فقد قُدتُ بالسرعة المحددة تماماً. وسلكتُ الطرق الخلفية البعيدة عن الطريق السريع، تماماً كما تحدثنا. قللتُ صوتي حتى لا يسمعني الأطفال في الشاحنة وتابعتُ: «كل شيء على ما يرام».

أنزل **أندي** أصبعه وهز كتفيه:

«حسناً يا تيدي بير، لكن علينا الإسراع». أشارت يده إلى حافلة المطار خلفي: «رحلتي القادمة لنقل الركاب بعد نصف ساعة. علينا تخزين الشحنة». أشار بإبهامه نحو الشاحنة، ثم مد يده إلى جيبه الخلفي ليخرج جواربه النسائية الملتفة وسحبها فوق رأسه.

كززتُ على أسناني. لم يكن مضطراً لتسميتهم "الشحنة"، غير أنه كان الوقت مناسباً لتلطيف الأمور؛ إذ لن يؤدي الشجار إلا إلى زيادة عناده.

استغرق الأمر بضع ثوانٍ وهو يصارع ليدخل شعره تحت القماش الضيق، وينجح أخيراً في ضغطه مسطحاً ضد فروة رأسه ووجهه.

أجبرتُ نفسي على ضحكة مكتومة، مرتاحاً لأنه أعاد التنكر إلى مكانه: «تبدو كالأحمق». كان بإمكاننا خلع الجوارب بمجرد تخزين الأطفال بأمان. وحتى ذلك الحين، كان من الأفضل التزام الحذر؛ فلو رأونا، كانت هذه الخطة المثالية ستنحرف إلى منطقة لا أملك أدنى رغبة في الاقتراب منها حتى بعصا طولها عشرة أقدام!

استمعتُ لصوت السيارات التي قد تزحف على الطريق الترابي، لكن كل ما سمعتُه كان الصمت التام. كانت هناك فرصة شبه معدومة لمجيء أي شخص إلى هنا خلال عطلة نهاية الأسبوع؛ إذ كانت "الحفرة" أرضاً مهجورة لا يملكها أحد. وحتى أجزاء العمل في المحجر تتوقف عن العمل في الساعة الرابعة تماماً، من الاثنين إلى الجمعة. وتبدأ نوبات العمل في الفجر الصباحي خلال الصيف وأوائل الخريف، ولم يكن والد **أندي**ـــمالك المحجرـــبصدد دفع أجور ساعات

إضافية لأي شخص. كان المكان ملكاً لنا وحدنا حتى يوم الاثنين.

لكن ما الفائدة من كل تخطيطنا—تخطيطي—الدقيق إن كنا سنختصر الطرق ونفرط في التفاصيل؟

قال **أندي** وهو يسير نحو صفيحة معدنية عند أطراف "الحفرة": «تعال، ساعدني في تحريك اللوح».

وأشار إلى لوح معدني أصفر مشوه ملقى على التراب. وكان هذا اللوح المعدني بالذات جزءًا من حفارة معطلة منذ زمن طويل، بحجم باب تقريبًا.

ألقيتُ نظرة على الجزء الخلفي من الشاحنة الرمادية وأنا أسرع للالتحاق بـ **أندي**. لم يصدر أي من الأطفال همساً منذ ظهوري. هل هم بخير؟ كان الطقس حاراً للغاية، ولن تنجح الفدية إن مات الأطفال. كانت "الحفرة" مغطاة بالظلال في معظمها، وكانت الشمس تغرب بالفعل خلف الجدار الصخري الحاد الذي يرتفع فوقنا عند حافة "الحفرة"، لكن الهواء لم يبرد ولو قليلاً بعد. والشاحنة الخالية من الهواء، بنوافذها المدهونة باللون الأسود، لا بد وأنها تغلي في الداخل!

دفعتُ تلك الأفكار بعيداً عن ذهني؛ فلن يبقوا في الداخل إلا لفترة قصيرة أخرى. *الأطفال كالأربطة المطاطية*، أرددتُ لنفسي للمرة المائة؛ يتجاوزون أموراً كهذه ويعودون لطبيعتهم.

وتذكرت ما أخبرني به **أندي** عندما بدأتُ أتردد قبل بضعة أيام: *إن كان لهذا الأمر فائدة، فهو أنه سيمنح هؤلاء الصغار شيئًا يجعلهم يشعرون بأنهم مميزون للغاية بمجرد عودتهم إلى ديارهم.*

جلستُ في وضع القرفصاء على أحد جانبي اللوح المعدني الأصفر الملتوي، حريصاً على عدم لمس الحواف الحادة التي تلمع باللون الفضي. وانحنى **أندي** على الجانب الآخر:

«واحد، اثنان، ثلاثة، انطلق». ثم أنحنينا وسحبنا الصفيحة الثقيلة بضع أقدام نحو اليمين، بما يكفي لكشف ما تحتها.

وبعد إزالة الصفيحة المعدنية، انبعثت إلينا رائحة التراب الرطب ونسمة خفيفة من الهواء البارد. كانت تتصاعد من حفرة مظلمة واسعة تؤدي إلى أعماق الأرض، وأعطتني شعوراً لطيفاً على بشرتي الساخنة.

جيد. على الأقل، لن يكون المكان أشبه بفرن تماماً. بل قد يسعد الأطفال بالنزول إلى هناك، بعد أن تعرضوا للحرارة الشديدة في الشاحنة.

قال **أندي** بحماس وهو يمد عنقه ليتطلع نحو الأسفل إلى ما بنيناه: «تباً، هذا ممتاز للغاية!»

واستشعرتُ اندفاعة ضئيلة من الفخر أيضاً؛ فقد كان المكان مثالياً بالكامل! كنا نعمل على **"المخبأ الواقع تحت الأرض"**

منذ أن بدأتُ العمل تقريباً في مقلع "نورثشايد" مع **أندي** قبل عام.

بدأ الأمر كله عندما كُلفنا بتوسيع حفرة النفايات لإفساح المجال لوضع حاوية شحن مهملة.

قال **أندي** حينها عندما قامت الشاحنة ذات المنصة المسطحة بإلقائه على حافة الكومة وشاهدناه لأول مرة. : «يا صاح، هذا الشيء ضخم اللعنة!»

كانت عبارة **شركة بودو للنقل** مكتوبة بحروف متآكلة ومخدوشة على جانب حاوية الشحن الهائلة، الملقاة على جانبها.

كان **أندي** على حق؛ فقد كانت ضخمة، وكانت أبعادها مدونة على الجانب مباشرة: بطول عشرين قدماً، وعرض ثمانية أقدام، وارتفاع اثنتي عشرة قدماً.

أجبتُه حينها: «تباً! هذا يعادل نصف حجم بيتي!»

شعرت بالحرارة تتصاعد في خديّ لحظة نطقي تلك الكلمات. لأنه بالطبع كان حجمه يقارب حجم منزلي؛ إذ لا أزال أعيش في منزل أمي المزدوج المتهالك السيء، والذي يشبه حاوية شحن في الأساس!

لكن **أندي** تجاهلني، واقترب من الباب الجانبي المكسور الذي ينفتح لأعلى والذي انفتح عندما هبطت الحاوية في التراب: «تعلم، الناس يصنعون الملاجئ الخاصة بنهاية العالم من

أشكال كهذه! يدفنونها في الأرض، ويملأونها بالإمدادت والأسلحة».

هززتُ رأسي دون التفكير بالخير فيها كثيراً: «سيكون ذلك رائعاً».

تطلع إلى الجرافة والحفارة اللتين كنا نعمل عليهما طوال الأسبوع، لتوسيع حافة "الحفرة" حتى لا تسد الحاوية الطريق.

ثم نظر حوله إلى كوم الأتربة الجديدة التي كوّمناها:

«يمكننا دفنها»، قال وهو يمرر يده عبر شعره الثائر المجعد.

وهذا ما فعلناه بالظبط!

في بداية الأمر، كنا نخطط لجعلها حصناً ومخبأً سرّياً—مكاناً نتمكن من التسلل إليه وتدخين الماريجوانا أثناء ساعات العمل؛ أو حيث يستطيع **أندي** فعل ذلك على الأقل؛ إذ لم أكن أحب الطريقة التي يجعل بها المكان المغلق عقلي يستشعر البطء والغباء.

أبقينا على المخبأ سراً. وكان الأمر سهلاً، طالما كنا نقع في أسفل السلم الوظيفي والمسؤولين عن نقل النفايات والمعدات المكسورة إلى "الحفرة".

استغرق الأمر وقتاً طويلاً، لكن بحلول الوقت الذي انتهينا فيه، كان المخبأ تحفة فنية!

حفرنا ثقباً عميقاً بما يكفي ليكون الجزء العلوي من حاوية الشحن على عمق أربعة أقدام تحت الأرض، ملقاة على جانبها مع بابها الذي ينفتح لأعلى مواجهاً للسماء. ثم قمنا ببناء بئر من الخشب الرقائقي بطول أربعة أقدام حول ذلك الباب، وأعدنا ردم التراب فوق باقي حاوية الشحن. ولم يتبقَ أي شيء مرئي بعد ذلك سوى الفتحة المؤدية إلى ذلك البئر الخشبي الضيق المربع.

وكلمسة أخيرة، نزلنا سلمين داخل البئر: سلماً طويلاً يصل لأسفل حاوية الشحن بالكامل، وسلماً أقصر يتيح لنا الهبوط عبر ممر البئر. ثم غطينا الفتحة في التراب بـ لوح الحفارة الأصفر الثقيل، والذي أخفى كل شيء.

بالنسبة للملاحظ العادي، لم يكن يظهر أي شيء سوى باب الحفارة القديم، بدا تماماً مثل باقي القمامة الملقاة حول محيط كومة الخردة.

كان مخبأً مثالياً!

مثالياً للغاية لدرجة تمنع إهداره في دقائق مسروقة من العمل لتدخين الماريجوانا؛ وجعل العجلات تدور في رأسي.

وعندما أخبرتُ **أندي** بالخطة أخيراً—لأنني كنت بحاجة لشخص ثانٍ، ولأنه كان يعلم بأمر المخبأ—تحمس للغاية لدرجة أنه بدا وكأنه تعاطى جرعة مخدرات للتو!

هززتُ رأسي، دافعاً تلك الذكرى بعيداً لأركز في الحاضر.
سأل **أندي** وهو يتنفس بصعوبة ويعود بخطوات سريعة نحو الشاحنة: «هل أنت مستعد؟ لأن الوقت حان مجدداً يا ابن اللعنة!»
أعطيته تحية نصف عسكرية غبية وتمنيتُ لو لم أفعل. كنت أكره أنني كنت دائمًا أتملق آندي! لم يكن ذكياً للغاية، ولم يكن حتى لطيفاً في معظم الأيام. ربما كان السبب فقط أنه كان أحد الأشخاص القلائل الذين لم يعاملونني كمرض معدٍ عندما خرجتُ من السجن.
سحبتُ الجورب النسائي لأسفل، رغم أنه كان ضيقاً للغاية حول وجهي لدرجة أنني كدتُ أعجز عن التنفس عبر أنفي:
«أجل، لنفعل هذا».

14

سيدج

انفتحت أبواب الشاحنة فجأة!

وقبل أن أتمكن من استنشاق نفَسٍ واحد من الهواء النقي، كان **«ذو الشعر الزيتي»** يصرخ بنا بصوت حاد، عالي، ومستعجل: «اخرجوا! صف واحد! تحركوا!» طالبنا بذلك رغم أنه لم يكن قد فتح الباب إلا منذ نصف ثانية فحسب.

استطعتُ التمييز بأنه هو، حتى مع وجهه المنضغط والمهروس مجدداً تحت الجورب النسائي. أما الرجل الآخر، الذي قررتُ تسميته **«جيبيرز»** في عقلي، فكان يمسك ببندقية. كان يشبه حقاً تلك الشخصية من فيلم *«جيبيرز كريبيلز»* بالطريقة الخاصة التي انضغط بها وجهه مسطحاً تحت الجورب ذي اللون الرملي.

لم أسمح لنفسي بالالتفات نحو النافذة الجانبية للشاحنة حيث كنتُ أسترق النظر منها إلى **«ذو الشعر الزيتي»** سابقاً؛ فمع الضوء النافذ عبر الأبواب المفتوحة، لن يكون الأمر ملحوظاً للغاية... أو على الأقل، هذا ما أملتُه.

«*لا تنظر إلى الثقب الذي أحدثته في الطلاء*»، قلت له في نفسي، وكأنني أحد الجيداي من فيلم «حرب النجوم». و، مثل جندي «ستورم تروبر» ضعيف الإرادة، أطاعني.

كانت درجة الحرارة بالخارج أبرد مقارنة بالغليان داخل الشاحنة، فابتلعتُ الهواء وكأنني كنتُ اختنق. أردتُ بشدة مسح العرق الذي يتصبب من عنقي، نحو ياقة قميصي وأسفل ظهري؛ إذ كنتُ أستشعر حرارة وعطشاً شديدين.

قال «**ذو الشعر الزيتي**» حين تحركت **السيدة جيسا** في الجزء الخلفي من الشاحنة وحاولت الوقوف: «كلا، ليس أنتِ! أنتِ الأخيرة، يا سائقة الحافلة». فتسمرت **السيدة جيسا** في مكانها اللحظة التي تحدث فيها اليها.

جلتُ بعينيّ في الأرجاء، لأرى المزيد من ذاك المشهد الغريب الذي لمحتُه عبر ثقب الطلاء: أتربة، وقطع آلات مكسورة، وكوم من الخردة، وخرسانة حادة، وصخور. وكان الجرف الصخري يرتفع لأعلى درجة، لدرجة جعلتنا نبدو وكأننا في قاع الأرض. وكانت حافلة المطار البيضاء متوقفة على بعد بضع أقدام خلفنا.

وقَف «**جيبيرز**» بجانبها، منحنياً قليلاً، وكأنه يظن أننا قد نركض اللحظة التي يفتح فيها «**ذو الشعر الزيتي**» أبواب الشاحنة، وأنه سيمسك بنا... أو يطلق النار علينا!

تنحنح «**ذو الشعر الزيتي**» واتخذ خطوة للخلف مبتعداً عن الشاحنة. لم تتغير تعابير وجهه المهروسة تحت الجورب النسائي المظلم، غير أنني علمتُ أنه مستاء من نبرة صوته. نادى على «**جيبيرز**» ويده أمام وجهه: «يا إلهي، الرائحة كريهة بالداخل! كم استغرقنا من الوقت في القيادة، ساعة؟ أظن أن الأطفال كانوا بحاجة لحفاضات!» ثم ضحك، وكأنه أطلق دعابة مضحكة للغاية.

أصدر «**جيبيرز**» صوتاً جموداً لكنه لم يضحك.

ملتُ لاقترب أكثر نحو **بوني** وهمستُ بأقصى صوت أملكه : «لسنا أطفالاً... إنهما أحمقان».

صاح «**ذو الشعر الزيتي**»: «اخرسي، ممنوع الكلام!» لكنني شعرت بجسد بوني يسترخي قليلاً وهو مستند إليّ. لم تسمح لنا أمي أبداً باستخدام كلمة «أحمق»، لكنني كنت أعلم تماماً أنها لن تمانع ذلك في هذه اللحظة.

والتفكير بها وبجدي جعلني أرغب في البكاء مجدداً:

اعتني بأختكِ.

طردتُ الدموع بترميش عينَي وألقيت نظرة خفية على **السيدة جيسا**. كانت خافضة رأسها، تتطلع نحو أرضية الشاحنة وكأنها غير موجودة هنا أصلاً.

تحدث «**جيبيرز**» بنبرة غريبة، شديدة العمق، وهو يخطو للأمام ليكون بجانب «**ذو الشعر الزيتي**» وأشار بيده نحو **كيد**: «أنت، هيا بنا». وحرك المسدس الذى يمسك به، مشيراً إلى مكان ما بعد الشاحنة. ومجدداً، انتابني الشعور بأن «**جيبيرز**» كان يحاول إخفاء صوته، لكنه مع ذلك أثار شيئاً ما في ذاكرتي. لم أستطع تحديد ما إذا كانت تلك الفكرة تجعلني أكثر خوفاً أم أقل.

تردد **كيد**، ثم انزلق ليقترب أكثر من حافة الشاحنة.

«لقد قال هيا!» سحبه «**ذو الشعر الزيتي**» من ذراعه وجره عبر البوصات الأخيرة على أرضية الشاحنة. صرخ **كيد**، وكانت عيناه البنيتان متسعتين للغاية وشعره البني ملتصقاً برأسه بفعل العرق. وعندما لمست قدمه التراب، أسرع بجانب «**جيبيرز**»، الذي قاده بعيداً عن الشاحنة.

انطلقت **روز**، ثم **كروسبي**، ثم **ميندي** نحو حافة الشاحنة ليلحقوا بـ **كيد** و«جيبيرز»، بينما كان «**ذو الشعر الزيتي**» يجر المزيد من الأطفال للخارج ويوجههم نحو مكان ما بعد الحافلة البيضاء.

وبمجرد تحرك الأطفال إلى ما بعد الأبواب المفتوحة للشاحنة، لم أعد أتمكن من رؤيتهم. غير أنه بعد بضع ثوانٍ، سمعتُ شهقة

لاهثة من **كيد**، ثم من بقية الأطفال—وكأن ما رأوه هناك كان أكثر إخافة حتى من رجلين يمسكان بالبنادق!

كانت معدتي تؤلمني وكأنني على وشك التقيؤ، ورجلاي تحترقان، ملتصقتين بالمكان الذي بللتُ فيه سروالي.

واصل «**ذو الشعر الزيتي**» الصراخ علينا حثاً:

«تحركوا، تحركوا، تحركوا!» وكان يستعجلنا أسرع فأسرع، رغم أنه لم يكن من السهل الزحف عبر أرضية الشاحنة ويدينا موثوقة.

قبل أن أدرك الأمر، كنتُ أنا من أرجح ساقيّ حتى هبطتُ على التراب، وبوني ورائي مباشرةً. كانت تتنفس بسرعة، تمامًا كما كانت تفعل عندما أوصلتها أمي في أول يوم لها في الروضة.

وكذلك كنتُ أنا.

زحفت **بوني**، ثم **إيفا**، ثم **بن**، خارج الجزء الخلفي من الشاحنة خلفي مباشرة كفراخ بط خائفة تتبع قائدها.

قال لي «**ذو الشعر الزيتي**» وكأنها الكلمة الوحيدة التي يعرفها: «تحركي».

تطلعتُ إليه بتحدٍّ، وأنا أفكر بـ **السيدة جيسا** المنحنية الرأس خلفي.

وحتى دون القدرة على رؤية بياض عينيه، علمتُ أنه كان يتطلع إلي.

لم يكن يعلم أنني خدشتُ الطلاء في النافذة. لم يكن بإمكانه قراءة أفكاري. ولم يكن بمقدوره إجباري على خفض رأسي— والاستسلام—مثل **السيدة جيسا**. ولن أسمح له بجعل أي منا يستشعر بالسوء لتبليل سراويلنا!

اندفعت شرارة صغيرة من الشجاعة، مثل فقاعات الصودا، عبر الخوف الذي كان يتلاطم في معدتي. واستمرت تلك الشجاعة حتى مشيتُ حول الشاحنة نحو «**جيبيرز**» وباقي الأطفال.

وعندها، استوعبتُ السبب الذي جعل **كيد** يشهق لاهثاً!

كان يقف في مقدمة صف الأطفال، على حافة حفرة كبيرة في التراب، بجوار لوح معدني أصفر ضخم.

بدت الحفرة في الأرض وكأنه فم مفتوح يتطلع لابتلاعنا جميعاً. وكان الجزء العلوي من سلم يبرز من الحفرة. وكان «**جيبيرز**» يقف بجانبه، ممسكاً بمقص في يده.

كان يقطع وثاق **كيد**!

انفجرت كل فقاعات شجاعتي، وعلمتُ أنه لو لم أكن قد بللتُ سروالي في الشاحنة سابقاً، لَفعلتُ ذلك الآن من شدة الرعب!

كانوا يقطعون وثاق أيدينا لنتمكن من الهبوط عبر السلم؛ كانوا يرسلوننا جميعاً إلى داخل تلك الحفرة!

تحول تنفس **بوني** من السريع إلى سرعة البرق، وكأنها لعبة ذات زنبرك خرجت عن السيطرة بعد لفها أزيد من اللازم. وباقي الأطفال، الذين استوعبوا ما على وشك الحدوث أيضاً، شرعوا في الذعر معها.

وعندما قطع «**جيبيرز**» وثاق **ميندي**، شهقت لاهثة وانطلقت للأمام فجأة بسرعة جعلتني أستصعب استيعاب ما يحدث! كانت تحاول الهرب!

شهق بعض الأطفال الآخرين، واستشعرتُ تفكيرهم فيما إذا كان يتوجب علينا جميعاً المحاولة بالركض. وتشنجت ساقاي، رغم أن يديّ كانتا لا تزالان موثوقتين.

ثم، بخطوتين سريعتين، وقبل أن يتحرك أي شخص آخر، أمسك «**جيبيرز**» بـ **ميندي** من قميصها!

سقطت بقوة على ذراعها في التراب بطريقة جعلت ذراعي تؤلمني، ثم شرعت في البكاء.

تطلع «**جيبيرز**» إليها وهو يتنفس بصعوبة، ثم التفت ليتطلع إلى بقيتنا وزمجر بغضب: «لا تفعلوا ذلك!»

تحولت عينياي نحو «**ذو الشعر الزيتي**»، على بعد بضع أقدام، والذي لم يكلف نفسه مشقة التحرك حتى. كانت بندقيته لا تزال موجهة نحو أبواب الشاحنة المفتوحة، نحو **السيدة جيسا**.

وانفجر ضاحكاً بعلو فوق صوت بكاء **ميندي**:

«وكأنهم يريدون مني إطلاق النار على سائقة حافلتهم!» ثم أضاف بصوت عالٍ: «حين تُقطع وثاقات أيديكم، التزموا الهدوء، وانزلوا عبر السلم بسرعة. مفهوم؟ ولا أريد سماع أي تذمر أو بكاء آخر».

جهّز المسدس، وكأننا بحاجة إلى سبب آخر لنكون خائفين!

مددتُ عنقي محاولة استراق نظرة نحو **السيدة جيسا**. لم تكن البالغة التي سأختارها إن كان لي الخيار، غير أنني أردتُ رؤيتها رغم ذلك، لأعلم أنها هنا معنا.

أمال «**ذو الشعر الزيتي**» رأسه. لم أستطع رؤية عينيه، لكنني علمتُ أن تلك التجاويف المظلمة خلف الجورب النسائي قد حطت عليّ بالذات:

«وإن لم يُشعل ذلك النار تحت مؤخراتكم، فسنبدأ بالتخلص من أكبر الأطفال سنّاً أولاً!»

15

شينا

أخذ الشرطي الذي سحب والدي بعيداً عن شجاره مع الرجال عند الشاحنة إفادتي. استغرق الأمر زهاء خمس عشرة دقيقة.

قاطعنا والدي مرتين، بحدة وعصبية مستهجناً:

«لا يمكنك احتجازنا دون إذن قضائي! أرني شارتك. لو كان هذا في زمني لكنتُ أرفع منك رتبة، ألا تعلم ذلك؟ ما هذا الحق العام الذي نتحدث عنه هنا؟»

كان الشرطي صبوراً ولطيفاً معه، لكنه لم يكرر شرح ما سبق أن أخبرنا به نحن الاثنين. لم يكن هناك أي أثر للأطفال. ولا للحافلة. لم يرد أي من الأطفال أو سائق الحافلة على هواتفهم. كنتُ أعلم ذلك القدر بالفعل؛ فهاتف **سيدج** يواصل الرنين دون توقف لينتهي بالبريد الصوتي.

كان مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) يعمل بالفعل جنباً إلى جنب مع الشرطة. عشرة أطفال تبخروا في الهواء!

اثنان منهم... طفلتاي!

كاد يختنق صوتي وأنا أحاول إخراج إجابات شبه مفهومة على الأسئلة التي طرحها الشرطي، ضاغطة على يديّ وباسطة

إياهما بلا فائدة حتى أعطاني رقم هاتفه الخلوي وأخبرني بالعودة إلى المنزل.

لم يكن هناك أي شيء أستطيع فعله لمساعدة طفلتيّ من موقف سيارات «**برايت بيجينينغز**».

كانت الشرطة تبذل كل ما في وسعها بالفعل لتحديد موقع الحافلة، والهواتف، والأطفال.

أمسكتُ بساعد والدي ومشيتُ عبر بحر الآباء الثائر. كان بعضهم بعيون حمراء، أو بأفكاك مشدودة وكأنهم يحاولون منع أنفسهم من الصراخ. وآخرون يتشاجرون مع بعضهم البعض ومع الشرطة بأصوات حادة ومرتفعة. ثم كان هناك أولئك الذين يبدون مثلي، وكأنهم يمسكون بسياج كهربائي دون القدرة على إفلاته؛ متسعي الأعين ويرتعدون، بانتظار أن تتوقف هذه الموجة من الفظاعة.

كرر والدي مجدداً وهو يتطلع حوله بريبة ثم يعود بالنظر إليّ: «ما هذا الذي يحدث حقاً؟ شين، ما الذي حدث؟»

توقفتُ عن المشي وتطلعتُ إليه. كانت خدوده المبللة بالدموع لا تزال رطبة من الدقائق الخمس الأولى التي استوعب فيها عقله هول ما أخبرنا به الشرطي كلينا.

سيدج اختفت. **بوني** اختفت.

لثانية، تمنيتُ تقريباً لو أستطيع التبادل معه في المكان؛ لأتطهر من كل ما رأيته وسمعته. غير أنني استطعتُ التمييز من الطريقة التي ترتعد بها ذراعه أن جسده لم ينسَ ما علمه، بل عقله فقط هو من فعل.

أخبرته محاولة التظاهر بالقوة:

«سيكون كل شيء على ما يرام يا أبي»، غير أنني علمتُ أن أدائي لم يكن مقنعاً: «تعال، سيارتنا هناك». أشرتُ نحو الشارع الجانبي حيث أعاد أحد الضباط ركن السيارة التي تركناها في التقاطع. استغرق الأمر نصف ساعة، حيث استولوا على مفاتيح السيارات من الآباء والأمهات المذعورين حتى تتمكن السيارات من المرور عبر التقاطع المزدحم. غير أنه مع تزايد عدد الأضواء الحمراء والزرقاء التي تومض في أرجاء موقف السيارات، ظل المرور يزحف ببطء بسبب المتفرجين والفضوليين.

كان المتفرجون الفضوليون يريدون الشيء ذاته الذي يريده الآباء والشرطة: معرفة ما الذي يحدث حقاً!

وعندما صعدتُ أنا ووالدي إلى السيارة، استشعرتُ برنين شيء ما في جيبي—ساعة رولكس الخاصة بوالدي. كان القفل مكسوراً بالكامل. كان قد ثار عليّ بسببه لبعض الثواني—ثم

نسي الأمر فور بَدْء الشرطي بالتحدث. ومع ذلك، راقبتُه وهو يفرك معصمه بشرود.

كان الشارع يتماوج أمام عينَي، وتفكرتُ فيما إذا كان يتوجب عليّ القيادة أساساً. علمتُ أنني أستطيع الاتصال بشخص ما— زميل عمل، أو جار؛ إذ سيكونون حريصين على المساعدة. كلا! استطعتُ بالفعل تخيل شفقتهم المرعوبة وفضولهم الذي يكاد لا يُخفى؛ تماماً مثل الأشخاص الذين يقودون سياراتهم ببطء متجاوزين مركز «**برايت بيجينينغز**» الترفيهي.

ما كنتُ بحاجة إليه هو صديق، لكنني خسرتُ معظمهم خلال طلاقي قبل خمس سنوات. ازدهر عالمي عندما تزوجتُ **جاكوب** للوهلة الأولى؛ أصدقاؤه أصبحوا أصدقائي. كان حباً من النظرة الأولى—"عاصفة رومانسية"، كما قال والدي عندما تزوجنا بعد تسعة أشهر فقط من لقائنا.

ولم أدرك إلا بعد طلاقنا كم كان نصيبي صغيراً من عالمنا، وكيف أن أصدقاءنا كان أصدقاء **جاكوب** طوال الوقت. لقد اختفوا جميعاً بهدوء، بين عشية وضحاها تقريباً، رغم أنه هو من تركني لأجل مديرة مكتبه **جيني**، التي كان "عاشقاً لها لسنوات"—وكانت حاملاً منه بطفلين توأمين.

حصلتُ على المنزل في **صن سيت سبرينغز**، وعلى الفتاتين— اللتين كانتا بعمر سنتين وست سنوات حينها. بينما انتقل هو إلى الساحل الشرقي مع عشيقته للبدء من جديد.

آخر مرة حاولتُ مراسلته عبر الرسائل النصية قبل عامين، تلقيتُ رسالة تفيد بأنه تعذر تسليم الرسالة؛ فقد مسح وجودنا بالكامل.

طردتُ الدموع بترميش عينَي وقبضتُ على عجلة القيادة وكأنها تستطيع تثبيتي في جسدي.

قُدتُ أنا ووالدي في صمت عبر الأحياء حتى وصلنا إلى المنفذ المؤدي إلى الطريق السريع الذي سيعيدنا إلى **صن سيت سبرينغز**.

وفجأة، التف والدي في مقعد الراكب ليواجهني. تنحنح وقال: «هل حكيتُ لكِ من قبل عن تلك المتنزهة، يا شين؟ ميندي فالكريست؟»

نقرت الكلمات في دماغي المخدر. كانت هذه إحدى القضايا البارزة للغاية التي عمل عليها أثناء نشأتي. كانت القصة في الأخبار المحلية وبعض الأخبار الوطنية لقرابة أسبوع—ولم تنتهِ بنهاية جيدة. علمتُ أنها إحدى تلك القصص التي تطارده، لكنني لم أملك أي فكرة عما جعله يتفكر بها الآن.

ربما كان ذاك الخوف الرهيب المتزايد ذاته، العجز ذاته الذي استشعره منذ كل تلك السنوات يعكس ما يستشعره الآن وأعاد تلك الذكرى للسطح. لم يحكِ لي القصة مباشرة قط؛ بل قرأتُ المقالات القديمة فقط. وبقدر ما لم أكن أرغب في قطعه، لم أكن أستطيع تحمل الأمر الآن.

قلتُ بغضب أزيد مما خططتُ له: «كلا يا أبي».

لزم الصمت. وعندما ألقيتُ نظرة عليه بطرف عينَي، ارتبعتُ حين رأيتُ فكه مطبقاً ويرتعد؛ وكأنه يحاول منع نفسه من البكاء.

تمتمتُ حانية رأسي حتى لا يرى الدموع التي تتسرب على خدَي: «أنا أسفة».

ظل صامتاً لفترة طويلة، لدرجة أنني ظننتُ أنه صرف النظر عن القصة. غير أنه من الابتسامة المترددة التي أومض بها لي وهو يكرر: «شين، هل حكيتُ لكِ من قبل عن تلك المتنزهة، ميندي فالكريست؟» استوعبتُ أن ما نسيه كان انفعالي الغاضب.

همستُ وعيناي على الطريق: «احكِ لي».

جلس إلى الخلف في مقعد الراكب وتنهد بفرط ثقل: «اختفت امرأة—في الثلاثين من عمرها ولديها عائلة صغيرة. كانت ميندي فالكريست تمشي في الخلاء قرب برايري، أيداهو في

البراري البعيدة. لم نكن قلقين للغاية في بداية الأمر؛ فقد كانت من أولئك الأشخاص الشغوفين بالطبيعة والأجواء الخارجية. وكان لا يزال هناك الكثير من ضوء النهار، ووضوح الرؤية ممتاز للمنقذين، والطقس دافئ بالخارج. ووجد زوجها سيارتها عند بداية المسار عندما قاد إلى هناك في ذلك بعد الظهيرة». تنهد مجدداً: «كان من المفترض أن تغيب ميندي لساعتين فقط عندما غادرت في ذلك الصباح».

ورغم عني، علق عقلي بخيط قصته، متلهفة للحظة استراحة من اليأس المريض والداهم في أحشائي.

«كنتُ أنا المسؤول عن عمليات البحث والإنقاذ. وكانت ابنة المتنزهة—طفلة صغيرة للغاية في الثامنة من عمرها تفتقد سنها الأمامي—تصر على أن أمها سلكت "مسار الينابيع الساخنة"، على بعد بضعة أميال جنوباً في منتصف لا مكان في فيثرفيل. لم يكن الأمر منطقياً؛ إذ كانت سيارة ميندي عند بداية مسار برايري، بالتدقيق حيث ظن زوجها أنها ستكون. وقال الزوج... قال إن الطفلة كانت مجرد منزعجة ومشوشة، وأن ابنته ذهبت في رحلة الينابيع الساخنة مع أمها العام الماضي—ولهذا السبب تذكرت المكان». تنحنح وانتظر ثانية قبل المتابعة: «بحثتُ لثلاثة أيام. أحضرنا الخيول، ومروحية. لا أثر لتيّلك المرأة. جعلنا ذلك جميعاً نعتصر عقولنا. وأخيراً، ولأنني لم

أعلم ما الذي يمكنني فعله أزيد من ذلك، أرسلتُ رجلين إلى فيثرفيل».

انتظر طويلاً لمواصلة الحديث، لدرجة أنني ظننتُ أنه قرر عدم الإكمال. غير أنه قال أخيراً: «وجدنا ميندي في فيثرفيل، منهارة في الشجيرات على بعد عشرين ياردة فقط بعد بداية المسار. كانت قد فارقت الحياة منذ نحو يوم».

التوت معدتي. واستوعبتُ أنني لم أعد أرغب في سماع باقي القصة. لكن عندما فتحتُ فمي لأطلب منه التوقف، لم أستطع إخراج الكلمات عبر الغصة الصلبة في حنجرتي.

واصل والدي: «ظننتُ في البداية أنها أصيبت بنوبة قلبية. لكن التشريح—الذي لم يكن الزوج يريده—أظهر أن الفشل الكلوي هو سبب الوفاة. وتبين أنه أضاف مضاد التجمد إلى مشروب الطاقة الخاص بها في ذلك الصباح. وجدها الزوج فاقدة للوعي على المسار عندما "ذهب للبحث عنها". دفعها إلى الشجيرات ونقل سيارتها إلى بداية مسار برايري».

دار الغثيان في معدتي بأشد قوة. كيف يمكنه تذكر كل ذلك بهذا الوضوح، بينما يعجز عن تذكر ما علمناه للتو عن **سيدج وبوني؟**

زفر والدي نفَساً: «لم يدرك أن ابنته كانت تعلم أن ميندي كانت ذاهبة بالفعل إلى فيثرفيل. لو أنني استمعتُ لتلك الفتاة

الصغيرة—تباً، لو استمعتُ لشعوري الداخلي فقط—لكان هناك احتمال كبير جداً أن نجد أمها، بل وننقذ حياتها. لكن "الأطفال لا يُعتمد عليهم"، هذا ما ذكرني به شريكي».

كان كل ما استطعتُ إخراجه هو: «أوه». أبطأتُ حركة السيارة، محتارة فيما إذا كان عليّ التوقف على جانب الطريق لأتقيأ.

قال والدي بحزن: «الأطفال يعرفون أكثر مما نظن. بعد ذلك، وعدتُ نفسي بأن أستمع للأطفال، وأن آخذ المزيد من الوقت لأستمع لشعوري الداخلي».

كان الطريق السريع يتماوج أمام عينَي، والدموع تبلل خدَي، لكنني فرحتُ لأنه بدا وكأنه انتهى من تلك القصة. استوعبتُ أنني فوتّ المنعطف الأول لـ **صن سيت سبرينغز**. كان يتوجب عليّ تهدئة تنفسي وإلا فسأتحطم بهذه السيارة.

ثم تحدث والدي مجدداً، وصوته فجأة منزعج وقاسٍ: «لديّ شيء أقوله، وأعلم أنكِ لا ترغبين في سماعه».

لم أكن أرغب في ذلك حقاً. لم أستطع الاستماع لأي شيء آخر عن قضية ميندي فالكريست. عضضتُ شفتي لأمنع نفسي من القول بذلك. *فقط تجاوزي هذا، إنه أسهل من إخباره بالتوقف عن الكلام.*

قال فجأة بذاك الصوت الذي أتذكره حين كنتُ مراهقة ووجد سيجارة حشيش خبأتها في المرآب: «عليكم التوقف عن هذا الهراء اللعين».

أملتُ رأسي بصدمة. كانت نبرة صوته تتجاوز الانزعاج بكثير. *إنه لا يعلم ما الذي يحدث، فقط واصلي للمنزل*، أخبرتُ نفسي، حافرة في أعماقي بحثاً عن الصبر. تمكنتُ من القول بصوت مخنوق: «حسناً يا أبي»، أملة أن يهدئه ذلك. مسحتُ خدَي بينما كان عقلي ينتقل من فكرة إلى أخرى، متلهفة لأي إجراء أتخذه، لأي شخص أتصل به، لأي شيء يعيد إليّ طفلتيّ. هل كان من المفترض بي حقاً العودة إلى المنزل والانتظار للحصول على المزيد من المعلومات؟

كنتُ قد استرقتُ السمع لبعض الآباء وهم يتحدثون عن القيادة ذهاباً وإياباً عبر الطريق السريع والطرق الجانبية. ومركز «**برايت بيجينينغز**» والشرطة يفعلون الشيء ذاته. لم يجد أحد أي شيء حتى الآن. وكان مكتب التحقيقات الفيدرالي يعمل على تتبع موقع كل هاتف في تلك الحافلة.

ما الذي أستطيع فعله غير ذلك؟ لا شيء.

تأفف وهو يلتفت ليواجهني: «لا تقولي لي "حسناً يا أبي"! أعلم أنكِ لا ترغبين في الدلال الآن، غير أن ما تحتاجينه ربما هو بعض الحزم الصارم».

كززتُ على أسناني، ولزمتُ الصمت، وأبقيتُ عينَي على الطريق أمامي مباشرة. لم أملك أي فكرة عما يتحدث عنه بعد الآن، غير أن الكلمات القاسية حطت كالملح على الجرح بالقدر ذاته.

«الزواج امر مقدس. ليس شيئاً تندفعين إليه بعد بضعة أشهر لتمثيل دور العائلة. لكنكِ بالغة وليساعدني الله في محاولة إدخال العقل لجمجمتكِ. ما حدث قد حدث. وأمي ربتني بمفردها تماماً. وستكونين بخير أنتِ أيضاً».

قبضتُ على عجلة القيادة بقوة جعلت أظافري تخدر. لم أستطع تحمل هذا الآن! كنتُ على وشك الانفجار! كان يظن أنني أبكي بسبب طلاقي، بسبب ترك **جاكوب** لي—منذ سنوات!

انفجرتُ قاطعة إياه، وقد نفد صبري تماماً: «توقف، فقط توقف! لا مزيد!» تعثر صوتي، هذه المرة لم أستطع حبس الدموع من الاندفاع عبر خدَي. مسحتُها بغضب وواصلتُ القيادة نحو التلال، متجاهلة صمته العابس. خمس عشرة دقيقة أخرى، وسنكون في المنزل مجدداً. منزلي الفارغ، الصامت!

مرت بي سيارة دورية شرطة، أضواؤها مطفأة، على اليسار. *أرجوكم جدوهم*، توسلتُ لمن يجلس خلف النوافذ المظللة. جدوا سائقة الحافلة. جدوا طفلتيّ. شغلوا أضواءكم، وسيارات الإنذار. جدوهم الآن، تباً!

تأفف والدي وتحرك في مقعده، وعضضتُ على الجزء الداخلي من خدي. لم يكن مستعداً للتراجع.

تمتم: «تلك هي المشكلة في جيلكم؛ لا يستطيع التعامل مع الحقائق القاسية. العناية بالذات و"ضع نفسك أولاً". سأخبركِ بشيء يا شين: في بعض الأحيان يتوجب عليكِ وضع نفسكِ في المرتبة الأخيرة. لو كنتِ مراهقة، لأخبرتكِ أن تبكي كما تشائين. لكنكِ أم! لذا أجمعي شتات نفسكِ واستفيقي. طفلتَاكِ تأتيان في المرتبة الأولى. بوني وسيدج بحاجة إليكِ الآن».

كان ذلك كل ما يلزم لمنعي من الصراخ والنوح بعلو.

16

جيسا

كنتُ آخر من بقي في الشاحنة ذات الرائحة الكريهة، التي كانت أرضيتها ملطخة بالقيء وبعض برك البول. ومن مكاني في مؤخرة منطقة الشحن، لم أعد أسمع أصوات الأطفال، لا أنفاسهم المتقطعة ولا تنفسهم المليء بالذعر.

كل ما استطعتُ رؤيته هو رجل يمسك ببندقية، يظهر كظل بين أبواب الشاحنة المفتوحة. وكان وجهه المقنع والمهروس ممتداً بعيداً عني قليلاً، وتركيزه منصباً نحو الاتجاه الذي أرسل إليه الأطفال. غير أنني كنتُ واثقة من أنه لو تحركت أي عضلة في جسدي، فسينقل انتباهه نحوي فوراً.

ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ كل ما علمتُه هو أنه يتوجب علينا الحذر الشديد للغاية.

توسلتُ إلى الأطفال بصمت، فقط نفذوا ما يطلبه الرجلان. لا تبكوا. لا تجادلوا، مستحضرة بريق التحدي الذي رأيتُه في عينَي **سيدج** حين انفتحت أبواب الشاحنة.

استشعرتُ الغثيان حين تفكرتُ بالطريقة التي تجاهلتني بها بعد أن طلبتُ منها الجلوس مجدداً. التحدي لن يحقق أي شيء؛

فالأمر لا يستحق المخاطرة. كانت **سيدج** أصغر من أن تستوعب ذلك، وقد كنتُ بالطريقة ذاتها ذات يوم.

من الواضح أن الرجلين لم يلاحظا الطلاء المخدوش—حتى الآن. غير أنني علمتُ تمام العلم أن الأمور الصغيرة، والتمردات الضئيلة، هي التي قد تدفع بك وبكل من تحب فجأة للانهيار في مخاطرة داهمة. لو ظنوا أننا رأينا وجوههم، فإن أي أمل في الخروج من هنا على قيد الحياة سيتلاشى تماماً.

حاولت أن أضغط يديّ المقيدتين لأشكل قبضتين، لكن أصابعي المخدرة بالكاد استجابت. أردتُ الصراخ بعلو لتسمعني **سيدج** أينما كانوا يقودونها وباقي الأطفال:

فقط نفذي ما يقولانه، ولا تفعلي أي شيء غبي!

بدلاً من ذلك، أبقيتُ فمي مطبقاً بإحكام ونفذتُ ما يتوجب عليّ فعله بالتدقيق: لا شيء.

لأنني كان يتوجب عليّ الخروج من هنا على قيد الحياة. لأنني كان يتوجب عليّ العودة إلى **صوف**. تلك الطفلة الساذجة، اللطيفة، ذات الوجه الطفولي، التي بدأت الروضة للتو وتفقد سنها الأمامي والتي خسرتُها منذ ثلاث سنوات—لتغدو الآن الطفلة الخجولة والهادئة ذات التسع سنوات التي تعيش مع أختي والتي ترفض مناداتي بـ «أمي» بعد الآن.

كنتُ أتذكرها كل يوم كحبل نجاة خلال جلسة الاستماع قبل المحاكمة لآخذ نفسي بالحلم والهدوء—في الوقت الذي كنتُ أرغب فيه حقاً في اقتلاع شعري من جذوره. وكل يوم لثلاث سنوات حين أستيقظ متطلعة إلى باب القفص حتى أُعطيتُ الإفراج المشروط أخيراً.

على الأقل حينها، ظننتُ أنني سأعود إليها—حتى لو استغرق الأمر وقتاً طويلاً. أما الآن، فلم أعد واثقة للغاية؛ وكانت تلك الفكرة تخيفني بقدر فكرة الموت تماماً.

تمتم الرجل الذي يوجه بندقيته نحوي تحت أنفاسه: «اسرعي بالتحرك!» فزحفتُ نحوه متوهمة أنه يتحدث إليّ. كان هو ذاته الذي قال للأطفال: «نفذوا ما أطلبه منكم، وإلا سنطلق النار على سائقة حافلتكم».

لكن اللحظة التي تحركتُ فيها، حرك المسدس وزجر:

«ليس أنتِ يا عاهرة، ابقي في مكانكِ!»

تسمرتُ في مكاني، محتارة. ثم استوعبتُ أن إحدى قدميه كانت ملتفة بعيداً عني ورأسه مائل، وكأنه يبقي عيناً على شيء يحدث في المدى البعيد—حيث ذهب الأطفال.

حاولتُ الاستفادة من النسيم النافذ عبر أبواب الشاحنة المفتوحة ليشتت بعض الرائحة الكريهة بالداخل. غير أن انعكاس التقيؤ

ارتفع مجدداً حين اختلطت رائحة القيء والبول برائحته هو— كالنعناع الفاسد والعرق الجاف.

ابتلعتُ العصارة المرة ولزمتُ الصمت، متجرئة على دراسته بتركيز للمرة الأولى. كان طويلاً، زهاء ست أقدام ربما؛ نحيلاً وعريض البنية في الوقت ذاته. كان يقف بقدمين متباعدتين وركبتين منحنيتين قليلاً، مستعداً للتحرك. وكان يواصل ضغط وبسط يده الطليقة، مما يجعل عضلات ساعده تبرز لأعلى ولأسفل.

التوت معدتي مجدداً. ربما كنتُ أبدأ في فقدان عقلي بفعل الحرارة والرعب والرباطات البلاستيكية التي تقطع تدفق الدم عن ذراعيّ أسفل المرفق، غير أنني كنتُ أستطيع ان اقسم أنه كان يضع النوع ذاته من عطر النعناع الذي كان **مات** يحبه— وكنتُ أُمقته في سري.

وغريزياً، نظرتُ إلى رقبة الرجل، التي كانت مكشوفة تحت الخط المتعرج للجوارب الطويلة. ها هي هناك، مباشرةً تحت فكه. الشريان السباتي، كما كنت أعرف من مشاهدة مسلسل «غريز أناتومي». كان يكاد يكون غير مرئي عندما يكون الشخص هادئًا، مجرد نبض خافت. لكن إذا ثار غضبه، فإن ذلك الشريان ينبض بقوة لدرجة أنك تستطيع رؤية رقبته تنبض بالتزامن مع قلبه.

كان أول شيء أبحث عنه حين يدخل **مات** إلى أي غرفة. كان وجهه يبدو هادئاً للغاية، وتعابيره وديعة جداً. تلك العينان البنيتان اللطيفتان شبه ناعستين، وشفتاه المنفوختان منفرجتان عن نصف ابتسامة. كان ذاك الوجه الذي يراه الجميع: المديرون التنفيذيون والمدراء والموظفون في شركة **تي سويتس**— الشركة الناشئة التي أسسها مع أخيه والتي كانت على وشك البيع مقابل 340 مليون دولار. شركاء العمل والعملاء الذين يعلقون على مقالاته في **لينكدإن** و**فوربس** عن ثقافة الشركة "الابتكارية التي تضع الموظف أولاً" لم يفوتوا قط القول إن **مات** كان «إنساناً جيداً للغاية»، و«أحد الأخيار»، و«تباً، أتمنى لو كان رئيسي في العمل».

وكان ذاك الوجه الذي تراه **صوفي** أيضاً: حين يقرأ لها كتاب *«بيت صغير في البراري»* قبل النوم، ويصنع فطائر القرفة يوم الأحد، ويستأجر أحصنة قصيرة حقيقية لعيد ميلادها الخامس حتى يستطيع كل الأطفال في صف الروضة الركوب في ساحتنا الأمامية المترامية الأطراف.

الشخص الوحيد الذي لم يكن يرى ذاك الوجه طوال الوقت هو أنا! والتحذير الوحيد الذي أحصل عليه قبل أن يثور غضباً— أو يثبتني على السرير حتى أعده بعدم الخيانة—كان ذاك النبض المتسارع الذي يخرج عن السيطرة عند عنقه أسفل ذقنه.

«حسناً، دوركِ! تحركي الآن».
انتفضتُ لكنني تسمرتُ في مكاني للحظة أخرى. كان وجه مات يملأ ذهني بشكلٍ كبيرٍ لدرجة أنني كنتُ لأقسم أن الصوت الذي كان يتردد عبر القماش الرقيق هو صوته.
رمشتُ بعينيّ، عائدة إلى الجحيم الخانق داخل الشاحنة. ولم يكن الرجل الممسك بالمسدس بحاجة لمطالبتي مرتين؛ فقد كنتُ أزحف بجسدي عبر أرضية الشاحنة بسرعة جعلتني أسمع تمزق الجزء الخلفي من جينزي عند الجيب حين علق بشيء حاد.
ضحك فجأة: «أنا مسرور لأن ثمة من يتقن الإسراع!»
وعندما وصلتُ إلى حافة الشاحنة، أردتُ مد عنقي لأرى الأطفال. استطعتُ سماع نشيج بعيد مجدداً، غير أنه كان يبدو نائياً للغاية.
إلى أين أخذوهم؟ وإلى أين يأخذونني؟ بدلاً من ذلك، أبقيتُ عينَي خافضتين بطاعة.
أصدر صوتاً جاداً: «هل ترغبين في خلع الرباطات البلاستيكية عن ساقيكِ؟»
كانت رائحة مزيل العرق الخاص به تجعلني أستشعر المرض والغثيان، وأردتُ التقيؤ مجدداً.
اكتفيتُ بهز رأسي موافقة.

قهقه مجدداً: «وأنتِ تعلمين ما الذي سيحدث للأطفال إن حاولتِ الركض؟»

وعندما أومأتُ مجدداً، مد يده الطليقة إلى جيبه وأخرج سكيناً سويسرية: «فتاة مطيعة. طالبة متفوقة ممتاز».

وإذ انتهى من قطع الرباطات عن ساقَي، أمسك بذراعي مشيراً لي لأسمح له بقطع الرباطات عن معصمَي أيضاً. وتنمّلت اصابعي المخدرة حين تدفق الدم مجدداً براحة رحيمة.

اقشعرتُ راحة، لكنني لم أتكلف عناء الاحتفال بالحرية؛ فطالما كان يملك ذلك السلاح، كنتُ كالدمية المتحركة بين يديه بالقدر ذاته.

نقّر بأصابعه وأومأ بسبطانة المسدس، مشيراً لي بالابتعاد عن الشاحنة. وعندما رفعتُ نظري، رأيتُ الرجل الثاني على بعد عشرين ياردة تقريباً. كان يقف عند حافة كومة الخردة.

مشيتُ نحوه بخطوات سريعة ومحسوبة—ليست بالسرعة التي تجعله يظن أنني أركض، ولا بالبطء الذي يجعله يظن أنني أتباطأ. وقاومتُ رغبة الالتفات حولي.

ولم ألاحظ الحفرة الواسعة في الأرض أمامي حتى توقفتُ عن المشي، على بعد بضع أقدام من الرجل الثاني. ظهر من لا مكان، مجرد حفرة مظلمة في التراب عند أقدامنا—وكأن أفعى هائلة اتخذت بيتها هناك. ما هذا بحق الجحيم؟

استشعرتُ بدوار كاد يسقطني أرضاً. لم يكن هناك أي أثر للأطفال، غير أن ثمة سلماً كان يبرز من أعلى الثقب في الأرض.

وعندها استوعبتُ الأمر: أنا ذاهبة للنزول إلى هناك! ولهذا السبب قطعوا رباطاتي! كان الأطفال بالأسفل بالفعل!

وجدت كلمات أخ زوجي السابق طريقها إلى واجهة عقلي مجدداً: *«جيسَا لاندون تستحق التعفن في الجحيم»*. بدت تلك الكلمات أكثر واقعية من أي وقت مضى الآن بينما كان الرجل الثاني يوجه بندقيته نحوي وأجبرتُ يديّ على الإمساك بالدرجة الأولى من السلم.

كتمتُ الصوت المذعور في رأسي والذي يتوسل إليّ لآخذ بمثال **سيدج** سابقاً: *العصيان، المقاومة، رفض النزول إلى داخل ذلك الثقب*. تجاهلتُ ذاك الصوت عديم الفائدة وأبقيتُ رأسي منحنياً وأنا أتحرك درجة أخرى لأسفل السلم. لم تكن تلك هي طريقة الخروج؛ بل كانت طريقة الخروج هي تنفيذ كل ما يطلبانه منا. هما من يملكان البنادق.

كلا، كلا، كلا، كلا، كان عقلي يصرخ مع كل بوصة أهبطها. الأماكن الضيقة كانت ترعبني. حين كنتُ طفلة صغيرة، انحشرتُ داخل كوخ الجيران أثناء لعبة الغميضة. أُغلق المزلاج من الخارج، حابساً إياي بالداخل لقرابة خمس دقائق

حتى سمع الأطفال الآخرون صراخي. وكان ثمة شيء ضخم بأرجل شوكية يتحرك فوق ذراعي. وظلت الكوابيس تطاردني بشأن ذلك حتى أصبحتُ في الجامعة.

لا يهم، فقط نفذي ما يقولانه وهناك احتمال لنشرب جميعاً طعم الحياة وننجو. حاولتُ منع جسدي من الارتعاد، لكن لا فائدة.

قال الرجل بهمس مبحوح: «اهدئي يا امرأة، ستسقطين». انحنى باقتراب أشد وضغط بذقيته ضد الجزء الخلفي من رأسي، وكأنه لو تحركت أي عضلة في جسدي فسينسف دماغي! غرس أنبوب المسدس الصلب والضيق في جلدي بألم وكأنه يحاول دفعه إلى داخل جمجمتي. غير أن الرجل تمتم بعد ذلك: – «الوضع ليس بهذا السوء بالأسفل. فقط تماسكي بإحكام، مفهوم؟»

17

سيدج

ظننتُ أن الأطفال الآخرين سيبكون، أو سيرفضون النزول عبر السلم إلى داخل الحفرة.

وظننتُ أنني سأبكي أو يغمى عليّ أنا أيضاً.

غير أنه تبين أنه حين تتكاثف الأشياء السيئة من حولك، فإن الخيار الوحيد المتبقي هو التحرك نحو الشيء الأقل سوءاً.

وكان ذلك يعني الابتعاد عن الرجل الممسك بالمسدس والإسراع بنزول السلم، إلى داخل الحفرة في الأرض، مع وجود **بوني** خلفي مباشرة و**إيفلين ماركس** خلفها مباشرة—كنا آخر الأطفال نزلوا.

درجة واحدة.

درجتان.

ثلاث درجات.

عدَدتُ حتى وصلتُ عشرين قبل أن يخيفني الرقم لدرجة جعلتني أتوقف عن العد. استشعرتُ وكأن السلم يطفو في الفضاء لأنني لم أستطع رؤية قاع الحفرة. علمتُ أن ذلك كان

غباءً؛ إذ لا بد وأن يؤدي إلى مكان ما، فالسلالم لا تستمر للأبد. غير أن ذلك لم يمنعني من تخيله.

مع كل خطوة أهبط بها لأسفل، كنتُ أتطلع لأعلى نحو **بوني** فوقي، وجسدها الضئيل يبدو كظل داكن أمام فتحة الحفرة. كانت السماء تتحول إلى تلك الدرجة الغنية والخالية من الغيوم من اللون الأزرق التي تحبها أمي. *سيروليان (سماوي)*، كما كانت تقول، وكأن تلك الكلمة الكبيرة والجميلة بحد ذاتها كانت جزءاً من سبب حبها لها.

قلتُ بصوت مرتعد: «لا بأس يا بوني، لقد كدنا نصل إلى الأسفل»، رغم أنني لم أملك أي فكرة. كان المكان يزداد ظلاماً مع كل ثانية. وكل ما أستطيع التفكر فيه هو: هل سيقوم ذانك الرجلان الممسكان بالمسدسات بتغطية الحفرة، وكأن هذا قبر؟ تثبتت **بوني** بالسلم كقرد صغير، وتنشق أنفاسها كلما أخذت نفساً. لم يكن الهواء بارداً على الإطلاق كما ظننتُ أنه قد يكون بالأسفل هنا. كانت رائحة التراب الجاف تختلط بالرائحة التي أتذكرها حين كانت أمي تأخذني أنا و**بوني** للتسوق من متاجر المستعمل؛ ملابس قديمة، مسحوق غسيل غسيل الآخرين، لمحة من رائحة الجسد العفنة.

كانت يداي تستشعران الدبق والحرارة على درجات السلم المتهالكة.

حاولتُ ملاحظة كل شيء، ملتقطة صوراً في عقلي كما فعلتُ عندما توقفت الشاحنة وحككتُ الطلاء عند النافذة. لم أكن أدرك كيف سيساعدنا ذلك، لكنه كان الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله إلى جانب الاستسلام وترك الحفرة تبتلعني أنا و**بوني** بالكامل.

عند أعلى الحفرة، حيث تظهر السماء عبرها، كانت الفتحة مربعة وضيقة، كالمداخن. واسعة بما يكفي فقط ليزحف شخص لأسفل السلم مثل بابا نويل.

لم تكن الجدران الأربعة للمدخنة من التراب؛ بل كانت من نوع ما من الخشب الرخيص والمخدوش. وكانت الجدران الخشبية تنحني للداخل قليلاً.

عند قاع المدخنة، حيث كنا، انفتحت الحفرة على غرفة كبيرة ومظلمة أو كهف. رمشتُ بعينَي فتحاً وإغلاقاً، محاولة رؤية أي شيء.

لم يكن هناك سوى الظلام، وبعض أصوات التحرك الجسدي والنشيج أسفلي والتي أملتُ أن تكون للأطفال الآخرين.

فوقي، شهقت **بوني** بسرعة لدرجة جعلتني أظن أنها ستسقط لثانية. لكنها لزمت الصمت، وعلمتُ أنها كانت تحاول بأقصى ما تملك ألا تبكي.

وعندما وضعتُ قدمي تالياً، متوقعة درجة أخرى، ارتطمت أخيراً بشيء مرن ولين—مرتبة، كما استوعبتُ. شهقتُ: «أوه».

ثم تراجعتُ للوراء وارتطمتُ بطفلة أخرى—**روز**، التي ميزتها من الصرير الذي أصدرته.

في الضوء الخافت القادم من الأعلى، استطعتُ رؤية بريق عينَي **بوني** المتسعتين عندما تركت السلم وسقطت عليّ، مع وجود **إيفلين** خلفها مباشرة.

تطلعنا نحن الثلاث إلى الأعلى نحو السلم، إلى تلك اللمحة البعيدة والصغيرة من السماء الزرقاء الشاحبة.

كل ما أردتُ فعله هو التسلق صعوداً عبر كل درجات السلم ثم الركض بأسرع ما أستطيع، ولأبعد مكان أستطيع، حتى أجد شخصاً بالغاً يمكنه مساعدتنا حقاً.

بدلاً من ذلك، راقبتُ الفتحة وهي تُسد فجأة. لثانية ظننتُ أن **جيبيرز** أو **صاحب الشعر الزيتي** قادمان لأسفل هنا معنا.

جعلني ذلك أطبق أسناني على خدي بقوة كادت تقطع جزءاً منه. وأمسكت **بوني** بساعدي وغرست أصابعها.

همستُ بعد ثانية محتاطة: «إنها **السيدة جيسا**»، مستشعرين الراحة رغم عني. لم تكن **السيدة جيسا** ممتازة تماماً في كونها

شخصاً بالغاً، لكنها كانت أفضل بميل من **صاحب الشعر الزيتي** و**جيبيرز**.

تحرك شكل آخر في السماء فوق **السيدة جيسا** بينما كانت تتسلق نزولاً من المدخنة وإلى المساحة الكبيرة المفتوحة.

استطعتُ التمييز من الشكل المكتل والغريب للجسد والرأس أنه **جيبيرز**.

قال بذاك الصوت الغريب ذاته الذي استخدمه سابقاً—سخيف تقريباً، وعميق للغاية: «هناك بعض الماء في أباريق على طول الجدار. وبعض المصابيح اليدوية. وبعض ورق التواليت. أنا... بنيتُ لكم مرحاضاً في أحد الأركان. إنه مجرد دلو وقطعة من الخشب بها ثقب، لذا كونوا حذرين عندما تجلسون عليه، وإلا فستحصلون على شظايا».

زمجر صوت آخر—صوت **صاحب الشعر الزيتي**—بشيء لم أستطع فهمه.

تمتم **جيبيرز** تحت أنفاسه بصوت خفيض كدتُ لا أسمعه: «تباً لهذا». ثم قال لنا: «وهناك بعض شطائر زبدة الفول السوداني. ليس هناك الكثير، لكننا... سنحضر لكم المزيد عندما تنفد».

كان **صاحب الشعر الزيتي** يقف بجانب **جيبيرز** الآن، عند أعلى الحفرة. وقال: «هيا، سيكتشفون الأمر». وأمسك بأعلى السلم،

وهزه بقوة جعلته يترنح ويصر: «هيا يا امرأة، لنذهب، تحركي!»

تحركت **السيدة جيسا** بسرعة أزيد، واصلة إلى قاع السلم في الوقت المناسب بالتدقيق بينما بدأ الرجلان بسحبه لأعلى وخارج الحفرة. وعندما تجاوز أسفل السلم سقف الغرفة، وضعا الساقين على الحافة الضيقة بصلابة وتعاملا مع شيء ما جعل أعلى السلم ينزلق لأسفل في سلسلة من الطقطقات المرتفعة، محولين إياه من سلم طويل إلى سلم قصير.

من موقع وقوفي متطلعة لأعلى، كان يبدو وكأن السلم معلق في الهواء فوقنا، غير أن ذلك لم يكن ليكون صحيحاً. *إنه يستند على سقف هذه الغرفة الصغيرة*، استوعبتُ ذلك محتفظة بتلك الفكرة رغم أن المعلومة بدت بلا فائدة. كان أعلى الغرفة—أو أي مكان كان هذا—مرتفعاً للغاية لدرجة أنه لم تكن هناك طريقة لأي منا للوصول إليه دون ذاك السلم. غير أن ملاحظة ذلك كانت الشيء الذي ستفعله *هاريت الجاسوسة*. لذا فعلتُ ذلك أنا أيضاً.

تعثرت **السيدة جيسا** على المرتبة ذات الصرير لثانية، مستعادة توازنها بجانبي. استطعتُ سماع تنفسها، حاداً وصعباً وكأنها أنهت سباقاً للتو. تطلعت لأعلى نحو **جيبيرز** و**صاحب الشعر الزيتي**. ثم وبصوت وكأنها تعتذر لمجرد فتح فمها، قالت:

«انتظرا، توقفا أرجوكما؟ لا يمكنكما مجرد تركنا بالأسفل هنا..»

ضحك **صاحب الشعر الزيتي** قاطعاً إياها ولوّح بيده رافضاً ما قالت: «ستكونون بخير، تركنا لكم الماء». وأشار لأسفل الحفرة: «فكرنا في كل شيء»، قالها وكأنه فخور بنفسه للغاية.

ثم أومأ لـ **جيبيرز**: «هيا، ساعدني في السقف، لنغلقه».

راقبتُ برعب بينما أومأ **جيبيرز**، ثم أمسك بالسلم وأنزل نفسه لأسفل إلى داخل المدخنة.

حبسهم بالداخل.

عندها فقدت **ميندي** السيطرة بالكامل. لم يكن مجرد بكاء أو نشيج، بل فقدت السيطرة. أخذت تصرخ: «كلا، كلا، كلا، كلا، كلا!» بسرعة كدتُ لا أميز معها أين تتوقف كلمة "كلا" وتبدأ الأخرى.

كان ذعرها معدياً، كالذعاف. انضم صوت **بين**، ثم صوت **روز**، ثم **بوني**، يتوسلون للرجال ألا يغلقوا المكان علينا.

ابتلعتُ صرخاتي إلى الخلف، خائفة مما سأستشعره لو تركتُ الرعب يدخل رئتيّ بالكامل.

زمجر **جيبيرز** بصوت كذئب حين خفض ذقنه وتطلع لأسفل نحونا: «اصمتوا!» حتى **ميندي جاميل** أجبرت صرخاتها على العودة إلى أنين ضئيل. زجر بحادة: «لديكم كل ما تحتاجونه

بالأسفل هنا. لا أحد يستطيع سماعكم، لذا عندما تصرخون، فإنكم تجعلوننا نغضب فقط. لا تحاولوا فعل أي شيء غبي، وستخرجون من هنا قريباً. إن كنتم مهذبين وهادئين، فستخرجون. وإن كنتم أشراراً، فستحدث أشياء سيئة».

متمتماً بشيء تحت أنفاسه، تحرك لأسفل بضع درجات أخرى من السلم حتى وصل إلى البقعة التي تنتهي عندها المدخنة الخشبية، على بعد عشر أقدام على الأقل فوق رؤوسنا. ثم تنحى جانباً.

قالت **السيدة جيسا**، وصوتها يرتعد في الصمت المفاجئ:

«لن يكون لدينا ما يكفي من الهواء... ثاني أكسيد الكربون الخاص بنا..»

تمتم **جيبيرز** غير متطلع إليها بل مشيراً لأعلى فتحة الحفرة: «هناك أنبوبا هواء في التجويف».

حاولتُ الابتلاع، لكن حنجرتي الجافة والدبقة كادت تعجز عن الإطاعة.

ملأ احتكاك مرتفع ومتردد الغرفة المظلمة بينما بدأ يسحب شيئاً ثقيلاً عبر فتحة المدخنة.

كان سقف الغرفة الصغيرة يئن ويصرخ، كحيوان مصاب.

بدأت الرؤية التي أمامي للسلم، ووجه **صاحب الشعر الزيتي** المهروس المتطلع لأسفل نحونا، والضوء الخافت عند أعلى

الحفرة في الاختفاء. سقطت بضع قطرات من التراب على خدَي، لكنني لم أتكلف عناء مسحها.

قبضت **بوني** على ذراعي بقوة أشد.

واستوعبتُ أنني أمسكتُ بيد **السيدة جيسا** دون قصد. غير أنني لم أسحب يدي بعيداً.

في بضع ثوانٍ أخرى، سنكون معزولين بالكامل تحت الأرض.

18

تيد

بحلول الوقت الذي انتهيتُ فيه من وضع اللوح الخشبي السميك فوق الثقب الموجود في سقف حاوية الشحن، وسحب بطارية الحفارة الثقيلة فوقه، كنتُ أتصبب عرقاً لدرجة أن رأسي بالكامل ابتعد بالبلل عبر الجورب النسائي.

ربما لم نكن بحاجة إلى تلك الطبقة الإضافية من الأمان؛ فالأطفال كانوا على بعد اثنتي عشرة قدم تحت سقف الملجأ. لم يكن الأمر وكأنهم يستطيعون الطيران. لكن لماذا نغامر؟

زفرتُ نفَساً وحاولتُ تجاهل الاضطراب في أحشائي.

كان إدخال الأطفال إلى الشاحنة سيئاً، لكن هذا كان أسوأ بألف مرة. كان يشبه ركل جراء صغيرة. حاولتُ ألا أتطلع في أعينهم بينما كنا نقودهم إلى الثقب في الأرض، لكن كان هناك الكثير منهم لدرجة أنني لم أستطع منع نفسي.

سيكونون بخير. ستعود إليهم روحهم ومرحهم. وستكون لديهم قصة مجنونة يحكونها عندما يكبرون—ذّكرتُ نفسي للمرة المائة. آخرون كان لديهم أوضاع أسوأ بكثير. آباؤهم اهتموا بهم بما يكفي لإرسالهم إلى رعاية ما بعد المدرسة بدلاً من تركهم

يعتمدون على أنفسهم في متنزه المقطورات كل يوم، كما فعل والداي. في الأيام الجيدة، كانت أمي تترك باب المقطورة المزدوجة مفتوحاً لأستطيع الدخول ومشاهدة التلفاز. وفي الأيام السيئة، كانت تقفله وترفض الاستيقاظ.

لذا، نعم، لم أُدفَع قط إلى داخل شاحنة قذرة، أو أُختطف لأجل فدية، أو أُجبر على دخول ثقب في الأرض، غير أن هؤلاء الأطفال سيكونون بالأسفل هناك ليومين على الأكثر. لقد نجوتُ من ظروفي، وهم سينجون أيضاً. ولو استطعتُ، لتبادلتُ ذكرياتي النكِدة في الصغر بهذه التجربة في رمشة عين.

تمتمتُ: «تباً لهذا»، مسنداً يديّ على بطارية الحفارة ومتمكناً من تحريكها بضع بوصات أخرى. لم تكن في المنتصف تماماً فوق اللوح الخشبي السميك، لكنني استنتجتُ أن ذلك لا يهم؛ فالبطارية كانت ثقيلة للغاية، والجهد المبذول لتحريكها في هذه المساحة الضيقة جعل تنفسي حاداً وصعباً. كان من الشبه مستحيل رفعها؛ وكان وضع تلك البطارية عند حافة التجويف قبل بضعة أيام أحد أصعب أجزاء التجهيز بالكامل.

لم أكن قد وزنتُ البطارية، لكنني استطعتُ التخمين من صعوبة رفعها أنها تزن زهاء مائة رطل. فضلاً عن أن السلم تم سحبه لأعلى. وحتى لو استطاع الأطفال—أو سائقة الحافلة—الوصول بطريقة ما إلى اللوح الخشبي، على بعد اثنتي عشرة

قدم فوقهم، دون سلم، فلن يكون بمقدورهم دفع تلك البطارية بعيداً عن الفتحة.

ركلتُها، للاحتياط فقط... ولأنني أردتُ ركل شيء ما.

لم تتزحزح، لكن حاوية الشحن أصدرت صوت صرير آخر واهتزت قليلاً تحت أقدامي. تسمرتُ في مكاني. كانت حاوية الشحن صلبة ومُدعمة بقضبان معدنية تمتد على طول الجوانب، غير أن الضغط القادم من كل التراب كان أشد كثافة مما توقعتُ. واصل المعدن إصدار ذاك الصرير المتألم. وكانت ألواح الخشب التي استخدمناها لتدعيم التجويف تنحني للداخل قليلاً، لكن ليس بأسوأ مما كانت عليه عندما تفقدتها بالامس. ستصمد لبضعة أيام، وكان يتوجب عليها الصمود.

تذمر **أندي** وهو يستعجلني من الأعلى: «يا رجل، أسرع تباً! رئيسي سيمزقني إرباً. أنا متأخر بالفعل، وقد أرسل رسالة نصية للتو. والركاب يتساءلون أين أنا بحق الجحيم».

كززتُ على أسناني واستسلمتُ أخيراً لرغبة تمزيق الجورب النسائي عن رأسي. لم يكن بمقدور الأطفال رؤية أي منا الآن. زمجرتُ: «كدتُ أنتهي». ما أردتُ قوله هو أنه أعطاني أسوأ المهام، لكنني علمتُ أنه لم يكن يستطيع الانتظار أكثر من ذلك للوصول إلى جولة استلام حافلته.

عملت بسرعة، وتأكدت مرة أخرى من أن أنابيب الهواء المطوية على أحد جانبي لوح الخشب الرقائقي في مكانها الصحيح — وأنها لم تتعرض للتلف الشديد. وكانت الأنابيب تتعرج صعودًا عبر المنجم، لتخرج بضع بوصات فوق سطح الأرض بالقرب من مدخل الحفرة.

كان **أندي** يصر على أننا لسنا بحاجة لأنابيب الهواء. قال: «هناك طن من الهواء بالأسفل، يا دبدوب»، وكأن الأمر لا يهم: «وهم ليسوا بحاجة إلى طعام، الماء فقط. يستطيع الناس العيش لأسابيع دون طعام. نحن لا نحاول بناء دار حضانة بالأسفل هناك».

هتف **أندي** وهو يتطلع لأسفل نحوي: «هيييا لنذهب!» كان يبدأ في الغضب الآن، لكن كان عليه الانتظار لبضع دقائق أخرى. أستطيع الخروج من التجويف بمفردي باستخدام السلم، غير أن باب الحفارة المعدني الثقيل كان بحاجة لشخصين لرفعه وإعادته إلى مكانه لتغطية الثقب في الأرض.

أنهيتُ تفقد موقع البطارية فوق اللوح الخشبي، وأسرعتُ صاعداً السلم وخارجاً من الحفرة، ونفضتُ التراب عن يديّ.

الجزء الثاني من الخطة تم دون أي عقبة.

الأطفال آمنون ومحتجزون. لم يكونوا سعيدين بالأسفل هناك، لكنهم آمنون. ولا أحد يملك أي فكرة عن مكانهم—أو من نكون. لو كانوا يعلمون، لكان المحجر يعج بالشرطة الآن.

ابتسمتُ لـ **أندي** ونحن نرفع باب الحفارة الأصفر لتغطية الثقب، غير أنه اكتفى بالتحديق بغضب. كان يبدو كفأر غريق مع شعره الزيتي الملتصق برأسه. أردتُ إلقاء دعابة حول ذلك لتلطيف الجو، غير أنني علمتُ أنه من الأفضل عدم قول أي شيء. في معظم الأيام، كانت شخصيته تطابق مظهره: هيبي مخدر وأحمق. لكن كان لديه جانب مظلم يخرج عندما يكون متوتراً أو غاضباً، وتعلمتُ إعطاءه مساحته حتى يهدأ.

في اللحظة التي وضعنا فيها الباب المعدني الثقيل، شتم **أندي** تحت أنفاسه ومد يده: «المفاتيح»، كانت كل ما قاله.

وعندما انتزعها مني، ركض نحو الحافلة البيضاء، وفتح باب الركاب الخلفي، ووضع لافتة التحويل على التراب دون أن ينبس بكلمة. ثم نفض الغبار عن سرواله، وركض عائداً إلى جانب السائق، وانطلق سيارته على طول الطريق الترابي الضيق وسط سحابة من الغبار.

رفعت يدي لألوح للإطارات الخلفية. تأخر سيارة الاستقبال في المطار لم يكن شيئًا مقارنة بما أنجزناه للتو. كان ينوي على أي

حال الاستقالة من تلك الوظيفة الجانبية السيئة لحظة حصولنا على فدية.

سيهدأ عندما يعود.

فتحت باب السائق في الشاحنة الرمادية وتفقدت داخل تجويف الباب لأخرج هاتفي المؤقت الذي كنت قد وضعته هناك في وقت سابق. ثم ضغطت على زر التشغيل حتى أضاءت الشاشة الرمادية ذات الصورة غير الواضحة.

تفحصتُ تنبيهات الأخبار من المحطة المحلية التي فعلتُ الإشعارات لها في وقت سابق من الصباح.

كانت قصة الأطفال وسائقة الحافلة المفقودين قد ضربت الأخبار بسرعة وضجيج عارم. قرأتُ العناوين الرئيسي، ثم المقالات، ملوحاً برأسي موافقاً حين اتضح أنها جميعها مجرد هراء مكروب.

لم تكن لديهم أي فكرة عن مكان أولئك الأطفال أو ما الذي حدث لهم.

وضعتُ الهاتف في جيبي لوقت لاحق، ثم سحبتُ لافتة تحويل الطريق عبر التراب وفتحتُ الأبواب الخلفية للشاحنة الرمادية. دفعتها إلى داخل منطقة الشحن الفارغة، كابحاً أنفاسي حتى لا أشم رائحة القيء والبول. سيكون لدينا الوقت لغسل الشاحنة بالخرطوم لاحقاً.

أغلقتُ الأبواب مجدداً وجلستُ على المصد حتى لم أعد أستطيع سماع صرير إطارات شاحنة المطار.

أجبرتُ نفسي على أخذ نفَس كبير وعميق.

ودون ضجيج الأطفال الباكين وأوامر **أندي** الصارخة، غرق المحجر في صمت تام. هادئ، تقريباً.

كانت غيوم ضخمة ومتراكمة تتجمع فوق جدار المحجر المنحدر الذي يرتفع فوق رأسي. وشعاع ضوء خافت من الشمس، التي تغرب على الجانب الآخر، يقطع الغيوم كبطاقة معايدة بعيد الفصح. *«غيوم استقم-مع-يسوع»*، كما كانت أمي تقول دائماً عندما يحدث ذلك. استشعرتُ بوخزة من الذنب حين تخيلتُ النظرة على وجهه لو انزلق لأسفل ذاك الشعاع الضوئي ورأى ما فعلته أنا و**أندي** مع أولئك الأطفال.

ثم طردت الفكرة بعيداً مع بعوضة كانت تحاول مص ذراعي.

لقد وعدتُ نفسي بأنني سأفعل بعض الأشياء الجيدة بحصتي من المال. ربما أساعد بعض الأطفال حتى. سأعيد توازن الكارما.

لم نكن أنا و**أندي** قد أخبرنا بعضنا البعض بما نخطط لفعله بحصصنا من المال أو المكان الذي نخطط للذهاب إليه عندما تصل الفدية. أخبرته أنه من الذكاء أن نكون هكذا، حتى لا نتمكن من الوشاية ببعضنا البعض لو آلت الأمور إلى الفشل والقبض على أحدنا.

غير أنه في الحقيقة، كان ذلك لأنني لم أكن أريده أن يرافقي.
كان **أندي** رجلاً لا بأس به؛ كان الوحيد الذي لم ينتقدني عندما خرجتُ من السجن. حصل لي على هذه الوظيفة، وقام بدوره في مساعدتي على حفر الملجأ للأطفال. لكنني كنتُ أنا من خططتُ للتفاصيل اللوجستية الفعلية، وفكر في كل شيء قد يسير بشكل خاطئ، وأصر على التدرب على التوقيت وتشغيل التدريبات لكل سيناريو محتمل.
وفعلتُ الشيء ذاته مع خطة هروبي الخاصة.
لم تكن العيشة في مقطورة أمي السيئة المزدوجة خلال العام الماضي بهذا السوء عندما كان بمقدوري الحلم بحياتي الجديدة كمليونير.
لم أكن غبياً؛ علمتُ أن المليون دولار لم تعد شيئاً كبيراً هذه الأيام—التضخم وتكلفة المعيشة وأي شيء آخر. بعض المنازل في **صن سيت سبرينغز** تكلف ذلك القدر. لكن المليون كانت أكثر من كافية في كوبا—على بعد رحلة لـ عشر ساعات فقط على متن سفينة سياحية من ميامي. كان زميلي في الزنزانة **دانيال** هو من أعطاني الفكرة، بمجرد أن ارتاح لي. عندما وصلتُ إلى السجن في البداية، حدق بي وكأنني علامة قذارة على بنطال جينز. لكن عندما لزمتُ الهدوء، ولم أفتعل

الشجارات، وبقيتُ بعيداً بحق الجحيم عن جانبه من الزنزانة، قرر أنه يحبني. وبعد بضعة أيام، بدأ في الانفتاح عليّ.

كانت عائلته في الأصل من ميريدا، المكسيك—عبر الماء من كوبا. انتقلت عائلته إلى كاليفورنيا، ثم أيداهو، عندما كان طفلاً. لم يكن هناك عمل في ميريدا، لكن كان هناك برتقال ليُحصَد وبطاطس لـ تُحفر مقابل المال تحت الطاولة.

غير أنه عندما كان **دانيال** مراهقاً، وقع اثنان من أفراد عمومته في مشكلة كبيرة في ميريدا. ساءت إحدى الصفقات، فربطوا أمتعتهم وهربوا إلى كوبا.

حاولت الحكومة المكسيكية إعادتهم، لكن الكوبيين لم يحركوا أصبعاً. وبالتأكيد لن يحركوا أصبعاً لأجل العم سام.

في أحد الأيام، حاول مدمن ميث يدعى **كوري** اتهام **دانيال** بسرقة تويكس خاصة به. كنتُ أنا من رأى مقبض فرشاة الأسنان المسنون يبرز من جيبه. وكنتُ أنا من دفعه بقوة في الوقت المناسب لمنع السكين المصنوعة يدوياً من ملامسة الجزء الخلفي من عنق **دانيال**. أُرسل **كوري** إلى الزنزانة الانفرادية. وفي وقت لاحق من تلك الليلة، أخبرني **دانيال** أنه لا يزال على اتصال بأفراد عمومته. ووعدوا بمساعدته لو وقع في مأزق مجدداً.

كل ما كان عليه فعله هو الوصول إلى هَايتي الصغيرة في ميامي ومعه خمسة آلاف دولار في جيبه، وهم سيتكفلون بالباقي: جواز سفر مزيف، هوية مزيفة، شهادة ميلاد مزيفة. لقد فعلوا ذلك لإخوته بالفعل، وسيفعلونه لي أيضاً، دون طرح أي أسئلة.

لذا كان ذاك هو المكان الذي أتوجه إليه فور حصولي على حصتي من أموال الفدية.

بخلاف أمي و**أندي**، لم يكن هناك شيء يبقيني في أيداهو. لم يكن من الدقيق تماماً القول إن حياتي آلت إلى القذارة منذ السجن؛ بل بدأت كقذارة أساساً، والنتانة تجمعت وتراكمت على مدار العامين الماضيين فقط. في بعض الأحيان كنتُ أنا من يجرفها، لكن ليس دائماً.

لذا كنتُ مسروراً للغاية لترك كل ذلك خلفي.

لا بد وأن أذني أمي كانتا تحترقان بما يكفي ليستيقظ عقلها من ثملتها الأخيرة؛ إذ رن هاتفي في تلك اللحظة بالتدقيق برسالة: *«أحضر معك شيئاً جيداً للعشاء»*.

نقرتُ إجابة قبل أن أستشعر السوء لأنني لم أزود الثلاجة بالطعام لها بالأمس: *«هناك بعض المعكرونة المتبقية»*.

لم أكن ممتازاً في الطبخ، لكنني كنتُ أفضل من أمي. كانت نحيفة للغاية عندما رأيتُها مجدداً بعد السجن، لدرجة جعلت

التطلع إليها يؤلم. نصف شعرها كان قد سقط، وملابسها تتخبط فضفاضة على جسدها الضعيف لدرجة كدتُ لا أعرفها معها. عندما تنتشي، تنسى الأكل ما لم يضع أحد الطعام أمامها. وكانت منتشية معظم الوقت.

مزح **أندي** ذات مرة عندما جاء لأخذي للعمل وظهَرت أمي عند الباب: «حمية الميث، هاه؟»

كنتُ قد ضحكتُ، لكنه كان محقاً. عندما لا تكون أمي منتشية ومجنونة، تكون نائمة. وعندما لا تكون نائمة، تكون منتشية ومجنونة. كانت تأكل عندما أطبخ. وكان الوضع هكذا منذ أن انتقل والدي بعيداً قبل خمس سنوات.

تجاهلتُ الرنين الثاني لهاتفي، والذي كان غالباً شيئاً حول أن المعكرونة قديمة لذا لن تأكل.

تمتمتُ وأنا أركل إطار الشاحنة الرمادية متمنياً لو يسرع **أندي** ويعود من المطار: «خذي بنصيحتكِ وطبقيها على نفسكِ يا أمي».

19

شينا

عندما توقفنا أنا وأبي أخيرًا في ممر المنزل وضغطت على جهاز التحكم عن بُعد لفتح المرآب، كادت عيناي المتعبان أن تتجاهلا صندوق البيتزا المتروك على الشرفة. ولولا الشعار الأحمر المنحني لـ **سبيدواغون** على جانب الصندوق الرمادي الشاحب، والذي امتزج مع الظلال الطويلة على الإسمنت، لكنتُ قد تجاوزتُه بالفعل.

تصارع الرعب والامتنان في صدري كحبل مشدود. لم أكن قد طلبتُ بيتزا، مما يعني أن أحدهم أرسلها إلينا. هل كان العنوان خاطئاً؟ أم أن أحدهم سمع بما حدث في دار **برايت بيغينينغز** وأرسل عشاء رحمة؟ لكن، مَن يكون؟

لم أكن متأكدة من أن زملائي في العمل يدركون حتى أن لدي أطفالاً. وبالتأكيد لم أكن أعرف أي شيء عن عائلاتهم. فقد أصبح العمل عن بُعد بالكامل منذ بدء الجائحة، مما يعني أنه باستثناء اجتماعات «زوم» التي تُعقد من حين لآخر، لم نكن نعرف الكثير عن بعضنا البعض. في الغالب، كنت مجرد زميلتهم في العمل من منتصف العمر، واسمي شينا، التي تجيد

التعامل مع جداول بيانات "إكسل" وتبقي ميكروفونها في وضع كتم الصوت وتستخدم خلفية فيديو مستوحاة من هاواي تخفي الفوضى في مكتبها. أحيانًا، لم يكن لدي حتى ذلك. كان أبي يتجول في المكتب كثيرًا، فتظهر تعابير الحيرة على وجهه فجأة بين أشجار النخيل في خلفية "زوم" الخاصة بي، لدرجة أنني بدأت في إيقاف تشغيل كاميرا الفيديو الخاصة بي معظم الوقت أيضًا.

في اللحظة التي أوقفتُ فيها السيارة في المرآب، رفع أبي نفسه خارج مقعد الراكب، وأغلق باب السيارة بقوة، وترجل صاعداً إلى المنزل دون نظرة واحدة للخلف.

كانت محاضرته المفاجئة حول طلاقي قد تلاشت إلى صمت صخري، إما لأنني لم أكن أجاريه أو لأنه فقد خيط الحديث. لكن لم يكن هناك شك في أنه كان لا يزال عند نقطة الغليان، حتى لو لم يكن يعرف السبب.

انهرتُ في مقعدي وأنا في حالة ذهول.

أعادني رنين على هاتفي إلى الانتباه. البريد الصوتي الجديد. تخبطتُ للإمساك به من حامل السيارة. هل كانت الشرطة؟ دار الرعاية؟ كيف فاتتني المكالمة؟ ارتعدت يداي لدرجة كدتُ معها أسقط الهاتف مرتين وأنا أحاول التصفح للوصول إلى البريد الصوتي.

زمجر باب المرآب مغلقاً، غامراً إياي في الظلام بينما جلستُ أرتعد في مقعد السائق، منتظرة بدء تشغيل الرسالة القادمة من رقم مجهول.

«مرحباً شينا، هذه ديبي من رعاية ذاكرة القلوب العزيزة..»

وضعتُ الهاتف ببطء دون أن أستمع إلى بقية الرسالة، ثم حدقتُ في الخطوط الباهتة لمعدات العناية بالحديقة التي نادرًا ما تُستخدم، ودلاء الطلاء الجافة الموضوعة على الرف أمامي.

لبضع ثوانٍ، رفضتُ سحب نفَس جديد، مكتفية بالزفير والزفير والزفير حتى شعرتُ وكأن رئتيّ قد تنهاران بثقب مدبب في صدري.

كان جزء من عقلي لا يزال يرفض بصلابة قبول الموقف المتعلق بالفتاتين أو أبي. لم يكن هذا ليمضي. لم أكن أستطيع تحمّل هذا. طن رأسي وكأنه ممتلئ بنحل محتجز، غاضب ويائس بحثاً عن مخرج.

مثل كل الآباء والأمهات الذين عرفتهم، كنت أعرف جيدًا ذلك الشعور بالدوار والارتباك الناجم عن فقدان طفل لبضع دقائق في الملعب أو في متجر البقالة؛ ذاك الذعر العارم والأعمى الذي تكاد لا تطيقه، الرعب، شعور الزمن وهو يتوقف، الخوف القاتل من أن شيئاً فظيعاً بحق قد حدث في الثواني الخمس التي أدرتَ فيها ظهرك.

كان ذاك المزيج من المشاعر يؤلم بشدة لدرجة تجعلك تعتقد أنك لن تستطيع تحمّله دون الانهيار تحت الضغط. لم أحاول قط تخيل كيف سيكون الأمر لو أُجبرتُ على العيش في تلك الحالة لأكثر من بضع ثوانٍ.

كان الأمر أسوأ مما يمكنني الحلم به.

صوت خبط من داخل المنزل اخترق طنين النحل في عقلي.

لم أستطع ترك أبي بمفرده هناك. لم أستطع الاستسلام والانهيار، مهما بلغت رغبتي في ذلك.

قبل أن أفتح باب السائق وأدخل المنزل، أومأتُ للوراء وقبضتُ على السترتين المتشابكتين الملقاتين على المقعد الخلفي.

إحداهما كانت لـ **بوني**، سترة صوفية وردية ملطخة برسمة *ماي ليتل بوني* وبأكمام طويلة للغاية. والأخرى لـ **سيدج**، سترة ذات غطاء رأس حمراء سادة—عن كل تلك المرات التي أصرتا فيها على أنهما لن تستشعرا البرد في المتنزه، ثم أخذتا ترتعدان.

عصرتُ سترة **بوني** الصوفية ذات الحبيبات بقوة على وجهي، ضاغطة إياها على فمي. ثم صرختُ.

وعندما نفد مني الهواء، سحبتُ نفَساً مرتعشاً. لم أستشعر التحسن، لكن ذلك جعل النحل المذعور يهدأ بدرجة كافية لأخرج نفسي من السيارة وإلى داخل المنزل.

استقبلتني القطة **كارين** عند الباب، تغرد بالتحية وتلتف بين ساقَي بـ مواء مبهج.

ناديتُ بآلية وأنا أخطو الخُطوات القليلة نحو الباب الأمامي لاستعادة الصندوق:

«أبي، هل أنت جائع؟ هناك بيتزا».

انكمشت معدتي عند فكرة الطعام رغم أنها كانت تصدر صوتاً في الوقت ذاته. سأحاول الأكل، حتى لو لم أرد ذلك؛ فقد أهملتُ الغداء نصف إهمال وأنا أحاول إنهاء الميزانية الفائضة في الوقت المحدد قبل موعد الاستلام، وأبي تجاوز الغداء بالكامل. وكانت مضادات الذهان الخاصة به، التي يأخذها في الصباح، تعني أنه لا يجوع حتى المساء في معظم الأيام. كنا كلينا نعيش على رمق طاقتنا الأخير بحلول ذلك الوقت.

ناديتُ مجدداً بينما ألقت **كارين** بنفسها على الأرض وأخذت تخرخر بشدة، متلوية بكفوفها ذات الأطراف البيضاء في الهواء:

«أبي؟»

فتحتُ الباب الأمامي وانحنيتُ لألتقط صندوق البيتزا، ملقية نظرة خاطفة لداخله. كانت بيتزا البيبروني لا تزال دافئة، لكن الجبن بدأ يبرد على السطح، والزيوت تتخثر في حفر صغيرة صلبة بدلاً من القطرات اللامعة.

وعندما أغلقتُ الصندوق، لاحظتُ وجود ظرف ملصق بالشريط اللاصق على السطح، في المنتصف تماماً. مزقتُه وأنا أحمل البيتزا إلى طاولة المطبخ، آملة أن تقتادني الملاحظة إلى مَن يمكنني شكره على عشائنا.

ناديتُ عبر الممر:

«أبي، تعال وكل أرجوك؟ إنها بـ البيبروني. أحدهم أرسلها إلينا».

كان هناك ورقتان داخل الظرف. مطبوعتان. ملاحظة طويلة. النحل الذي لا يزال يدور في رأسي غرق في الصمت، مذهولاً، فور أن قرأتُ التحية.

شينا هالفيرسون، *سيكون هذا تحذيركِ الوحيد: لا تتصلي بالشرطة. لا تتصلي بـ مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI). كل حركة من تحركاتكِ مُراقبة.*

اقرئي هذه الملاحظة وتعليماتها بعناية شديدة. ***بوني وسيدج*** *تعتمدان على ذلك.*

رن هاتفي. تجاهلتُه. ورن مجدداً. أجبرتُ عينَي على التركيز على التعليمات في الملاحظة وقراءة كل كلمة.

إذا فعلتِ ما نطلبه، فستعود فتياتكِ إليكِ. وكذلك بقية الأطفال. إنهم أحياء وبخير—حتى الآن. لكن مصيرهم بين يديكِ أنتِ. أي محاولات للاتصال بالشرطة أو الانحراف عن مطالبنا ستؤدي إلى عواقب سريعة وبلا رحمة.

لا تلعبي معنا. ونحن لن نلعب معكِ. إذا أردتِ رؤية ابنتيكِ مجدداً، فستسحبين مبلغاً إجمالياً قدره ***50,000 دولار كاش،*** *في معاملات منفصلة من خمسة بنوك في* ***تريجر فالي.*** *سُتجرى هذه السحوبات من أموال سندات مدينة بويزي. وإن سُئلتِ، فستجيبين بأن هذا المال هو دفعة مقدمة لحافلات جديدة لـ مدرسة نورث ريدج الابتدائية. المبالغ المحددة وأسماء البنوك مدونة أدناه في الصفحة 2.*

ستجلبين المال الكاش، في حقيبة ظهر، إلى بداية مسار ***بول كريك*** *في مخيم* ***ليتل إيدي*** *عند الساعة* ***7:00 مساءً بالتحديد يوم السبت، 27 أغسطس.*** *ستأتين بمفردكِ.*

توقفت عن القراءة لأحدق في الصفحة. كان ذلك غدًا.

اتركي حقيبة الظهر تحت لافتة بداية المسار. لا تتحدثي مع أي شخص. لا تتسكعي حول المخيم. ثم قودي سيارتكِ بعيداً. لن نستعيد المال حتى تغادري.

*بعد تسليم الكاش، ستعودين إلى المنزل وتحولين أموال السندات المتبقية—**مليونا دولار**—إلى محفظة بيتكوين باستخدام الخطوات المدونة في الصفحة 2. انتظري التعليمات. سنكون نراقب. وبمجرد تأكيدنا لتحويل البيتكوين، سنطلق سراح الأطفال إليكِ.*

لا تحاولي تتبع مصدر هذه الرسالة. لا تتصلي بالسلطات. لا تتحدثي مع مع أولياء الأمور الآخرين. لا تخبري أي شخص عن هذه الملاحظة.

اتبعي هذه التعليمات بحذافيرها. نأمل بصدق أن تنجحي.

تركت الصفحة الأولى من المذكرة تسقط على الأرض. وكما كان متوقعاً، كانت الصفحة الثانية عبارة عن قائمة بتعليمات مفصلة حول البنوك التي يجب زيارتها، ومبالغ النقود التي يجب سحبها، وحتى مكان ركن السيارة عند بداية المسار.

كان قلبي ينبض بقوة شديدة، لدرجة أن الكلمات المكتوبة على الورقة البيضاء كانت تسبح أمام عينيّ كالتشويش على شاشة تلفاز قديم. لا يمكن أن يكون هذا يحدث. لا شيء من هذا.

بالكاد كنت قد انتهيت من قراءتها سريعًا عندما جعلت ضجة قادمة من مقدمة المنزل رأسي يرتفع فجأة.

كان هناك مَن يصرخ.

20

شينا

لم يكن مجرد شخص يصرخ.

كنتُ أعرف ذاك الصوت. إنه أبي.

تاركةً الصفحة الثانية من الملاحظة تسقط بجوار الأولى على أرضية المطبخ، ركضتُ عبر الممر وخارج الباب الأمامي في الوقت المناسب لأرى أبي يندفع نحو باب الجيران. كان يزمجر بأعلى صوته: «النجدة! أحتاج مساعدة، ليساعدني أحدكم، أرجوكم!» اخترق شجيرات بجانب ممشى عائلة **فورني** وأخذ يطرق بابهم الأمامي بشدة.

كان يبدو مضطرباً للغاية لدرجة أنني، للحظة واحدة، تطلعتُ حولي بذعر وانكمشتُ عائدة نحو الشرفة. كانت الكلمات المطبوعة في ملاحظة الفدية تصرخ في رأسي كبوق ضباب فوق صوت صياح أبي: «*كل حركة من تحركاتكِ مراقبة*». هل رأى أبي شيئاً؟ هل كان هناك مَن يراقبنا في هذه اللحظة بالذات؟ ناديتُ وأنا أهرول خلفه نحو الرصيف:

«أبي! أبي، أرجوك عد، كل شيء بخير».

كذب. لم يكن كل شيء على ما يرام. أصبحت حياة عشرة أطفال، اثنان منهم من أطفالي، فجأة بين يدي. كنت أظن أنه لا يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ من سماع خبر اختفائهم. لكن هذا كان أسوأ.

متجاهلاً إياي، توقف عن الدق على باب عائلة **فورني** وانتقل بسرعة صادمة نحو منزل عائلة **أندرسون**.

كان الشارع خالياً، باستثناء سيارة سيدان فضية تقود نحونا. توقفت جانباً وتعرفتُ على السيد **هيلر** من المنزل المجاور بعد منزلين عندما قفز خارج السيارة. رمقني بنظرة تعاطف من تحت حاجبيه الرماديين الكثيفين وهرول نحو أبي، الذي كاد يتعثر بخرطوم الحديقة في فناء عائلة **أندرسون** وهو يندفع نحو بابهم الأمامي:

«رون! هيي! إنه أنا، شيز هيلر. ما الذي يحدث؟»

شهق أبي وهو يستدير ويتعثر نحوه ويداه فوق رأسه وكأنه يستسلم:

«أحتاج مساعدة، أحتاج إلى تعزيزات!»

استدار **شيز** ليتطلع إليّ، والشفقة مكتوبة على وجهه بالكامل.

لفتت حركة في رؤيتي المحيطية انتباهي، وإذا بها ستائر منزل عائلة **أندرسون**؛ كان أحدهم، مرتعباً على الأرجح، يسترق النظر إلينا. تضخم الخزي والحزن والذعر واليأس في صدري

لدرجة ظننتُ معها أنني قد أفقد وعيي على العشب المقصوص بدقة.

لكن ما قاله لي أبي في السيارة في وقت سابق كان يدق في رأسي بتكرار: *أزمة خاطئة، لكن الكلمات صحيحة*.

لم يكن لدي رفاهية الانهيار الآن؛ **سيدج** و**بوني** بحاجة إليّ، وأبي بحاجة إليّ. لم أكن لأستطيع خذلانهم، حتى لو لم تكن لدي أدنى فكرة عما يتوجب عليّ فعله بحق الجحيم.

كان **شيز** يقول:

«أنا هنا للمساعدة، كل شيء بخير. انظر، **شينا** هناك بالظبط».

أشار **شيز** إليّ، فالتفت أبي بسرعة للتأكد.

وجه أبي الباهت، بَنَمَشِهِ البارز الداكن، انخسف بالحيرة ولمحة من الراحة. خفض يديه وتطلع إلى **شيز**:

«ما الذي جرى بحق السماء...؟»

هرعت نحوه، مستغلةً لحظة هدوء وسط الفوضى:

«شكراً يا شيز. نحن بخير، أليس كذلك يا أبي؟ اليوم كان يوماً شاقاً».

فتح **شيز** فمه وكأنه يريد قول المزيد؛ وكأنه ربما سمع بما حدث وتذكر أن لدي طفلتين صغيرتين. بالتأكيد لا بد وأن حادثة الاختطاف قد ضربت الأخبار الآن.

ضابط الشرطة في موقف السيارات كان قد قال إن هناك ثمانية أطفال آخرين على متن حافلة الرعاية تلك مع **سيدج** و**بوني**.
كانت هناك عائلات أخرى تترنح الليلة في **صن سيت سبرينغز**، جميعنا ضُربنا دفعة واحدة كشظايا انفجار.
قال **شيز** بلطف، وحاجباه الرماديان الكثيفان ينعقدان في غضن عميق:
«أنا آسف... هل تحتاجين لـ أي شيء...» استشعرتُه وهو يبحث عن اسمي.
غصصتُ بـ:
«**شينا**»، وعقلي يرتد بسرعة لـ ملاحظة الفدية على أرضية مطبخي: «*لا تتحدثي مع أي شخص*».
كان عليّ إعادة أبي لداخلي المنزل الآن، ثم استكشاف ما يتوجب عليّ فعله تالياً.
قلتُ باقتضاب:
«شكراً لمساعدتك يا شيز. هيا يا أبي، لنذهب للداخل».
ولراحتي، سمح لي أبي بأخذ ذراعه وسرنا عودةً إلى المنزل دون كلمة أخرى.
كانت ورقتا الطباعة ملقاتين على الأرض حيث سقطتا.
وصندوق البيتزا مفتوحاً على طاول المطبخ.
ماءت القطة **كارين** بابتهاج وهرولت نحو أبي.

زمزم أبي وهو يحملها متجهًا نحو غرفة المعيشة:

«لستُ جائعاً بعد، سآخذ قيلولة مع القطة».

غصصتُ بالامتنان وهو يبتعد:

«حسناً يا أبي».

وعندما سمعتُ صرير زنبرك السرير في الغرفة الأخرى، جثوتُ وجمعتُ الملاحظة، مستخدمةً كم رداء هذه المرة.

كنتُ أعرف بالفعل أنني لن أذهب للشرطة؛ ليس بعد. لكنني لم أكن لأكون غبية بشأن الأدلة المحتملة أيضاً.

استطعتُ بالفعل تخيل الغضب من الجيران—وحتى من أولياء أمور الأطفال المفقودين الآخرين—وهي ينعتونني بالغباء والتهور والأنانية. لكنني لم أستطع التوقف عن تخيل تعابير وجه أبي لو قرأ تلك الملاحظة. لم يكن ليركض للاتصال بالشرطة—رغم أنه ارتدى ذاك الزي الأزرق بفخر لأكثر من ثلاثين عاماً.

«يعتقد الناس أنك إن كنتَ ترتدي الزي الرسمي، فأنتَ تملك كل الإجابات. إنهم بحاجة لتصديق ذلك، يمنحهم الشعور بالأمان—لكن ذلك لا يجعله صحيحاً دائماً. ثقي بحدسكِ يا شين»—هكذا كان سيقول لو كان عقله حاداً.

وفي هذه اللحظة، كان حدسي يخبرني أنني إن تجاهلتُ تلك الملاحظة، فإنني أفعل ذلك على مسؤولية تعريض **سيدج** و**بوني** للخطر.

أردتُ بشدة الاتصال بأي شخص، أي شخص يمكنه مساعدتي في معرفة ما يتوجب عليّ فعله. حتى **جيكوب**ـــلو كنتُ أعرف كيف أتصل به. **بوني** و**سيدج** لا تزالان ابنتيه، وبالتأكيد كان سيرغب في مساعدتي لو علم بما يجري.

«لا تتحدثي مع أي شخص».

لا، لم أكن أستطيع حتى الاتصال بـ **جيكوب**. رمشتُ بشدة، مريضة من الخوف، وحاولتُ التفكير. *تحركي، افعلي شيئاً. أنتِ الوحيدة التي يمكنها مساعدتهما. إنهما تعتمدان عليكِ. إنهما مرتعبتان. ماذا لو كانتا مصابتين؟ أسرعي، لأجل الله، أسرعي.*

متحركةً بأدرينالين خالص، ومبقيةً إحدى أذنيّ مشدودة نحو غرفة النوم لأي مؤشر على أن أبي يتحرك مجدداً، أدخلتُ الظرف وأوراق الملاحظة في كيس تجميد بحجم غالون ووضعتُه في الخزانة الصغيرة شبه العديمة الفائدة فوق الفرن حيث أحتفظ بـ أدوية أبي.

ثم حدقتُ في صندوق البيتزا، غير متأكدة مما يتوجب فعله به. لم أستطع رميه؛ ماذا لو كانت هناك بصمات أو أدلة عليه؟ نعم، لقد جاء من خدمة التوصيل التابعة لـ**سبيدواغون**، لكن لم تكن

لدي أدنى فكرة عمن قد يكون لمسه أيضاً. هل يمكن التقاط البصمات من صندوق كرتوني؟

عبست. لا أستطع الاحتفاظ به في المنزل في وجود أبي.

اعتصر قلبي بألم.

وفجأة عرفتُ ما يتوجب عليّ فعله.

بعد أن دفعتُ جانباً بعض الأوعية العشوائية في الثلاجة لإفساح مساحة كافية، قمتُ بوضع الصندوق بحذر على الرف السفلي لحفظه في أمان.

ثم، وبسرعة أكبر، أخرجتُ هاتفي من جيبي ووقفتُ في الزاوية البعيدة من غرفة المعيشة حيث كانت الستائر مغلقة، متجاهلةً سيل الرسائل النصية التي كانت تصلني منذ بضع دقائق.

انخفضتُ مستندةً إلى الحائط واستمعتُ إلى الرسالة الكاملة التي تركتها لي ديبي من مركز رعاية **ذاكرة القلوب العزيزة**. ثم أعدتُ الاتصال بالرقم.

وعندما رد صوتها المبهج من الرنة الثانية:

«مركز رعاية ذاكرة القلوب العزيزة، معكِ ديبي».

أغمضتُ عينيّ بقوة واستخرجتُ الكلمات بأسرع ما يمكن قبل أن تخنقها الدموع:

«مرحباً ديبي. هذه **شينا هالفيرسون** أرد عليكِ». انكسر صوتي، لكنني ضغطتُ لأقول ما أحتاج قوله: «أعلم أن الوقت

متأخر، لكنكِ ذكرتِ أن لديكِ مكانًا شاغرًا. وأنا بحاجة ماسة لمكان آخذ إليه أبي الليلة».

21

جيسا

عشر دقائق من الدفن

كنت قد سمعت عبارة «الظلام دامس لدرجة أنك لا تستطيع رؤية يدك أمام وجهك».

ظننت أنني أعرف كيف قد يبدو ذلك. ظننت أنني أستطيع تخيل ظلامٍ دامسٍ لدرجة أنه يبتلعك بالكامل.

كنتُ مخطئة.

لبضع دقائق بعد أن اختفت آخر بقايا الضوء في السماء، اندلعت الفوضى داخل حاوية الشحن — أو على الأقل هذا ما افترضت أنه كان هذا الشيء. أطفال يبكون، وأنفاس حادة، وأصوات أقدام تتحرك ببطء وتصطدم ببعضها البعض، وجميعهم يتوسلون إلى الرجل الذي يغطي رأسه بجوارب طويلة أن يفتح الفتحة من جديد.

وتحت كل ذلك كان هناك صوت صرير متناغم صادر عن النوابض الصارخة للمراتب القديمة التي تبطّن قاع المخبأ.

كانت ترتجف وتتزحزح مع تحرك عشرة أزواج من الأقدام ذهابًا وإيابًا، بحثًا عن الجدران.

في حالة من الذهول، تراجعتُ للوراء حتى اصطدم ظهري بجدار الحاوية. كان ينحني للداخل، وكأنه ينوء تحت ثقل التراب الذي يضغط عليه.

أخذت نقاط رمادية صغيرة ترقص في الظلام بينما أرمش بعينيّ أسرع، متخيلة كل تلك الآلاف من أرطال التراب وهي تخترق الجدران المجهدة للمخبأ فجأة، لِتغمر رؤوسنا وأعيننا وأنفاسنا.

كم من الهواء يتبقى هنا بالأسفل؟ والأهم من ذلك، ما السرعة التي سيبدأ بها ثاني أكسيد الكربون الخاص بنا في تسميمنا؟ أجبرتُ رئتيّ على الامتلاء ثم إطلاق النفَس، لكن كل ما كان يشغل تفكيري هو الاختناق هنا في الظلام.

صرخ أحد الأولاد بعد بضع ثوانٍ:

«أعتقد أنني وجدتُ إبريق ماء!»

تبع تلك الصرخة صمت قصير، استطعتُ خلاله سماع الصوت الخافت لخطوات أقدام تطقطق فوق رؤوسنا.

والأطفال الآخرون سمعوها أيضاً.

صرخت فتاة صغيرة:

«النجدة، النجدة، النجدة!»، ليملأ صوتها الغرفة المظلمة لدرجة مستحيلة.

أعادني ذلك من ذهولي. تخبطتُ نحو مصدر صوتها، وأكتافي تصطدم بأجساد صغيرة أخرى وأنا أتحرك.

كان هذا كل ما أستطيع فعله لكي لا أهز الفتاة الصغيرة— **إيفلين**، كما أدركتُ.

هستُ:

«شششش، إيفلين»، جاعلةً صوتي عالياً بدرجة كافية لكي يسمعني بقية الأطفال. لم نكن لنحتمل الذعر، لم نكن لنفقد عقولنا؛ فذلك لا ينتهي إلا على نحو سيئ دائماً. مسكتُ ذراعها بطريقة أملتُ ألا تؤذيها وقلتُ لها: «أولئك هم الأشرار في الأعلى. نحن بحاجة فقط للبقاء هادئين وسنكون بأمان، حسناً؟»

كتمتُ أفظع الأفكار التي تدور في رأسي: *ماذا لو قرروا أننا صاخبون للغاية—وقاموا بسد خرطوم الهواء؟*

لا. كان الخاطف قد قال إن هناك أنبوب هواء يجلب بعض الأكسجين النقي على الأقل. كان ذلك دليلاً إضافياً على أنهم يريدون إبقاءنا أحياء بالفعل—لا إيذاءنا. كل ما علينا فعله هو البقاء هادئين والتحصن حتى يحصل الرجال على ما يريدونه.

أجبرتُ أنفاسي على الاستقرار ودفعتُ الأفكار المزعجة بعيداً.

سألتُ:

«مَن الذي وجد الماء؟»

كنا جميعاً عطشى، وكنا بحاجة لترشيده والتأكد من عدم انسكابه في الظلام.

قال صوت **كيد** هذه المرة بعد أن ميزتُه:

«أنا. وهناك بعض الأكواب. ويمكنني شم رائحة طعام أيضاً».

ارتفعت همسات متحمسة من الأطفال الآخرين رداً على ذلك.

قلتُ وأنا أتحرك نحو مصدر صوته، ممتنة لهذا التشتيت:

«هذا رائع يا كيد».

سحبتُ نفَساً مهدئاً آخر. كان الخاطف يقول الحقيقة بشأن ترك بعض الطعام والماء لنا؛ ربما يعني ذلك أنه كان صادقاً بشأن إطلاق سراحنا بمجرد حصولهم على الفدية. لكنه كان يعني أيضاً أنهم يخططون لتركنا هنا لبعض الوقت على الأرجح.

«*جيسا لاندون تستحق أن تتعفن في الجحيم*»—ترددت كلمات زوج أختي السابق في رأسي للمرة الألف.

قلتُ لنفسي حاسمة: *هذا ليس الجحيم*. الجحيم لا يحتوي على طعام وماء.

ناديتُ في الظلام:

«لنجلس جميعاً على مرتبة ونشرب شيئاً، حسناً؟»

يمكنني فعل ذلك. يمكنني تولي زمام الأمور في هذا الأمر البسيط. كانت فكرة إحلال نوع من النظام وسط هذه الفوضى تبعث على الراحة.

ارتفع صوت آخر من خلفي، صوت **سيدج**:

«أعتقد أن هناك مرحاضاً هنا. رأيته قبل أن يختفي الضوء؛ إنه مجرد دلو فوقه قطعة خشب، ولكن...»

«هذا رائع يا سيدج..»

انفجرت **سيدج** بـ همس مستعجل قبل أن أنهي كلامي:

«سيدة **جيسا**، ربما يمكنكِ رفعي. لو وقفتِ عليه وساعدتني، أراهن أنني أستطيع الوصول للسقف. يمكنني محاولة..»

تعالت المزيد من الهمسات المتحمسة من الأطفال الآخرين.

استدرتُ بسرعة نحو مصدر صوتها، والذعر يحول فمي الجاف أصلاً إلى قطن.

نهرتُ بصوت أعلى مما أردتُ:

«لا!»

«لكن..»

قلتُ مجدداً، بـ صوت أهدأ هذه المرة، وأنا أسترق النظر عبر الظلام بحثاً عن ضوء أخضر أو أحمر خافت قد يشير إلى أننا مراقبون هنا بالأسفل. لم أرَ أي ضوء.

«سنفعل ما قاله الرجال تماماً، ثم سنخرج من هنا. هل تفهمين يا سيدج؟»

لم تجب هذه المرة.

بُحَّ صوتي وأنا أقول:

«تعالَي نحو مصدر صوتي. سأصب للجميع القليل من الماء».

كبحتُ شعور الذنب ولمستُ بيدي الأكواب البلاستيكية المتراكمة بجوار صف من غالونات الماء. كنتُ أكره سحق ذاك الأمل المبكر، وأكره تخيل ملامح الخيبة على وجهها— تلك الملامح ذاتها التي لمحتُها في الضوء الخافت للشاحنة الرمادية عندما طلبتُ منها الجلوس بعد أن خدشت تلك الثقبة الصغيرة في طلاء نافذة الشاحنة.

لكن تشجيعها الآن سيكون أسوأ؛ تشجيعها قد يقتلنا جميعا.

تعثر الأطفال ببعضهم البعض لتشكيل خط عشوائي على طول الأسرة الأقرب لإبريق الماء. وبينما كنتُ أتلمس طريقي أسفل الصف وادفع الأكواب في الأيدي الصغيرة، جعلتُ كل طفل يخبرني باسمه وبحيوانه المفضل. لم أكن أعرف كم سنبقى هنا بالأسفل، لكن من عدد غالونات الماء—عشرة عدتُها—قد يستغرق الأمر أياماً.

ملأتني تلك الفكرة بالرعب. وربما تخيلتُ ذلك، لكن كل نفَس كان يبدو أصعب في السحب من سابقه.

دفعتُ الرعب بعيداً؛ فلن يفيد بشيء. كنا بحاجة للاستقرار.

«بن، الراعي الأسترالي ».

«ميندي، وحيد القرن ».

«إيفا، أحب كل الحيوانات».

«بوني، القطط الصغار».

كنتُ أطلق أصوات الإعجاب والانبهار لكل حيوان: *«أوه، نعم، أنا أحب القطط أيضاً! الكلاب الأسترالية ذكية جداً! أتمنى لو أستطيع ملاطفة أحادي القرن»*.

مددتُ يدي للزوج التالي من الأيدي، لكنني وجدتُ كتفين منحنيين وخصلات شعر مجعدة متشابكة بدلاً من ذلك.

سألتُ:

«سيدج، ما حيوانكِ المفضل؟»

لم تجب لـ بضع ثوانٍ. اهتز كتفاها وكأنها تحاول كتم نشيج صامت وتفشل.

«سيدج؟»

وقبل أن أقول لنفسي إنها فكرة فظيعة، جثوتُ على الركبتين في التراب عند حافة المرتبة وأمسكتُ بـ يدها.

توقعتُ منها أن تسحب يدها بقوة، لكنها بدلاً من ذلك عصرت يدي لـ لحظة واحدة، ثم سحبت يدها برفق، ساحبةً نفَساً كبيراً وكأنه سيمنعها من الانهيار مجدداً.

كانت ابنتي **صوفي** قد فعلت الشيء ذاته عندما سقطت وهي تتعلم المشي.

جعلتني تلك اللفتة الصغيرة أشعر بألم في قلبي لدرجة كدتُ معها لا أستطيع البلع.

«*سأبقيكِ بأمان*»—وعدتُ **سيدج** بصمت، بالطريقة ذاتها التي وعدتُ بها **صوف** منذ سنوات مضت.

«*مهما بلغ غضبكِ، سأبقيكِ بأمان*».

كنتُ على وشك الانتقال للطفل التالي والعودة لـ **سيدج** بعد دقيقة، لكنهاحنحت حنجرتها.

« سيدج، الغرير».

جعلني ذلك أبتسم.

قلتُ:

«حيوانات الغرير شرسة؛ وكانت تميمة كليتي أيضاً».

قالت بـ صوت خافت:

«إنها أفضل الحفارين. الغرير لن يخاف هنا بالأسفل؛ كانت ستحفر لنا طريقاً للخروج فحسب».

«*كانت ستخاف عندما تجد أولئك الرجال المحملين بالأسلحة ينتظرونها في الأعلى*»—فكرتُ في نفسي، لكنني كتمتُ الكلمات.

22

سيدج

ثلاثون دقيقة من الدفن

من أعد شطائر زبدة الفول السوداني ووضعها في حقيبة تبريد من الستايروفوم داخل أكياس بلاستيكية، كان يعرف كيف يفعل ذلك بالطريقة الصحيحة.

كانت زبدة الفول السوداني مفرودة بالتساوي على كلا جانبي الخبز، بسمك كافٍ لتغطية الشرائح بطبقة ناعمة. وطبقة جيدة من المربى، لم تصل تماماً إلى حواف الخبز، كانت تتسرب بينهما حتى لا ترطب الحواف الخارجية وتصبح رخوة.

لم أكن أتوقع من رجلَي الجوارب النسائية معرفة كيفية إعداد شطيرة جيدة. وعندما أنهيتُ القطعة التي أعطتني إياها السيدة **جيسا**ـــبعد أن جعلتني أقسم على حياتي أنني لا أعاني من حساسية الفول السوداني ـــتمنيتُ لو كانت لدي واحدة أخرى.

همستُ لـ **بوني**:

«إنها لذيذة، أليس كذلك؟»

قالت بصوت ضئيل:

«أجل». ثم أردفت: «أتمنى لو كان هناك ضوء. المكان مخيف حقاً بالأسفل هنا».

قلتُ لها، كما أقول لها عند النوم عندما تخاف وتأتي إلى غرفتي: «إنه مجرد ظلام. الظلام لا يمكنه إيذاؤنا. لا بأس».

استطعتُ التمييز أن بعض الأطفال الآخرين كانوا يستمعون إلينا، من الطريقة التي خفتت بها أصوات المضغ. زفر بضعة أطفال، وكأنهم كانوا بحاجة لسماع ذلك عن الظلام أيضاً.

أردتُ الحديث عن فكرتي مجدداً. كان **جيبيرز** لا يزال فوقنا، عند أعلى الحفرة؛ على الأقل، كنتُ شبه متأكدة من أنه هو. استمعتُ بحرص شديد بعد أن أغلقوا الحفرة وقال **صاحب الشعر الزيتي** شيئاً عن حاجته لاصطحاب شخص ما. ثم اشتغل محرك سيارة وصصرت الإطارات مبتعدة.

لبعض الوقت، ابتعد **جيبيرز**. وعندما عاد، كان يأخذ خطوات كبيرة فوق رؤوسنا، جيئة وذهاباً، وكأنه يدور حول المكان. استطعتُ بالكد سماع وقع أقدامه وهي تطقطق على الأرض. كنتُ مسرورة لأن **صاحب الشعر الزيتي** قد ذهب في الوقت الحالي. ربما يغادر **جيبيرز** قريباً أيضاً.

مع مرور الدقائق، لعقتُ شفتَي وحاولتُ التفكير. لو ساعدتني السيدة **جيسا**، فبإمكاني الوصول إلى السقف، حيث الفتحة

مغطاة. ربما أستطيع إيجاد طريقة لدفع أي شيء غطوا به الحفرة والدخول إلى المدخنة الخشبية.

كان يتوجب علينا التجربة على الأقل.

لكن السيدة **جيسا** لن تساعد. فعبست بوجهي، متطلعة في الاتجاه الذي أستطيع سماعها فيه وهي توزع المزيد من الطعام والماء. كانت تعتقد أن الرجال سيفون بوعودهم. وربما، لو كان الأمر يقتصر على **جيبيرز**، كانت هناك فرصة ضئيلة جداً في أن يفعل ذلك؛ كنتُ أعرف فقط أنه هو مَن أعد الشطائر.

أما **صاحب الشعر الزيتي؟** استشعرتُ أنه يكذب كثيراً. يقول لك شيئاً ثم يفعل شيئاً آخر. بالطريقة ذاتها التي فعلها أبي في الصيف الأول الذي غادر فيه؛ وعد بأنه سيأتي لزيارتي أنا و**بوني** طوال الوقت رغم أنه وأمي كانا يتطلقان. كانت **بوني** لا تزال رضيعة حينها ولم تفهم ما كان يقوله، لكنني فهمتُ.

رشفتُ أخر رشفة ماء من الكوب الذي أشاركه مع **بوني**. لم تكن هناك سوى ستة أكواب بلاستيكية، لذا كان علينا المشاركة.

ثم حدقتُ بعينَي نحو السقف محاولةً رؤية أي شيء.

لم أكن أظن أنني سأستطيع؛ كان المكان مظلماً للغاية. لكن بعد بضع ثوانٍ، استطعتُ تمييز حلقة ضوء ضبابية ذات لون رمادي داكن فوق رأسي، في سقف غرفة حاوية الشحن. كانت خافتة لدرجة أنني عندما أرمش، كان الأمر يستغرق ثانية لتجد

عينَاي تلك الدائرة الرمادية مجدداً. لكنها كانت هناك. ولو استطعتُ الوصول إليها فقط، لـ حاولتُ الاختراق عبرها.

حكتني ساقاي للتحرك، والتجربة. لكنني لم أستطع الصعود إلى هناك بمفردي.

جلستُ هناك في الظلام على المرتبة الكريهة الرائحة وفكرتُ لـ بعض الوقت، إذ كان ذلك هو الشيء الوحيد المتاح لفعله.

ثم طرأت لي فكرة.

سألتُها:

«هيي، بوني؟ هل تتذكرين لعبة التلفون المغلق التي لعبناها مع أمي وجدي؟»

قالت بسرعة:

«أجل». كانت لعبة التلفون إحدى ألعابها المفضلة؛ كانت تضحكنا كلينا دائماً عندما تتلخبط الجمل وتصبح سخيفة.

سحبتُ نفَساً كبيراً وملتُ قريبة من أذنها:

«حسناً، سنفعل ذلك. لكن لا تلخبطي الكلمات، اتفقنا؟ كرري هذا للطفل التالي، وقولي له أن ينقلها: *سيدج لديها خطة. علينا مساعدتها*».

استشعرتُ السخافة في اللحظة التي تراجعتُ فيها، لكن **بوني** لم تطرح أسئلة؛ كانت تهمس لـ **روز كارلتون**. ودق قلبي عندما أطلقت **روز** همسة «أوه» محملة بالأمل.

لم تكن لدي خطة بحق، مجرد فكرة "طائشة"، كما كان سيقول جدي. لكن سطرًا آخر من كتاب *هاريت الجاسوسة* كان يدور في رأسي منذ أن أخبرتني السيدة **جيسا** بالتوقف عن الحديث عن الهرب: *«الحياة صراع، والجاسوس الجيد ينزل هناك ويقاتل»*.

الشعور الذي يضغط في خلفية معدتي كان يخبرني أن **هاريت** كانت على حق.

قررتُ أن السيدة **جيسا** كانت مثل الطباخة—طباخة هاريت— التي كانت لطيفة بما يكفي لكنها تعتقد أن **هاريت** خارجة عن السيطرة. تقول دائماً أشياء مثل: *تظنين أنكِ جاسوسة، لكنكِ لا تزالين مجرد طفلة صغيرة. عليكِ إيجاد شيء أفضل لفعله بدلاً من حشر أنفكِ فيما لا يعنيكِ*.

كان عليّ أن أكون مثل **هاريت**، لا الطباخة. لم يكن عليّ مجرد الجلوس هنا لمجرد أنني طفلة، ولم يكن عليّ الاستماع للبالغة الوحيدة بالأسفل هنا.

كان بمقدوري فعل شيء ما.

أجهدتُ أذنيّ وسمعتُ الأطفال ينقلون كلماتي أسفل صف الأسرة. مجرد بضعة أطفال آخرين، وسيكون الجميع قد سمعها—ما لم تتلخبط الرسالة كثيراً.

كنتُ أحاول إقناع أمي بأنني طفلة كبيرة—ولستُ رضيعة—طوال العام الماضي؛ وأنني لستُ بحاجة لركوب الحافلة إلى **برايت بيغينينغز** مع **بوني** بعد الآن لأنني كبرتُ؛ وأنني لا أخاف البقاء في المنزل بمفردي لو اضطرت أمي لقضاء مهمات بعد العمل.

سألتُها مرات عديدة: «لماذا؟ أنا كبيرة بما يكفي».

وكانت الإجابة تنتهي دائماً إلى: «لأنكِ لستِ جاهزة ولأنني أمكِ».

كان ذلك صحيحاً، ولم أملك رداً قط على ذاك الجزء الأخير.

لكنني بدأتُ أفكر في أن أمي ربما كانت تريد مني ركوب الحافلة مع **بوني** إلى **برايت بيغينينغز** ليس لأنها تظن أنني رضيعة أو لأنني لستُ جاهزة، بل لأنها شخص بالغ، والبالغون يحق لهم تولي زمام الأمور.

تماما كما أردت السيدة **جيسا** مني الجلوس بهدوء والصمت؛ ليس لأنها تعرف بحق ما هو الأفضل، بل لأنها شخص بالغ، والبالغون يحق لهم تولي زمام الأمور.

والشيء ذاته كان ينطبق على الرجلين بـ القناعين؛ كانا بالغين—ومعهما أسلحة، لذا كان يحق لهما بحق تولي زمام الأمور.

استمعتُ بحرص متجاوزةً صوت السيدة **جيسا**؛ كانت قد انتهت من إعطاء الجميع شربة ماء وكانت تعود عبر الصف لجمع الأكواب البلاستيكية الفارغة.

على الجانب الآخر من الغرفة المظلمة التي تفوح منها رائحة التراب والملابس القديمة وأبخرة زبدة الفول السوداني الساخن، كان أحدهم يهمس. وسمعتُ اسمي في المنتصف: **سيدج**.

تلمستُ بيدي أسفل المرتبة، مجريةً الحسابات في رأسي. لم أكن متأكدة من أن فكرتي ستنجح بعد، لكنها كانت تتشكل بسرعة أكبر الآن بعد أن أعطيتُها مساحة لـ تتنفس.

بعد فترة، طقطقت خطوات **جيبيرز** فوق رؤوسنا مجدداً، مبتعدة عنا. ثم تدحرجت إطارات على الحصى، مقتربة هذه المرة. حزرتُ، رغم أنني لم أستطع التأكد، أنه **صاحب الشعر الزيتي**، عاد من حيث ذهب.

همست **بوني**، ويدها المتعرقة تتلمس يدي مجدداً وهي تميل قريبة:

«سيدج، ماذا ستفعلين؟ ما هي خطتكِ؟»

لم أجب، مكتفية بعصر يدها لأنني كنتُ لا أزال بحاجة للتفكير لفترة أطول قليلاً:

«سأخبركِ قريباً، اتفقنا؟»

الشيء الوحيد الذي كنتُ متأكدة منه هو أنني انتهيتُ من الاستماع للبالغين؛ انتهيتُ من التظاهر بأنهم يعرفون ما هو الأفضل.

كنتُ سأكون مثل **هاريت**؛ كنتُ سأقاتل.

23

شينا

بعد أن أغلقتُ الخط مع **ديبي** من رعاية **ذاكرة القلوب العزيزة**، وضعتُ الهاتف وأخذتُ أتأمل يديّ المبسوطتين على ركبتيّ.

سأقود بأبي إلى مركز رعاية الذاكرة. ليس بعد أسبوع، كما اقترحت ديبي في البداية—بل الليلة. أخبرتُ نفسي أن هذا ليس التزاماً نهائياً، مجرد مكان آمن لآخذه إليه لبضع ليالٍ.

كان أمامي أقل من أربع وعشرين ساعة قبل الوقت المفترض لتسليم أموال الفدية في مخيم **ليتل إيدي**. واستطعتُ الإحساس بالفعل بأن الأمر سيكون سباقاً ضد الزمن لعمل ما طلبه الخاطفون؛ بل إن بعض طلباتهم المحددة قد تكون مستحيلة، بناءً على ما أعرفه عن حدود السحب اليومية. كنتُ بحاجة إلى التأكد التام من أن أبي في أمان بينما أفعل ما يتوجب عليّ فعله غداً، حتى لو كرهني بسبب ذلك.

تسارعت أنفاسي في شهقات حادة حاولتُ جعلها صامتة بقدر الإمكان. لو انتحبتُ بصوت عالٍ، سيستيقظ أبي. وأردتُ تركه ينام لبضع دقائق أخرى قبل أن أوقظه لقطع الطريق نحو **ذاكرة**

القلوب العزيزة. لم يكن المكان بعيداً—ربما عشرون دقيقة، عند سفح التلال قرب المحجر القديم.

رن هاتفي مجدداً، وقرأتُ أخيراً الرسائل النصية التي كانت تتوالى منذ أن وجدتُ ملاحظة الفدية على صندوق البيتزا. كانت جميعها من الرقم ذاته الذي يتواصل معي سابقاً من إدارة **برايت بيغينينغز** لإبلاغنا بإجراءات الاستلام والرحلات الميدانية.

لم تكن هذه الرسائل تشبه أي شيء تلقيته من قبل:

تحديث لأولياء الأمور: تمكنت الشرطة من تحديد موقع هواتف الأطفال. لا يمكننا تقديم المزيد من المعلومات في الوقت الحالي لحماية الأدلة في هذا التحقيق النشط.

انقشعت معدتي. *أدلة. تحقيق نشط*. كانت هذه كلمات تُساق في المسلسلات الجنائية والتحقيقات، لا من قِبل مركز رعاية ما بعد المدرسة لأَبنتيّ.

لم يذكروا كلمة "اختطاف" بعد. هل كانوا يعلمون؟ ألقيتُ نظرة على الستائر النصف مفتوحة في غرفة المعيشة، ثم عودةً إلى الملاحظة. تفحصتُ بعينَي أسرع، يائسة للحصول على المزيد من المعلومات، أو لرسالة تقرأ: "لقد وجدنا الأطفال آمنين الآن".

كانت الرسائل الثانية والثالثة والرابعة عديمة الفائدة تقريباً؛ معلومات مكررة عن اتصالات الشرطة وتأكيدات متكررة بأن

«برايت بيغينينغز تبذل كل ما في وسعها للمساعدة والتعاون مع الشرطة ومكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)».

وكان هناك مناشدة لأولياء الأمور للتقدم بأي معلومات لم يكشفوا عنها بعد قد تساعد المسؤولين في العثور على الحافلة والأطفال.

انقبض فكي وأنا أتخيل صندوق البيتزا الذي احتفظتُ به بحذر في ثلاجتي. كانت هناك أدلة على ذاك الصندوق على الأرجح، وعلى ملاحظة الفدية. ربما كانت هناك كاميرات في متجر **سبيدواغون** يمكن للشرطة استخدامها.

كنتُ أحتفظ بمعلومات عمداً في تحقيق جنائي؛ تحقيق يمس ابنتيّ بشكل مباشر وثمانية أطفال آخرين.

أصدر هاتفي صريراً، وأدركتُ أن ذلك بسبب ضغطي الشديد عليه.

لم أكن أستطيع التقدم بالمعلومات.

«أي محاولات للاتصال بالشرطة أو الانحراف عن مطالبنا ستؤدي إلى عواقب سريعة وبلا رحمة».

أستطيع فقط تخيل ما يعنيه الخاطفون بذلك. لو كانوا انحطاطيين بما يكفي للتخطيط والتنفيذ لشيء شنيع كهذا ضد أطفال المدرسة الابتدائية، فكان عليّ التصديق بأن تهديداتهم ليست فارغة. لو

لم أفعل ما طلبوه بالظبط، وحدث شيء لابنتيّ وأولئك الأطفال، فسيقع الذنب عليّ.

أحرقت تلك الفكرة شعور الذنب؛ فكل ما كان يهم هو إبقاؤهم بأمان، وإبقاؤهم أحياء.

رن هاتفي مجدداً:

تحديث لأولياء الأمور: تمكنت الشرطة ومكتب التحقيقات الفيدرالي من تحديد موقع الحافلة المفقودة.

قفز قلبي، ثم انخسف وأنا أقرأ بقية التحديث:

لا يزال المحققون يعملون بجد لتحديد موقع الأطفال وسائقة الحافلة في الوقت الحالي. ستُنقل جميع البيانات الرسمية عبر قناة KTRB. يتعذر علينا تقديم معلومات إضافية من أجل حماية الأدلة في هذا التحقيق النشط.

لقد وجدوا الحافلة، لكن ليس الأطفال.

تسلحتُ ضد الشعور بقلة الحيلة الذي يضغط بشدة على رئتيّ لدرجة تجعل التنفس مستحيلاً تقريباً. ومن غرفة النوم في آخر الممر، أصدرت مرتبة أبي صريراً.

لم أفكر قط في فكرة أن الشرطة قد تجد الحافلة دون الأطفال. كيف؟ كيف تمكن الخاطفون من جعل أحد عشر شخصاً يختفون في الهواء؟

تخبطت أقدام أبي في الممر، بطيئة وغير متزنة:

«شين؟ حلمتُ بحلم مزعج للغاية، كان فظيعاً. كان كأنه قضية شنايدر مجدداً، لكن بدلاً من ذاك الصبي الصغير، كانت **سيدج وبوني** هما المفقودتان. أعاني من صداع فظيع، أين التايلينول؟»

صبي عائلة شنايدر. تجمد الدم في عروقي. كان **مايكا شنايدر** قد اختُطف من شاطئ مزدحم في مكال في الرابع من يوليو، قبل تقاعد أبي مباشرة. وبعد بضع ساعات، تلقّت الأم مكالمة من رقم مجهول. وبحلول ذلك الوقت، كانت العائلة قد اتصلت بالشرطة بالفعل. وعندما أدركت أن الخاطف على الهاتف، دفعت بهاتفها في يد الضابط الواقف بجانبها.

أغلق المتصل الخط ولم يعاود الاتصال. تتبعت الشرطة المكالمة إلى هاتف مؤقت، ووجدوا **مايكا شنايدر** ميتاً بعد عشرة أيام.

ضَربتني القصة برعب جديد الآن.

رمش أبي في وجهي:

«شين، هل أنتِ بخير؟ لقد كان يوماً عصيباً، أليس كذلك؟»

أجبرتُ صورة مايكا شنايدر على الخروج من عقلي. ولأقصر لحظة، أخبرتُ نفسي أنني أستطيع التعامل مع هذا؛ فلستُ بحاجة لأخذ أبي إلى **ذاكرة القلوب العزيزة** الليلة. كان يشعر بالإستغراب و التشتت، بالتأكيد، لكن سلوكه كان مستقراً الآن،

وليس مذعوراً. ربما الفوضى التي حدثت مع **شيز** في الشارع كانت مجرد صدمة ما فعله في موقف سيارات المركز الترفيهي هي التي أدخلته في تلك النوبة السيئة.

سحب أبي قدميه عند نهاية الممر، يبدو مجعد الملابس وأحمر العينين من قيلولته مع القطة. ثم عقد حاجبيه:

«هل لا يزال جيكوب في العمل؟ ذاك الرجل بحاجة إلى إعطاء الأولوية لعائلته»، تمتم وحاجباه ينعقدان وهو يتطلع إليّ، ثم أمال رأسه نحو الدرج المؤدي لغرف **سيدج** و**بوني**. خفض صوته: «لا يمكن ترك الفتاتين ترَيانِكِ هكذا يا شين. امسحي تلك الدموع وارفعي رأسكِ، فالزواج ليس أمراً سهلاً».

انخسف قلبي:

«أبي، أحتاج منك الذهاب معي في جولة بالسيارة، حسناً؟ أنا... لقد أفسدتُ العشاء، لذا سنمر على **بيغ جادز**، اتفقنا؟ وبعد ذلك...»

بلعتُ ريقي، غير راغبة في الكذب عليه لكنني لستُ متأكدة من كيفية فعل أي شيء آخر. كان أبي يعشق البرغر في **بيغ جادز**، وكان ذلك كافياً لفتح شهيته حتى عندما يرفض كل شيء آخر.

هز كتفيه لكنه اتجه إلى رف الأحذية لارتداء حذائه الرياضي. مسحتُ عينَي وقمتُ من الأريكة. وعندما ارتدى حذاءه، أمسكتُ بيده:

«هناك حالة طارئة في العمل، وأحتاج منك البقاء في... مكان آخر الليلة، حسناً؟ هل تتذكر المكان الذي تحدثنا عنه؟ **ذاكرة القلوب العزيزة؟** إنه رائع حقاً، سفح التلال جميل هناك، وتحدثتُ للتو مع ديبي وقالت إن بإمكانهم استقبالك الليلة بنوع من..»

نتع أبي يده بعيداً وحدق بي وكأنني أتحدث الفرنسية:

«أي حالة طارئة؟ إذا كنتِ بحاجة للذهاب إلى مكان ما، فأنا بخير هنا بالذات»، قال ذلك غير مصدق. قفزت **كارين** على الطاولة وأصدرت مواءً محزناً، مائلةً نحو ذراع أبي على بعد بضع بوصات. مد يده لملاطفتها: «ستتركين القطة بمفردها في المنزل، وليس أنا؟ أنا قادر تماماً على الاعتناء بنفسي يا شينا رينايي؛ لقد كنتُ ملازماً بحق الله». تطلع عودةً نحو الدرج: «أين الفتاتان على أي حال؟ أين جيكوب؟» ارتفع صوته إلى هدر مزمجر مع كل كلمة، واستطعتُ رؤيته يغضب مجدداً.

ترجيتُه والدموع تنهمر قبل أن أستطيع إيقافها:

«أبي، أرجوك. أنا مطلقة من جيكوب منذ سنوات. والفتاتان مفقودتان، وأنا وصلتُ إلى أقصى حدود صبري. أرجوك يا أبي، اركب السيارة».

خطوتُ عبر المطبخ ومددتُ يدي إلى الخزانة فوق الميكروويف، محذرةً ألا تلامس يدي ملاحظة الفدية مجدداً.

التقّت أصابعي حول أول علبة دواء وجدتها، ودفعتُها نحو أبي ليتمكن من رؤية اسمه على الملصق:

«لا أستطيع تركك بمفردك. أنتَ مصاب بـ ألزهايمر، وأنا خائفة من أن تؤذي نفسك وأنا غائبة! أرجوك، استمع إليّ فقط واركب السيارة!»

خرج الجزء الأخير كصوت صفعة حزام، أكثر حدة وأعلى صوتًا مما كنت أريد.

تنقلت عيناه سريعًا من زجاجة الدواء ثم عادت إليّ. راقبتُ الغيوم وهي تنقشع لوقت كافٍ ليضم شفتيه ويطأطئ رأسه:

«حسناً يا شين»، قالها بـ صوت خافت، وقد انطفأ كل الحماس الذي كان يملؤه في لمح البصر.

أردتُ احتضانه، وإخباره بأنني آسفة، وإخباره عن ملاحظة الفدية وسؤاله عما إذا كنتُ أفعل الشيء الصحيح. بدلاً من ذلك، أسرعتُ عبر الممر إلى غرفته وقبضتُ على منامته وبعض الملابس وأي شيء آخر أستطيع حشره في حقيبة السفر في الخزانة خلال ستين ثانية.

كنتُ أعرف جيداً الآن أنني قد لا أملك سوى بضع دقائق قبل أن تتشابك المسارات التي أصبحت جامحة في عقله ونضطر لممارسة هذا الحديث مجدداً.

كانت **ديبي** قد أخبرتني أنه سيملك كل ما يحتاجه الليلة لو استطعتُ إحضار أدويته وبعض الملابس له فقط، وكان عليّ أخذ كلامها على محمل الصدق.

غصصتُ بالبكاء وأنا أقول:

«أحبك يا أبي. أعدك بأنني سأحضر لك أي شيء آخر تحتاجه قريباً. فقط أعطني يوماً واحداً، اتفقنا؟»

أومأ برأسه ببطء وفرك معصمه:

«أين ساعتي الرولكس؟»

بلعتُ ريقي بصعوبة؛ كانت الساعة المكسورة لا تزال ملقاة في حامل الأكواب في السيارة حيث تركتُها:

«إنها تُصلَح الآن، وسنعيدها خلال يومين. لن يستغرق الأمر طويلاً، أعدك. أحبك يا أبي»، حاولتُ مجدداً، يائسة لسماعها منه بالمثل.

بدلاً من ذلك، ألقى نظرة خاطفة نحو الدرج لـ مرة أخيرة، ثم هز رأسه اتجاهاً نحو المرآب.

24

تيد

«تيدي بير، يا رجل! أعطني بيرة».

قلبتُ عينَي، لكنني كنتُ مسروراً لأن **أندي** قد عاد. وكنتُ مسروراً أيضاً لأن مزاجه بدا أفضل بكثير الآن بعد أن أنهى التوصيلة بالحافلة. ألقيتُ نظرة على هاتفي المؤقت للتحقق من الوقت: 6:42 مساءً. لم تكن توصيلته التالية حتى الساعة 1:00 صباحاً.

أغلق باب جانب السائق بقوة خلفه ومد يده نحوي، ملوحاً بحركة "هاتها".

حذرتُه وأنا أتجه نحو المأوى المتهالك على بعد بضع أقدام:

«حسناً، لكن علبة واحدة فقط. رئيسك سيقتلك لو أعادت الحافلة متأخراً مجدداً».

كنتُ أعلم السرعة التي يمكن لـ **أندي** أن يجرع بها ست علب، وآخر شيء نحتاجه هو أن يحاول رئيسه تتبع الحافلة إذا فقد الوعي أو سَكِرَ لدرجة تمنعه من القيادة.

استنكر **أندي** خلف ظهري قائلاً:

«شكراً يا أمي».

كنتُ متجه نحو الكوخ الخشبي ذي الصفيح المموج وبلا باب الذي بنيناه بأنفسنا، تماماً كما جَهّزنا حاوية الشحن. كان الكوخ يمثل منظراً قبيحاً، لكنه كان يتلاءم تماماً مع القمامة والتراب المتراكم على مد البصر في هذا الجزء من المحجر. كان كلا الجدارين الجانبيين ملتويين، مما جعل الكوخ بأكمله يبدو وكأنه قد ينهار لو ركلتَه. لكنه صمد بشكل جيد، موفراً الظلال ومكاناً للجلوس فوق صندوق التبريد الكهرماني الكبيرة (كولمان) الذي احتفظنا به بالداخل.

كنتُ قد أضفتُ كيساً طازجاً من الثلج فوق البيرة الرخيصة التي اشتريناها من محطة الوقود مساء الأمس، عندما جئتُ لتفقد المخبأ لمرة أخيرة، ولإضافة شطائر زبدة الفول السوداني والمربى. كنتُ أعلم أنه أمر غبي، وكنتُ أعلم أن **أندي** كان سيسخر مني بسبب تلك المراجعة الأخيرة، لكنني أردتُ أن تكون الشطائر طازجة. لم تكن هذه إحدى تلك الحلقات الدرامية حيث يربط مجرم ضحاياه بالسلاسل ويجبرهم على أكل طعام الكلاب أو قاذورات من هذا القبيل. كانت هذه عملية اختطاف حضارية، مجرد صفقة تجارية.

دسستُ أربع علب بيرة في جيب سترتي ذات القلنسوة ثم اتجهتُ عودةً إلى البقعة التي كنتُ أعلم أن **أندي** يجلس فيها بالفعل، بجانب إطارين مثقوبين كنا قد سحبناهما من حافة كومة

النفايات؛ قريبة بما يكفي من فتحة المخبأ لنبقي أعيننا عليها، وبعيدة بما يكفي حتى لا يستطيع الأطفال سماع حديثنا.
كلما قلّ سماعهم لصوتي، كان ذلك أفضل.
كان قد مر عام ونصف منذ أن عملت في «**برايت بيغينينغز**» كسائق حافلة. وذلك قبل أن أجد نفسي في السجن مباشرةً. مكثت هناك لمدة عشرة أيام فقط، مباشرةً بعد أن بلغت الثامنة عشرة من عمري. كانت تلك أول وظيفة لي أشعر فيها بأنها خطوة إلى الأمام مقارنةً بالوظائف التي كنت أشغلها بعد المدرسة في مرحلة المراهقة منذ أن كنت في الرابعة عشرة من عمري، مثل قلي البطاطس المقلية وتجهيز البرغر في مطعم للخدمة من السيارة، أو تفكيك المنصات الخشبية في ساحة الشحن.
كان الأطفال في الحافلة يثيرون الإزعاج كـ الشياطين، لكنني في الواقع أحببتُ الوظيفة، خاصة لأن حبيبتي حينها **كيرستين** كانت إحدى "المستشارات تحت التدريب" في المركز الترفيهي. أخبرتني أنني لو أديتُ عملاً جيداً في مسار الحافلة، فستقول كلمة طيبة في حقي بالمركز الترفيهي. كان بعض الناس يتقاضون أجوراً لمجرد إبقاء كرات السلة مصفوفة في الصالة الرياضية، ومسح المعدات، وإعارة المضارب والكرات للأطفال والبالغين المشتركين.
لكنني لم أؤدِّ عملاً جيداً.

وظيفتي كـ سائق حافلة ولقبي "سيد **إدوارد**"ـــاسمي الأول القانونيـــاستمرا لـ أسبوع ونصف بالظبط، عندما تدحرجت تفاحة تلك الفتاة اللعينة بطول الممر واحتجزت تحت دواسة الفرامل فذعرتُ، وأطلقتُ لساني قليلاً. لكن للإنصاف، ظننتُ أننا سنموت جميعاً. هدأتُ بعد ذلك وقلتُ إنني آسف، رغم أنني لم أكن كذلك؛ بل كان يتوجب على الفتاة الغبية ذات التفاحة الاعتذار لى في الحقيقة.

لم أكن أظن أن الأمر سيكون بتلك الضخامة؛ ربما توبيخ بسيط أو محاضرة من رئيسي في المركز الترفيهي. فالأطفال يسمعون الشتائم طوال الوقت في المدرسة، وأي شخص يظن أن ملائكته الصغار لا ينطقون بكلمة نابيّة أو اثنتين فهو يضع رأسه في رمال أوهامه.

في الصباح التالي، تلقيتُ رسالة نصية تفيد بأنه، مع النفاذ الفوري، لم أعد موظفاً في **برايت بيغينينغز** لانتهاكي سياسة "عدم التسامح" بشأن "سلوك السائق".

ظننتُ أن حبيبتي **كيرستين** ستكون في جانبي، وربما تساعدني للحصول على فرصة ثانية، لكنها قالت إن هناك ثلاثة إنذارات في النظام بشأن "انفجارى اللفظي"، ولا عودة من ذلك. تطلب الأمر بعض الجهد، لكنها سجلت دخولها إلى النظام وأقرأتها لي في النهاية.

كان ثلاثة من أولياء الأمور قد اتصلوا بـ **برايت بيغينينغز** للشكوى من "لغتي غير المهنية والعنيفة". بل إن إحداهن هددت بسحب طفلها من البرنامج لو بقيتُ كسائق حافلة.

تمتمتُ حينها:

«تباً لهذا الخراء».

فمنحتني **كيرستين** نظرة كأنها تقول: *هل أنت جاد؟ كيف تكون بهذا الغباء؟*

انفصلنا في تلك الليلة، لأن تلك كانت النظرة ذاتها التي تمنحني إياها أمي عندما أحرق قاع البيتزا المجمدة، أو أوقظها من قيلولة في منتصف الظهيرة، أو يُخصم من أجري بسبب نقص الأموال في الصندوق، رغم أنني أقسمت أنني لستُ مَن أخذها. لذا اتصلتُ بـ **أندي** وسكرنا، وتحداني أن أركب دراجة «صديقه» النارية.

ومثل أحمق سكران، فعلتُ ذلك.

لاحقاً، بينما كنتُ مستلقياً على سرير المستشفى—قبل ذهابي للسجن مباشرة—لم أستطع منع نفسي من تذكر كيف أنه عندما سجلت **كيرستين** دخولها إلى نظام **برايت بيغينينغز**، بدا اسم المستخدم وكلمة المرور خاصتها مطابقين لتلك التي تستخدمها لكل شيء آخر:

اسم المستخدم: KierstenK | كلمة المرور: K1erst3nK.

لم أكن أحاول أن أكون متطفلاً، لكن بعد طردي وإصابتي وإلقائي في السجن، تخيلت لبرهة أنني أسجل الدخول إلى النظام وأعبث ببعض الأمور المتعلقة بجداول المواعيد أو ما شابه. كانت كيرستن تعمل في مكتب الاستقبال، لذا كان لديها حق الوصول إلى كل جزء تقريبًا من النظام الداخلي لـ«**برايت بيغينينغز**». لم أكن لأفعل ما يكفي لتسبب في طردها أو أي شيء من هذا القبيل. فقط ما يكفي لجعل بضعة أشخاص ينظرون إليها بنفس النظرة التي كانت تنظر بها إليّ:

هل أنتِ جادة؟ كيف تكونين بهذا الغباء؟

بحلول الوقت الذي خرجتُ فيه من السجن، كانت تلك الرغبة التدميرية المحددة قد تلاشت. فلم تكن كل محاضرات "تحمل مسؤولية أفعالك" وجلسات الإرشاد الجماعي قد مرت فوق رأسي دون أثر.

ومع ذلك، ودفعاً للفضول، حاولتُ تسجيل الدخول إلى نظام **برايت بيغينينغز** في الأسبوع الذي أُفرج فيه عني من السجن؛ الأسبوع الذي بلغتُ فيه التاسعة عشرة.

لقد فوجئت بأن بيانات تسجيل الدخول الخاصة بكيرستن كانت صالحة. ربما لم يكن عليّ أن أتفاجأ. لم يمضِ سوى ستة أشهر

على الفترة التي قضيتها فعليًّا في الحبس، لكنها بدت لي وكأنها دهرًا.

وهذا ما كنتُ أفعله ليلاً طوال ذلك الأسبوع الأول الذي عدتُ فيه لـ مقطورة أمي المزدوجة. خلال النهار، حاولتُ البحث عن وظيفة أخرى، وحاولتُ جعلها تأكل، وحاولتُ إعادة ضبط حياتي تحت نوع من السيطرة. وفي الليل، سجلتُ الدخول إلى نظام **برايت بيغينينغز** وقرأتُ الإنذار تلو الإنذار، والمذكرة الداخلية تلو المذكرة.

كان بعضها مملاً، لكن بعضها الآخر جعلني أشعر براحة أكبر بشأن طردي. فقد تلقى الناس إنذارات لأتفه الأشياء؛ حتى **كيرستين** الصغيرة المثالية تلقت تنبيهاً لعدم ردها على الهاتف بالتحية المناسبة لمرات عديدة.

جاء في إحدى المذكرات الموجهة لجميع الموظفين من الإدارة: «لاحظ العديد منكم زيادة في الإنذارات الخاصة بمخالفات السياسات. ليس الغرض من هذا إحراج أي موظف أو الإشارة إليه بعينه. بل يتوجب علينا جميعاً في **برايت بيغينينغز** تحمل المسؤولية عن الصورة التي نعكسها لمجتمعنا. مع اقتراب التصويت على السندات الأسبوع المقبل، يجب أن تكون علاقتنا بمجتمعنا وخدمتنا له فوق مستوى الشبهات. وسيوفر فائض الميزانية—رهناً بتصويت أولياء الأمور والمواطنين في

المنطقة التعليمية—تجديدات وموارد نحتاجها بشدة لبرنامج رعاية ما بعد المدرسة لدينا».

لم أكن أعلم عن فائض الميزانية حتى ذلك الحين. ظننتُه مبلغاً زهيداً، إذ لم تكن **برايت بيغينينغز** مركزاً ترفيهياً كبيراً أو فخماً. كنتُ مخطئاً.

تقريباً سقط فكي على صدري عندما رأيت الرقم—في مذكرة للإدارة العليا:

مليونا دولار. كان هذا هو حجم فائض الميزانية.

همستُ عندما رأيتُ ذاك الرقم وأنا أعد الأصفار مرتين:

«تباً لـ هذا الخراء».

بعد بضعة أسابيع، عندما بدأتُ أتعرق بحق من فكرة عدم الحصول على وظيفة مجدداً الآن بعد أن أصبحتُ مجرماً مسجلاً رسمياً، أرسل لي **أندي** رسالة نصية يسألني عما إذا كنتُ أريد العمل معه في المحجر. كان سيضمنى لدى والده. ولو أديتُ العمل ولم أمانع التعرق في قسم كومة النفايات بالمحجر، فلن يهم أنني صاحب سوابق.

ربما فعل ذلك لشعوره بالذنب لكوني تحملتُ المساءلة عن الدراجة النارية المسروقة، أو ربما كان ممتناً لأنني لم أُشِر إليه قط. في كلتا الحالتين، أخذتُ الوظيفة وتوقفتُ عن قضاء الكثير

من الوقت في التجسس عبر حساب **كيرستين** في **برايت بيغينينغز**.

ولكن، بعد شهر أو نحو ذلك من العمل مع **أندي**، أخبرتُه عن فائض الميزانية.

كان ذلك في الوقت ذاته تقريباً الذي كان يتوجب علينا فيه التخلص من حاوية الشحن المكسورة في **الحفرة**.

عندما أخبرتُه عن فائض الميزانية، اتسعت عينا **أندي** وعقد وجهه بتركيز وكأنني أعطيتُه أمنية مجانية من مصباح جني. تلك النظرة على وجهه وهو يحدق في حاوية الشحن جعلت الشعر على ذراعيّ يقف، وكأن هذه اللحظة ستعني شيئاً ما.

لم أتلقَّ إشارة من الكون قط، بل مجرد إهانات في الأغلب؛ لكن عندما فكرتُ في كل تلك المصادفات، بدا الأمر وكأنه إشارة نوعاً ما.

عندما بدأ **أندي** يطرح المزيد من الأسئلة عن مسار الحافلة، وأين يضع الأطفال هواتفهم، وما إذا كانت هناك كاميرات في الحافلة، تجاوبتُ معه. ولمَ لا؟

وعندما طلب **أندي** رؤية القائمة—وأدركنا أن اثنين من الأطفال المنضمين لـ **برايت بيغينينغز** يتبعان **شينا هالفيرسون**، أمينة صندوق مجلس المدينة—حُسم الأمر. كانت لديها صلاحية الوصول إلى الأموال، واثنان من الأطفال ينتميان إليها. ستكون

الهدف المثالي لملاحظة الفدية، وربما نستطيع إخافتها حتى لا تقحم الشرطة.

كنا سنوجه لـ **برايت بيغينينغز** الصفعة الكبرى—وننفذ عملية الخطف المثالية لقاء فدية أيضاً.

رفع آندي علبة البيرة التي أحضرتها له للتو، فانسكب القليل منها على التراب خارج حافلة المطار:

«في نخبك يا صاحبي. نحن عباقرة ملعونون، أتعلم ذلك؟»

رفعتُ علبتي الباردة في مواجهة علبته واستندتُ على الشاحنة: «أجل يا صاحبي. في نخبك».

أشار **آندي** نحو الفتحة المغطاة في الأرض، على مسافة قصيرة من مكان إيقافه للحافلة. قهقه:

«لا أزال غير مصدق أن بعضهم تبول على نفسه. لم يمكثوا في الشاحنة لتلك الفترة الطويلة حتى. جيد أنك صنعتَ لهم مرحاضاً بالأسفل هناك، على ما أظن».

كانوا خائفين فحسب. كتمتُ الرد على طرف لساني واكتفيتُ بـ الإستنكار، غير راغب في الحديث عن الأطفال بعد الآن.

قلتُ لنفسي محاولاً جعل العضلات في ذراعيّ وساقيّ تسترخي: *إهدأ*. كانت الساعات الثلاث الماضية فوضى منظمة. أما الآن، فكل ما علينا فعله هو الانتظار—وعدم إفساد أي

شيء—حتى يحين وقت لقاء **شينا هالفيرسون** في **ليتل إيدي** لجمع أموال الفدية.

كان لا يزال لدى **أندي** توصيلة المطار في الساعة 1:00 صباحاً، لكن ذلك سيكون أمراً يسيراً لا علاقة له بالاختطاف.

جرعتُ جرعة طويلة من البيرة الخفيفة. كان المحجر هادئاً الآن، صامتاً ولا يزال دافئاً بما يكفي ليجعلك تشعر بالكسل والاسترخاء.

أجبرتُ نفسي على عدم النظر إلى الصفيحة المعدنية المضلعة، على بعد رمية حجر.

أخذتُ أردد العبارة مراراً وتكراراً حتى بدأت البيرة تجعل رأسي مشوشاً قليلاً وبدأت الكلمات ترن كصواب في عقلي:

«إنهم بخير».

25

سيدج

أربع ساعات من الدفن

بقيتُ صامتةً لوقت طويل، منتظرةً حتى تأكدتُ تماماً من أن السيدة **جيسا** قد نامت—وحتى لم أعد أسمع أي خطى تطقطق أو إطارات فوق رأسي. وبحلول ذلك الوقت، كان معظم الأطفال الآخرين قد ناموا أيضاً. تحول تنفس **بوني** السريع ونحيبها إلى أنفاس ثقيلة، وطوت جسدها الدافئ واللزج كـ الكرة ووضعت رأسها في حضني.

حذرةً ألا أتحرك بسرعة كبيرة، نكزتُها، فأصدرت صوتاً خافتاً ونشازاً وجلست.

همستُ في أذنها قبل أن تتمكن من قول أي شيء:

«لو قمنا بتكديس المراتب فوق بعضها البعض، فسنتمكن من الاقتراب كثيراً من أعلى الحفرة».

قلتُ ذلك بـ همس بدا فجأة عالياً في الغرفة المظلمة.

أومأت برأسها في مواجهة أذني، لذا واصلتُ الحديث:

«حينها يمكننا على الأقل المحاولة والاستماع عندما يتحدثون. ربما نستطيع حتى الوصول إلى أعلى الحفرة».

أجبرتُ عقلي على تذكر تفاصيل ما كان عليه نزول السلم؛ لو كانت كل درجة بسُمك عرض المراتب تقريباً...

هست السيدة **جيسا**:

«اششش، **سيدج**!»

قفزتُ في مكاني؛ كانت لا تزال مستيقظة!

«عليكِ التوقف عن..»

هسستُ عودةً إليها وأنا أقف بأطول ما يسمح به جسدي النحيل:

«لا يمكنكِ إجباري على التوقف!»

لم تكن السيدة **جيسا** تستطيع رؤيتي الآن، لكنني تمنيتُ لو تتذكر أنني أطول منها بـ قدم تقريباً—حتى لو كنتُ أضعف بنية. كان بمقدورها المصارعة وإلقائي أرضاً لو حاولت بحق، لكنني كنتُ ذكية بما يكفي لأعرف أن الحيلة والشراسة تهزمان الحجم في أي يوم من أيام الأسبوع.

كانت **كارين**، قطتنا على الأقل ضعف حجم قط الشارع النحيل الذي كان يأتي أحياناً إلى مرآبنا، وكانت تتراجع في كل مرة يقوس فيها ذاك القط ظهره ويتسلل ليأكل طعامها.

انتظرتُ أن تحتج السيدة جيسا، أو أن تمسك بذراعي، أو أن تقول لي إنني أتصرف بتهور وأعرض الجميع للخطر، تمامًا كما فعلت من قبل. لكن، لدهشتي، لم تقل أي شيء آخر.

كان تنفسها، الذي لم يعد هادئاً ومنتظماً، يبدو وكأنها ركضت للتو صاعدة الدرج.

كنتُ أتنفس بجهد أيضاً؛ أخبرتُ نفسي أن ذلك فقط لأنني خائفة، لكنني كنتُ قلقة أيضاً من عدم وجود أكسجين كافٍ في الغرفة المظلمة الكريهة الرائحة.

كنتُ أعلم مما قاله **جيبيرز** أن هناك خرطوم هواء في أعلى المخبأ في مكان ما يجلب أكسجيناً جديداً، لكن ما كمية الهواء التي يمكن لـ خرطوم صغير أن يجلبها إلى هنا بحق؟ هل هي كافية لمواكبة أحد عشر شخصاً يتنفسون شهيقاً وزفيراً طوال هذا الوقت؟ دفعْتُ تلك الفكرة المخيفة بعيداً وأغلقتُ عليها بـ إحكام، مخبرةً نفسي أنه لا مجال لأن نختنق بحق؛ فالرجال لن يسمحوا بحدوث ذلك. بعد كل شيء، لن يحصلوا على أي أموال فدية مقابلنا لو كنا موتى، أليس كذلك؟ لكن الهواء كان يبدو ثقيلاً وحامضاً، وكل نفس كان يبدو أصعب قليلاً لسحبه إلى رئتيّ.

همستُ، غير متحدثة إلى السيدة **جيسا** بعد الآن، بل إلى **إيفلين** و**ميندي** و**بن** الذين كانوا يستيقظون:

«يظن البالغون أن على الأطفال دائماً فعل ما يقولونه؛ لأنهم يعتقدون أنهم الأذكياء ونحن مجرد مجموعة أطفال أغبياء... صغار».

ترددت همهمة بلا كلمات عبر الظلام. ولم تقل السيدة **جيسا** أي شيء رداً على ذلك.

غير أن تنفسها أصبح أهدأ قليلاً؛ ليس هادئاً بمعنى الاطمئنان، بل خافتاً فحسب.

استطعتُ الشعور بكرهها لما أفعله، لكنها لم تحاول إسكاتي مجدداً أو إخباري بالجلوس مرة اخري.

ربما كانت لا تزال مصدومة من رفضي القاطع للاستماع إليها، أو ربما استطاعت سماع المخالب في صوتي والتي تقول إنني لن أجلس وأصمت ما لم تصارعني بحق وتثبت ذراعيّ وساقيّ—وحتى حينها، سأصرخ وأعضها كما يفعل قط الشارع.

أو ربما كانت خائفة فقط مما سيحدث لو سمع الرجال الجلبة بالأسفل هنا. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي سيأتي الرجال للتحقيق فيه: الجلبة.

في كلتا الحالتين، واصلتُ الحديث، شاعرةً بـ أن المزيد من الأطفال الذين ناموا على المراتب المتسخة كانوا يرهفون آذانهم للاستماع:

«كلا الرجلين لا يزالان هناك في الأعلى الآن—لكن ليس بالقرب من الحفرة. لو استطعنا الاقتراب قليلاً من السطح، فربما نستطيع سماع ما يقولانه لبعضهما البعض. بالإضافة إلى أنه سيكون من الأسهل سماع متى يركبون الشاحنات ويقودون مبتعدين. حينها يمكننا محاولة إيجاد طريقة للخروج من هنا».

تلعثمتُ بجرعة أخرى من الهواء:

«نحن بحاجة لمعرفة ما سيَفعلانه تالياً، وما إذا كانا... ما إذا كانا يصدقان القول بشأن عدم إيذائنا».

أصدر أحدهم نحيباً ضئيلاً شعرتُ به في عمق معدتي؛ لأنه ماذا لو اكتشفنا أنهما يخططان لإيذائنا، ما الذي يمكننا فعله حيال ذلك بالأسفل هنا؟

انطلق صوت **روز** من الظلام على بعد بضع أقدام، خائفاً وضئيلاً لكنه ممتلئ بالحرص أيضاً:

«كيف تعرفين ما يحدث هناك في الأعلى؟»

سألت ليس بـ طريقة خبيثة، بل وكأنها تريد المعرفة بحق.

دق قلبي وقشعر جلدي؛ لم أكن الوحيدة التي لا تطيق مجرد الجلوس هنا دون فعل شيء.

قلتُ:

«كنتُ أستمع بحرص شديد للأدلة».

لم يكن من السهل سماع ما يجري في أسفل المخبأ؛ كان السقف بارتفاع ثماني أقدام على الأقل، وكان عليك الانتباه بحق للأصوات القادمة من خلف الحفرة والمدخنة الخشبية، وحتى حينها، كان من الصعب سماع الكثير.

تحدث **كيد**:

«لو كانت سيدج لا تستطيع سماعهم جيداً، فهذا يعني أنهم لا يستطيعون سماعنا جيداً أيضاً! لسنا بحاجة لأن نكون بهذا الهدوء».

أسرعتُ قائلةً:

«أجل، بالظبط! لن يغضبوا منا لتكديس المراتب لأنهم لن يعلموا أننا فعلنا ذلك، ويمكننا إسقاطها لو سمعناهم يفتحون الحفرة».

أعاد عقلي شريط كل المعلومات التي جمعتُها حتى الآن، محاولةً تذكر ما إذا كنتُ قد قلتُ كل ما أردتُ، منتظرةً أن تبدأ السيدة **جيسا** بالصياح في أي لحظة.

لكنها لم تفعل.

لذا واصلتُ الحديث.

سألت **بوني** وهي تجلس:

«هل هما فوقنا مباشرة؟»

قلتُ متمنيةً أن أكون على حق:

«كلا».

في الدقائق القصيرة بين الخروج من الشاحنة الرمادية والإجبار على النزول في الأرض المظلمة، رأيتُ أن هذه الحفرة في الأرض كانت على حافة كومة نفايات ضخمة. لم تكن قريبة بحق من أي شيء آخر باستثناء كل تلك القمامة والتراب. لذا ما لم يكن الخاطفون يخططون للنوم في التراب مباشرة، على قطع الصخور والحديد المكسورة، فلم يكونوا فوقنا مباشرة.

«أنا شبه متأكدة من أن الرجلين عند الشاحنات».

سألت السيدة **جيسا**، بـ همسها البالغ الأعمق والأعلى صوتاً من أي شخص آخر:

«وأين الشاحنات؟»

رمشتُ بدهشة والتفتُّ نحو صوتها:

«إنها على الطريق الترابي الممتد بـ الحصى؛ ليست بتلك البعد، لكنها بعيدة بما يكفي. البقعة ذاتها التي أنزلونا فيها لأول مرة».

ضغطت متسائلة وكأنه اختبار:

«وكيف تعرفين ذلك؟»

«لأن هناك أشياء حادة في كل مكان على التراب هنا خارجاً».

تذكرتُ إحساس حذائي الرياضي وهو ينزلق فوق الحصى السائب، وشظايا البلاستيك، وقطع القمامة الكبيرة.

وأضفتُ مُقحمةً سبه كما سمعتُ جدي يفعل عندما ينسى وجودي أنا و**بوني** في الغرفة:

«أشياء قد تثقب إطار شاحنة لعينة».

جعل التلفظ بـالسباب أمام شخص بالغ وجهي يتوهج حرارة، لكنني لم أرد التراجع عنها أيضاً.

سألت السيدة **جيسا**:

«وتعتقدين أن كلا الرجلين هناك في الأعلى الآن؟»

فقط هذه المرة، لم يكن الصوت يبدو وكأنها تأمل في أن أقدم إجابة خاطئة، بل بدا وكأنها قد تريد معرفة الإجابة بحق.

قلتُ:

«أجل، أنا متأكدة».

بعد أن سمعتُ صوت الإطارات المقتربة وهي تطقطق على الحصى فوقنا، كان هناك صوت إغلاق باب السيارة بقوة، ثم طقمين خافتين من الخطوات تطقطق حول المكان لـ بضع دقائق، ثم هدوء في الأغلب. آخر شيء سمعتُه كان الصوت الخافت لـ ضحكة **صاحب الشعر الزيتي** من اتجاه الطريق الترابي.

كان صوت ضحكته حاداً وخافتاً في الوقت ذاته، وجعلني أفكر في الصوت القبيح والأجش الذي تصدره سيقان الذرة المجففة في الريح في مهرجان الهالوين الذي يُدعى *(الأجمة)* والذي

أخذتنا أمي إليه في **ديكلو** العام الماضي وكان مخيفاً للغاية بالنسبة لـ **بوني**.

لم أسمع أي إطارات تطقطق مجدداً منذ ذلك الحين، وكنتُ أستمع بأقصى ما أستطيع.

بينما كنتُ أتحدث، كنتُ أزداد يقيناً بـ فكرة جديدة تطرق عقلي: *سيرحل الرجلان ويتركوننا بمفردنا في لحظة ما*.

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي يبدو منطقيًّا؛ فقد بذلا جهداً كبيراً لوضعنا في هذه الحفرة، وبدا أنهما مسروران جداً من أنفسهما لأنهما صنعا فخاً جيداً هكذا. لم يكونا قلقين بشأن هروبنا على الإطلاق.

تركا لنا الكثير من الطعام والماء وحتى مرحاضاً، مما يعني أنهما لا يخططان للتحقق بالأسفل هنا في أي وقت قريب.

أخبرانا بالصمت مراراً وتكراراً، ورابطا أيدينا بينما كنا محبوسين في تلك الشاحنة. لكن عندما أرسلانا إلى هنا، داخل الأرض، اكتفيا بـ الابتسام كما يفعل معلمي السيد **هيلر** عندما يضبطك متلبساً بتحايل لإلقاء نظرة خاطفة على هاتفك أثناء الفصل: *لقد أمسكت بك. الآن أنتَ ملكي*.

هذان الرجلان لم يرغبا في الجلوس هنا طوال اليوم وطوال الليل؛ بل أرادا فقط تركنا بالأسفل هنا. ربما يقودان مبتعدين في لحظة ما، ولو لـ فترة قصيرة؛ للأكل أو النوم أو رؤية عائلتيهما.

وعندما يرحلان، سأكون مستعدة، ولن أجلس بالأسفل هنا كـ الغبية.

قطع **كروسبي نيفيل** أفكاري بـ صوت متذمر، يبدو تماماً كما يفعل في كل مرة يركب فيها الحافلة ويرى شخصاً يجلس في مقعده المعتاد:

«لكن هناك أربع مراتب فقط».

قلتُ محددةً أن صوتي لا يعلو كثيراً—فما بدأ كـ همس خائف كان يزداد قوة:

«يمكننا طيها إلى النصف وجعلها بـ ضعف السُمك».

أصدر **كروسبي** صوت «ممم همم» راضٍ.

وأضافت **روز**، متحدثةً بـ صوت شبه متحمس:

«أوه، أجل، فكرة جيدة يا **سيدج**!»

سألتُ غير موجهة الكلام لشخص محدد:

«هل يمكنكم جميعاً مساعدتي في تحريك المراتب؟»

كانت هناك أصوات تخبط بينما وقف الأطفال الآخرون، وبدأوا بـ دفع المراتب، يهمسون إليّ:

«أجل، إلى أين؟»

«لقد طوينا واحدة منها يا **سيدج**!»

بقيت السيدة **جيسا** صامتةً وظلت في مكانها؛ لم تساعد، لكنها لم تحاول إيقافنا أيضاً.

26

شينا

كان البيت المظلم صامتاً بشدة، صمتاً يُمزّق الأحشاء.

ولأول مرة منذ أكثر من عقد من الزمان، كنتُ بمفردي... بمفردي كلياً وتاماً.

لم أحتمل النظر إلى غرفتي الفتاتين، ولا إلى غرفة أبي. ولا حتى المطبخ، حيث تركتُ الملاحظة وصندوق البيتزا. لذا أغلقتُ على نفسي باب غرفتي مع حاسوبي المحمول، وعيناي مُسمّرتان على الشاشة المضيئة بينما تتسرب الدقائق والساعات، أقرأ كل ما يمكنني العثور عليه على الإنترنت عن الأطفال المفقودين، وأحفظ المعلومات، وأتصفح مناقشات موقع «ريديت» بدقة.

بحلول الوقت الذي نظرتُ فيه إلى الساعة، كانت الشاشة تشير إلى 12:30 صباحاً.

ما كنتُ بحاجة ماسّة إليه بحق هو النوم. لكن النوم كان مستحيلاً؛ فعقلي يغلي بكل شيء فظيع حدث—وما قد يحدث. وما كنتُ بحاجة إليه أكثر من النوم هو أن تعود فتايّ إلى المنزل بسلام. لكنهما اختفيتا، وبعيدتان كل البعد عن الأمان.

كان حلقي يؤلمني لدرجة أنني بالكاد كنت أستطيع البلع، وكان رأسي ممتلئاً بالدموع والرعب لدرجة أنني تخيلتُ فيضانات سامة تغرقني ببطء من الداخل إلى الخارج.

واصلتُ تصفح الصور التي نُشرت على قناة KTRB وقراءة المقالات لمرة أخيرة، رغم أن الكلمات والصور كانت محفورة في عقلي.

كانت هناك ثلاثة مقالات رئيسية على الموقع. العنوان الأول يقول: «**اختطاف: عشرة طلاب من مدرسة نورث ريدج الابتدائية وسائقة الحافلة، مفقودون**».

وكانوا قد أرفقوا صورة تعرفتُ عليها مباشرةً أسفل النص: **سيدج، وبوني،** وثلاثة أطفال آخرين يلعبون كرة القدم الطاولة (الفيوزبول) في غرفة الأنشطة بـ **برايت بيغينينغز**. كنتُ قد رأيتُها في النشرة الإخبارية الشهرية منذ بضعة أيام فقط. لم أستطع تحمُّل النظر إلى ابتساماتهم. كانت **سيدج** الطويلة تواجه الكاميرا وتبتسم بـ فمها دون عينَيها، وتقف أطول من باقي الأطفال بـ قدم تقريباً، وشعرها الأسود المجعد مربوط في ذيل حصان صارعْتُ لإعادة ضبطه صباح ذلك اليوم. بينما لم تكن **بوني** تنظر إلى الكاميرا؛ بل كانت تنظر إلى **سيدج**، وتدلت تجعيدات شعرها السوداء فوق أحد حاجبيها بحيث يمكنك رؤية نظرة التعلق والعبادة على وجهها.

المقال أسفل الصورة كان شحيحاً، يكرر معلومات كنتُ أعرفها بالفعل من الشرطة. كلمات حذرة وغير تحريضية لا تقول الكثير على الإطلاق: *الشرطة ومكتب التحقيقات الفيدرالي يعملان مع برايت بيغينينغز ونورث ريدج. ترك الآباء المذعورين سياراتهم متوقفة في حركة المرور ليتدفقوا إلى موقف سيارات المركز الترفيهي بحثاً عن إجابات. الأطفال، الذين تتراوح أعمارهم بين سبع إلى اثنتي عشرة سنة...*

أما قسم التعليقات، فكان أي شيء إلا أن يكون شحيحاً؛ فقد تضخم واشتعل كـ حريق في سلة قمامة، متراوحاً بين تعاطف شديد الحرارة يمزقني، وإيموجيات ساخرة وضحكات (LOL) اصابتنى باليأس من الداخل:

«لا أستطيع تخيل ما تمر به أولئك الأمهات المسكينات. احتضنوا أطفالكم بقوة يا رفاق. دعواتنا».

«هل تتحدثون بجدية؟ حافلة ملعونة تختفي؟ أخبار زائفة؟ الشرطة هنا أغبياء حقاً».

«لابد أن هناك الكثير مما لا يقولونه لنا. لابد من وجود ملاحظة فدية. لن يأخذوا مجموعة أطفال لمجرد التسلية والضحك. أرجو ألا يفسدوا الأمر كما فعلوا في ذاك الفيلم».

عندما قرأتُ هذا التعليق الأخير، اضطررتُ للركض إلى الحمام والتقيؤ.

كانت هناك ملاحظة فدية. وكنتُ أعلم بالفعل أنني سأفسد الأمر. كنتُ بمفردي، متجاوزة نقطة انهياري بكثير، ولو حدث خطأ ما فسيقع الذنب كله عليّ. لكن لو خالفتُ تعليمات الخاطفين الصريحة—وحدث خطأ ما—فسيكون الذنب عليّ أيضاً.

ترددت كلمات أبي المكررة غالباً بـ أعلى صوت من أي وقت مضى: *«ثقي بحدسك»*. لو كان هنا—وكان في وعيه—لكان يذكرني بـ **ميندي فالكريست** وكل القضايا الأخرى التي ساءت فيها الأمور بعد اتباع «البروتوكول».

غرستُ أظافري في راحتيّ يدي؛ كان حدسي يصرخ بأن الأشخاص الذين كتبوا ملاحظة الفدية يقصدون كل كلمة قالوها.

أغلقتُ المقال الأول وفتحتُ الثاني. هذا العنوان، الذي نُشر على KTRB بعد ثلاثين دقيقة من الأول، يقال فيه: **«تحديث: تحديد موقع هواتف طلاب نورث ريدج المفقودين»**.

لم تكن هناك صورة هذه المرة. واصل المقال الشرح بأن الشرطة حددت موقع هواتف الطلاب وسائقة الحافلة على جانب الطريق السريع 55، بعيداً عن الأنظار أسفل منحدر متآكل.

على الأرجح، قام الخاطفون بإلقاء الهواتف هناك فور عملية الاختطاف. وكانت الشرطة ومكتب التحقيقات الفيدرالي يحتفظون بالهواتف للبحث عن أي أدلة. لكن، كما تكهن المقال،

كان من الواضح جداً أن الخاطفين مدركون تماماً لإمكانية استخدام الهواتف لتتبع موقعهم، ولن يسمحوا بحدوث ذلك.

المقال الثالث كان هو المقال الذي جعل معدتي تنقبض بأشد صورة.

العنوان يقول: «**تحديث: العثور على حافلة مدرسة نورث ريدج الابتدائية، والطلاب المخطوفون لا يزالون مفقودين**».

من الطابع الزمني على هذا المقال الأخير، حددت الشرطة موقع الحافلة في الوقت ذاته تقريباً الذي كنتُ أفتح فيه ملاحظة الفدية المرفقة بصندوق البيتزا.

لم أستطع التوقف عن التحديق في الصورة—لمحة بعيدة للحافلة نفسها، جائمة بين أشجار ما بدا أنه بستان كرز. عكسَت الأشعة الأخيرة لضوء الشمس طلاءها الأبيض وتحولت الظلال القادمة من أشجار الكرز الملتوية إلى أذرع طويلة ومظلمة تمتلك جانبيها، وكأن الحافلة نفسها كانت محتجزة رغماً عنها.

كان عدد الأسئلة غير المجاب عنها التي تدور في عقلي يتزايد: *لماذا كانت الحافلة في بستان الكرز؟* لم يكن الممر الترابي الضيق الذي يؤدي إلى عمق البستان مدرجاً في مسار الحافلة. *لماذا انعطفت السائقة إلى ذاك الاتجاه في المقام الأول؟ كيف*

أجبر الخاطفون الحافلة على الذهاب إلى هناك؟ لماذا لم يتمكن أي من الأطفال من الوصول إلى هواتفهم لطلب المساعدة؟

أظهر هذا المقال الأخير صورة لـ نظام رفوف الهواتف في مقدمة الحافلة. عرفتُه من كتيب **برايت بيغينينغز** الذي رأيتُه عندما سجلتُ **بوني وسيدج** في برنامج الرعاية.

قيل في الكتيب: *«سلامة الطلاب والسائق هي أولويتنا! يتم تخزين الهواتف وتكون غير متاحة على الإطلاق أثناء النقل»*.

غرزت السخرية مخالبها في صدري.

أغلقتُ متصفح الويب فقط لأفتح تطبيق الخرائط وأتتبع المسار الذي سأحتاج إلى اتباعه في الصباح:

خمسة بنوك، خمس مقاطعات مختلفة في **تريجر فالي**، خمس عمليات سحب بقيمة 10,000 دولار لكل منها.

حوالي ثلاث ساعات من وقت القيادة، إذا كانت حركة المرور جيدة. بالإضافة إلى وقت الانتظار في طابور كل صالة بنك، وملء الاستمارات المناسبة، والتحدث مع الصرافين وكأنني لا أقاتل من أجل حياتي. لو وصلتُ إلى البنك الأول لحظة افتتاحه في الساعة 9:00 صباحاً، فسينتهي بي المطاف من جمع الأموال في حوالي الساعة 3:45 مساءً.

رمشت بعيني لأزيل الضباب الذي كان يحول ضوء الهاتف إلى هالة متراقصة في الغرفة المظلمة.

من وضع هذه الخطة كان قد بحث بوضوح في حدود السحب — لكن ليس بالقدر الكافي. بشكل عام، كان صحيحًا أن مبلغ 10,000 دولار هو الحد الذي من شأنه تنبيه الحكومة الفيدرالية، وأنه من الناحية الفنية يمكن سحب هذا المبلغ من عدة بنوك دون إثارة شكوك السلطات الفيدرالية. خاصةً إذا جاءت عمليات السحب من مقاطعات مختلفة. ومع ذلك، كنت أعلم من تجربتي السابقة أن عمليات السحب المتعددة لأرقام زوجية ستثير الشكوك بشكل أسرع. وكانت محاولة سحب مبلغ 50,000 دولار بالضبط مخاطرة كبيرة للغاية.

سأحتاج إلى تقديم مستندات تثبت نفقات المدينة لكل عملية سحب — وهو ما سأتمكن من القيام به، بالنظر إلى فائض أموال السندات والنفقات المرتقبة المتعلقة بأسطول الحافلات الجديد.

لكن ليس 50,000 دولار في يوم واحد.

يمكنني ربما توسيع الأمر إلى 40,000 دولار لو كنتُ جريئة حقاً، لكن حتى ذلك كان بمثابة استدعاء للمتاعب عندما فكرت في الأمر بجدية.

ولو لفتُّ الانتباه إلى نفسي بـ سحوبات طائشة فسيعني ذلك دخولًا سريعًا في دائرة التدقيق من قبل الحكومة —والشرطة.

وعلى الأرجح مكتب التحقيقات الفيدرالي، كونهم مشاركين بالفعل في القضية.

لو بدأت الشرطة في تدقيق سلوكي، وكان الخاطفون يراقبون كما قالوا إنهم سيفعلون، فسينتبهون سريعاً إلى أنني أفسدتُ هذا الأمر بأكمله.

لذا لم يكن بإمكاني إفساد هذا.

كان عليّ افتراض أن كاتبي ملاحظة الفدية سيكونون أكثر غضباً لو جذبتُ انتباه الشرطة مقارنةً بـ سحب مبلغ أقل قليلاً مما طلبوه نقداً.

«اتبعي هذه التعليمات حرفياً».

تأرجحت معدتي مجدداً وابتلعتُ العصارة المرة.

بشكل أساسي، سيكونون غاضبين بغض النظر عما أفعله.

«ستفسدين هذا الأمر، بطريقة أو بأخرى»، هكذا صرخ عقلي.

تخللني اليأس والخوف، مما جعل معدتي تتألب مراراً وتكراراً.

جلستُ وشغلتُ المصباح الموضوع على الطاولة الجانبية، معترفةً أخيراً بأن النوم لن يحدث الليلة. ثم سحبتُ تطبيق الخرائط مرة أخرى، أحسب وقت القيادة إلى مخيم **ليتل إيدي** هذه المرة: ساعتان وخمس عشرة دقيقة من آخر بنك سأزوره على أطراف **ميلبا**.

بمجرد أن أضع النقود في **ليتل إيدي**، ستكون هناك ساعة قيادة أخرى عودةً إلى المنزل لتحويل المليونين بـ البيتكوين. كان هذا الجزء أسهل في الواقع مقارنة بسحوبات البنك؛ فكل ما احتجتُ لفعله هو إنشاء حساب على Coinbase، وقد أخذ مني ذلك خمس عشرة دقيقة. ومع ذلك، سيرفع ذلك أكبر الرايات الحمراء في الثانية التي يدرك فيها أي شخص من المدينة ما فعلتُه. ولا شك أن الخاطفين توقعوا هذا، محتفظين به لخطوتي الأخيرة.

كان ذهني يدور، أحسب وأعيد الحساب مرارًا؛ لم تكن هناك سوى ساعة واحدة فقط من المرونة في الخطة. أضف إلى ذلك استراحتين قصيرتين للحمام، وقليلاً من زحمة المرور، وتحويلة على الطريق، وستتضاءل تلك المهلة إلى لا شيء.

جعلت وخزات العرق منامتي لزجة تحت إبطَي.

كنتُ أعلم أنهم جعلوا الجدول الزمني ضيقاً بـ قصد؛ حتى لا أغرى بالانحراف—أو إدخال السلطات.

بعينين مغشيتين بـ الإرهاق وفم جاف، فتحتُ تبويباً آخر على هاتفي وكتبتُ: *« اختطاف مقابل فدية وتدخل الشرطة »*.

ربما كنتُ أفرط في التركيز على القصص التي أخبرني بها أبي عن وقته كـ ملازم. كنتُ بحاجة لمعرفة ما هو موجود أيضاً—

وما إذا كنتُ أرتكب أكبر خطأ في حياتي بالمضي قدماً مع ملاحظة الفدية.

كانت العناوين الرئيسية أسوأ مما توقعت. قمت بالتصفح دون أن أرمش بعيني، عبر سلسلة من الفظائع:

خاطف يعدم رهينة بعد تجاهل الشرطة لمطلب «لا للشرطة».

عملية إنقاذ فاشلة: العثور على الضحية ميتًا بعد تدخل الشرطة خلافًا لتعليمات رسالة الفدية.

مداهمة الشرطة تنتهي بمأساة بعد أن نفذ الخاطف تهديداته.

الأسرة مفجوعة بعد أن أدى تدخل الشرطة إلى وفاة الرهينة بشكل مروّع.

مقتل ضحايا الاختطاف بعد أن أخطأت الشرطة في تفسير مطالب الفدية.

لم أستطع إجبار نفسي حتى على فتح هذه المقالات؛ كانت العناوين بالفعل أكثر مما أتحمل.

ألقيتُ نظرة على الوقت في هاتفي مرة أخرى—تجاوزت 1:30 صباحاً—قبل أن أجبر نفسي على إطفاء الشاشة. لم يكن هذا يساعد، ولا حتى قليلاً.

أغلقتُ عينَي وتخيلتُ **بوني وسيدج**: *هل هما معاً الآن؟ هل لا تزالان في أيداهو؟ هل تنامان؟*

رفضت أن أتخيل أي شيء آخر. لذا تصورتهما متلاصقين كصغار البط، يتنفسان بهدوء وعمق، ورموشهما الطويلة بشكل لا يُصدق ترفرف بينما هما في عالم الأحلام.

قلت لنفسي إن تلك الصورة حقيقية، مرارًا وتكرارًا في الظلام حتى فقدت الكلمات كل معنى. لأن ذهني كان يشعر بالفعل وكأنه حصان على وشك الاندفاع. ولم أكن متأكدة من أنني سأتمكن من الصمود إذا انطلق حقًّا بتهور نحو كل الاحتمالات المظلمة.

27

سيدج

ست ساعات وثلاثون دقيقة من الدفن

انتفضتُ مستيقظةً عندما سمعتُ صوت إغلاق باب سيارة بقوة.

هسستُ تلقائياً:

«اششش!»

وتفتحت عينَاي بذعر قبل أن أدرك ما كنتُ أقوله أو سبب قولي له.

في بداية الأمر، ظننتُ أننا في الصباح، رغم أن الظلام جعل كل شيء يبدو وكأنه منتصف الليل بالأسفل هنا. لكن بعد ثانية، أدركتُ في أعماقي أنه لا يزال منتصف الليل. كان جسدي يبدو ثقيلاً وبطيئاً ولزجاً. أردتُ إغلاق عينَي، لكن قلبي كان يدق بـ شكل أسرع من أي وقت مضى.

لم يستغرق الأمر سوى ثانية لأتذكر سبب الرائحة الكريهة لكل شيء، وسبب اهتزاز الأرض تحتي، وسبب عدم قدرتي على رؤية حتى بقعة ضوء ضئيلة أمام عينَي:

كنا لا نزال بالأسفل في الحفرة. وكنتُ مستلقيةً فوق كومة المراتب. هناك حيث غفوتُ، وارتخي جسدي أخيراً على

المرتبة المتسخة كريهة الرائحة في أعلى الكومة، رغم أنني ظننتُ أنه لا مجال لنومي حيث كان فخداي من الداخل—حيث تبولتُ على نفسي سابقاً—لا تزالان تحكان وتحترقان. لكن في ثانية كنتُ مستيقظة وأستمع بأقصى ما أستطيع للهدوء خارج المخبأ، وفي الثانية التالية كنتُ أستغرق في النوم، مستمعةً إلى الأطفال الآخرين بينما يعود تنفسهم إلى العمق مجدداً.

انغلق باب سيارة آخر بقوة، تلتْه خطى بطيئة. خفق قلبي أسرع؛ كان هناك شيء يحدث.

استندتُ على يدَي وركبتَي، ممتدة بأذنيّ للاستماع.

في البداية، لم أستطع سماع الكثير مقارنةً بـ ما قبل تكديس المراتب؛ مجرد تخبط وكلمات مكتومة كدتُ لا أتبينها.

هبطت معدتي؛ ظننتُ في البداية أن خطتي بـ تكديس المراتب لسماع الرجلين أفضل لم تنجح. لكن اتضح أن ذلك كان فقط لأن الرجلين كانا هادئين لـ فترة طويلة جداً؛ ربما كانا نائمين ويحاولان إيقاظ نفسيهما أيضاً.

رفعتُ نفسي أعلى قليلاً على كومة المراتب غير المستقرة، متمطيةً على ركبتَي وكأنني أقوم بـ حركة يوغا رأيتُ أمي تفعلها في صباحات السبت.

كنتُ لا أزال خائفة جداً من محاولة الوقوف على المراتب المليئة بـ البروزات والزنبركات، لذا كان من المستحيل معرفة كم أصبحتُ قريبة بحق من أعلى المخبأ.

لكنني كنتُ قريبة بما فيه الكفاية.

كان **جيبيرز** يقول، وصوته عالٍ بما يكفي لأسمع الكلمات:

«لا تسرع، ولا حتى قليلاً».

رد عليه **صاحب الشعر الزيتي** بـ شيء لم أستطع تبينه.

سأل **جيبيرز** مجدداً وصوته يبدو ثقيلاً ومجهداً، كـ صوت جدي عندما يستيقظ للتو:

«هل يجب أن نتحقق منهم؟»

تجمدتُ واستمعتُ بأقصى ما أستطيع. «*منهم*» تعنينا نحن؛ كانا يتحدثان عن التحقق منا. ضرب قلبي بقوة أشد؛ هل أردتُ حقاً أن يتحققا منا؟ جزء مني كان يموت من أجل هواء نقي، وأن تفتح تلك الحفرة حتى لو كان الليل مظلماً في الخارج أيضاً. لم يكن الهواء ثقيلاً ومكتوماً في أعلى كومة المراتب بنفس القدر، لكنه كان لا يزال عطناً وكريه الرائحة ويشبه التراب.

لكن جزءاً أكبر مني أراد من الرجلين الابتعاد عنا وعن المخبأ. فقد استغرق الأمر منا وقتاً لضبط كومة المراتب بالظبط حتى لا تميل عندما أتسلقها. كان **بن** و**كيد** قد رفعا قدمي. ولم تساعد السيدة **جيسا** على الإطلاق. في إحدى اللحظات، كانت قدمي

على رأس **بن**، واستطعتُ التمييز أنه كان يحاول ألا يبكي لكنه لم يصدر صوتاً تقريباً؛ وقررتُ أنني سأحبه للأبد بسبب ذلك.

توسلتُ في نفسي: *«لا تفتَح الحفرة»*، مقررةً أنني أُفضّل تنفس الهواء الكريه والعطن على محاولة العودة لـ أعلى هذه الكومة المتأرجحة مجدداً. لو فتح الرجلان الحفرة، فسيتوجب علينا إسقاط الكومة بأكملها بسرعة والبدء من جديد.

تنفستُ بـ صعوبة أشد عندما فكرتُ في محاولة النزول من جانب برج المراتب المتمايل بمفردي في عجلة، وربما السقوط فوق **بوني** أو الأطفال الآخرين. ربما لم أكن مرتفعة إلى ذلك الحد—فالظلام يجعل كل شيء يبدو أكثر حدة—لكن الارتفاع الذي يضطرني لوضع قدمي فوق رأس **بن أويتلوك** كان مرتفعاً بما فيه الكفاية. ماذا لو سقطتُ بشكل خاطئ وآذيتُ نفسي أو شخصاً آخر؟

ارتفع صوت **صاحب الشعر الزيتي** الحاد والمتذمر بما يكفي لأسمع كل كلمة:

«لن أساعدك في تحريك تلك القطعة المعدنية الثقيلة الملعونة مجدداً حتى نضطر لذلك... أو... أبداً. يمكننا فقط تركهم بالأسفل هناك، أتعلم... ندفع المزيد من التراب والقمامة فوقهم... سيكون الأمر أسهل بكثير. نأخذ المال و...»

وتلاشى صوته بعيداً عن مرمى السمع.

دارت معدتي في حلقات. أغلقتُ عينَي وركزتُ وكأن حياتي تعتمد على ذلك؛ لأنه ربما كانت كذلك بحق.

أصدر **جيبيرز** صوتاً غريباً:

«تباً لهذا الخراء! اذهب فقط وقم بـ توصيلتك».

لكنه لم يختلف مع **صاحب الشعر الزيتي**.

طقطقت الخطوات ألقرب إلى الحفرة، وكان هناك صوت كشط فوق رأسي مباشرة.

سطحتُ جسدي على المرتبة، مستعدة للقفز أسفلاً لو بدأت لوحة الصفيح تلك بـ الكشط عبر الأرض.

بدلاً من ذلك، تحدث **صاحب الشعر الزيتي** مجدداً، وصوته أقرب لكنه لا يزال خافتاً:

«كم من الوقت يمكنهم الاستمرار في التنفس بالأسفل هناك لو غطيتُ ذاك الخرطوم؟»

وقف الشعر على رقبتي من الخلف. كدتُ لا أسمع ما كان يقوله، وأنا مشدودة الأذنين في أعلى كومة المراتب. تمنيتُ ألا يكون الأطفال الآخرون قد سمعوه على الإطلاق.

أصدر **جيبيرز** صوتاً بلا كلمات مجدداً؛ لابد وأنه أجاب، لأن خطى **صاحب الشعر الزيتي** طقطقت مبتعدة.

«يمكننا فقط تركهم بالأسفل هناك، أتعلم»، هذا ما قاله **صاحب الشعر الزيتي**.

دفق قلبي بـ صوت عالٍ لـ بضع ثوانٍ لدرجة أنني لم أستطع سماع أي شيء باستثناء تدفق الدم في أذنيّ. دار رأسي وكأنني على وشك السقوط، لذا استلقيتُ على بطني.

كان **صاحب الشعر الزيتي** يريد تركنا بالأسفل هنا، وكان يريد معرفة كم يستغرق الأمر لنختنق لو أُغلق خرطوم الهواء. و**جيبيرز** لم يقل له «لا» أيضاً.

بعد بضع ثوانٍ، دار محرك سيارة.

تأتأتُ، ملتقطةً صوتي أخيراً بينما ارتفع هدير الإطارات ثم ابتعد أكثر:

«إحدى الشاحنات ترحل».

في أسفل كومة المراتب، كان الأطفال الآخرون يتخبطون مجدداً، يستيقظون.

سألت **ميندي** وكأنني أعرف الإجابة:

«سمعتُ ذلك أيضاً. ماذا قالا؟ إلى أين يذهبان؟»

همستُ:

«اششش».

كان هناك تصرير باب آخر يفتح، ثم إغلاق خافت له. ثم عاد الصمت مجدداً، باستثناء صوت تحرك الأطفال أسفل مني. أصدرت **بوني** نحيبها المألوف، وعرفتُ أن الأمر يتطلب كل ما لديها لكي لا تنادي باسمي.

أجبرتُ عقلي على الاستيقاظ وتسجيل ملاحظات عن كل ما تعلمتُه خلال الدقائق القليلة الماضية:

رحل صاحب الشعر الزيتي للتو لـ «قيام بـ توصيلة». إنه يريد أن يتركنا هنا لنموت. وجيبيرز داخل الشاحنة الأخرى الآن، ربما ينام مجدداً.

سألت **ميندي** مجدداً:

«ماذا يحدث؟»

أخبرتُهم بـ مغادرة الشاحنة الأولى، لكنني لم أعرف كيف أخبرهم بـ الباقي. كنتُ أكبر طفلة هنا، وحتى أنا كنتُ خائفة لدرجة الارتجاف. لم أستطع إخبار الأطفال الصغار بما قاله **صاحب الشعر الزيتي**؛ كان عليّ حمايتهم.

شعرتُ بـ اندفاعة رعب أخرى؛ أردتُ إخبار أمي وجدي بـ كل شيء. ولو لم أستطع إخبار أمي وجدي، أردتُ إخبار السيدة **جيسا**.

لكن لا شيء من ذلك كان ممكناً الآن. لذا توجب عليّ فعل ما هو أفضل؛ ومما استطعتُ تبينه، كان ذلك يعني إيجاد طريقة للخروج من هنا—أو على الأقل المحاولة.

قلتُ أخيراً، متخيرةً كلماتي بـ عناية:

«إنهما رجلان سيئان جداً. قالا... قالا أشياء مخيفة».

تحول نحيب **بوني** لـ يصبح أسرع وأحد:

«ماذا قالا يا سيدج؟»

سأل صوتها الصغير، واستطعتُ تخيلها تضع يديها على خديها، وعيناها متسعتان كـ عينَي قطة في الظلام.

تجاهلتُ السؤال على أطرافي الأربعة، ووضعتُ ساقيّ تحتي: «سأرى ما إذا كان بمقدوري الوقوف كلياً».

حتى الآن، كنتُ أتقرفص فقط خائفةً من فقدان التوازن. اهتزت كومة المراتب، وعضضتُ على خدي لمنع نفسي من الصراخ. تزحزحت المراتب وأصدرت صوتاً خافتاً كـ الأنين بينما تمكنتُ من الوقوف على قدميّ.

ارتجفت ساقاي. رفعتُ يدَي في الهواء، ألمس وأتلمس أي شيء فوقي.

لم أجد شيئاً سوى الهواء.

وقفتُ على أطراف أصابعي وحاولتُ الوصول مجدداً، أعلى. ومع ذلك، وقبل أن أتمكن من مد ذراعي بالكامل، فقدتُ توازني وهويتُ إلى الأمام.

تطلب الأمر كل ما لديّ لعدم الصراخ بينما كان جسدي يطير عبر الفضاء: «*سأموت الآن. سأسقط وأكسر رقبتي*».

بدلاً من ذلك، هبطتُ بـ قوة بـ ظهري على المراتب، ودلت ذراع واحدة وساق واحدة من منتصف الحافة البعيدة. مالت الكومة، وأمسكتُ بـ القماش المترهل:

«ساعدوني، ساعدوني، ساعدوني!»

همستُ من بين أسناني المطبقة. اهتز البرج، واستطعتُ سماع همسات خائفة عند قاعدة كومة المراتب.

ثم جاء صوت السيدة **جيسا** على بعد بضع أقدام من أذني:

«سايج، تنفسي. لا بأس، أنتِ بخير».

توقفت كومة المراتب عن الاهتزاز، وتجرعتُ الهواء.

قلتُ وأنا أتنفس بجهد ومتمسكة بـ المرتبة، رغم أن النزول كان بالظبط ما أردتُ فعله:

«لن أنزل للأسفل».

ولمفاجأتي، لم تحاول السيدة **جيسا** إقناعي أو سحبي للأسفل، بل اكتفت بـ الهمس:

«أخبريني بما سمعتِ الرجلين يقولانه».

لذا أخبرتُها بـ تردد؛ لأنني لم أتوقع منها أن تسأل، ولأنني لم أعرف ما الذي يمكنني فعله غير ذلك.

عندما انتهيتُ، بقيت السيدة **جيسا** صامتةً لـ بضع ثوانٍ طويلة.

ثم قالت:

«كم طولكِ يا سيدج؟»

عقدت حاجبيّ:

«خمس أقدام وتسع بوصات».

تنهدت وكأن هذا لم يكن ما أرادت سماعه:

«حسناً. أنتِ أطول مني بـ خمس بوصات. لو أمسكتُ بـ جوانب المراتب مع الأطفال الآخرين، هل يمكنكِ محاولة الوصول إلى السقف مجدداً؟ قفي في المنتصف؛ بهذه الطريقة لو سقطتِ، لن تميل الكومة».

أومأتُ برأسي، رغم معرفتي أنها لا تستطيع رؤية الحركة، وزحفتُ عائدة إلى منتصف الكومة.

طقطقت الخطوات فوق رأسنا مجدداً، تلاها إغلاق باب الشاحنة بـ قوة، ثم الهدوء.

كنتُ شبه متأكدة من أن **صاحب الشعر الزيتي** قد رحل. ومما سمعتُه من تلك الخطوات، كان **جيبيرز** على مسافة آمنة أيضاً. لكن الشعور اليائس والمتخبط في معدتي—كـ سمكة ذهبية خارج الماء—كان أسوأ من أي وقت مضى.

طوال هذا الوقت كنتُ أريد مساعدة السيدة **جيسا**؛ أردتُها أن تتوقف عن إخبارنا جميعاً بـ الصمت وفعل ما يقوله الرجلان لنا لنبقى آمنين.

والآن ها هي، تريد المساعدة فجأة.

لكن كل ما استطعتُ التفكير فيه هو كم كان مخيفاً أن كلمات **صاحب الشعر الزيتي** كانت سيئة بما يكفي لتغير رأيها بشأن محاولة الخروج من هنا.

28

جيسا

ست ساعات وخمس وأربعون دقيقة من الدفن

«يمكننا فقط تركهم بالأسفل هناك، أتعلم».

تلك الكلمات المرعبة التي همست بها سيدج في أذني وهي تنحني فوق حافة كومة المراتب، أذابت شيئاً متجمداً في داخلي. كان ذاك الذوبان يبدو بشعاً بحق؛ يحترق ويلسع وكأنني غمرتُ أقداماً أصابها قضمة الجليد في حوض مليء بـ الماء الدافئ.

أردتُ التسلل مبتعدةً عن كومة المراتب وضم جسدي عائدة إلى وضعية القوقعة، كما كنتُ أفعل حتى نادت سيدج من أعلى المراتب. بل إنني تمكنتُ بطريقة ما من النوم لـ فترة قصيرة. لكن الآن، كان الصوت الذعر في عقلي مستيقظاً بالكامل، يصرخ بأنه لم تعد هناك أي خيارات جيدة، لذا قد أستسلم وأحاول الاختفاء داخل رأسي. هذا، على الأقل، ما كان بوسعي فعله.

«لا يمكنكِ الفوز. فقط جدي طريقة لتجاوز هذا».

لكن كان هناك صوت آخر أيضاً. الصوت نفسه الذي استمعتُ إليه قبل ثلاث سنوات؛ صوت خطير وملحّ دبّت فيه الحياة

عندما أخبرتني سيدج بما سمعتْه. كان يصر على: «*لن تنجي حتى الصباح. عليكِ المحاولة*».

كززتُ على أسناني. أحياناً تكون عواقب المحاولة—عواقب المواجهة—بـ نفس سوء الشيء الذي تحاول الهروب منه.

تركتُ الخوف الساخن والمؤلم يغمرني حتى تفكك الشعور المتجمد أكثر قليلاً.

وقفتُ على أطراف أصابعي ومررتُ أصابعي على طول حافة المرتبة العلوية حتى وجدت يدي ذراعها.

سألت بـ صوت ضئيل:

« سيدج ؟» لكنها لم تتحرك

«نعم؟»

كان الأطفال الآخرون صامتين بـ شكل غير معقول، باستثناء صوت تنفسهم. أغلقتُ عينَي بـ قوة؛ فالظلام جعل الرؤية مستحيلة على أي حال.

سألتُ:

«هل يمكنكِ الوقوف مجدداً؟ المحاولة للوصول إلى السقف؟»

المزيد من الصمت. ارتجفت ذراعها الدافئة تحت يدي.

سألت وصوتها خافت جداً لدرجة أنني اضطررتُ للضغط على نفسي لسماع كل كلمة:

«ماذا لو لم أستطع فعل ذلك؟ أنا خائفة».

لم تكن هذه سيدج المتحدية التي سمعتُها تهمس للأطفال الآخرين قبل بضع ساعات.

ابتلعتُ ريقي، وأنا غير متأكدة بـ المرة أنني أفعل الشيء الصحيح بـ قول ذلك بصوت عالٍ:

«وأنا خائفة أيضاً».

لم تجب لـ لحظة طويلة. عصرتُ ذراعها برفق، غير متأكدة مما أقوله غير ذلك.

همست سيدج أخيراً، وهي لا تزال لا تتحرك:

«ربما كنتِ على حق. ربما يجب أن نفعل ما يقوله الرجلان وسنكون في أمان... كما قلتِ لنا من قبل».

تسربت دمعة من عينَي المطبقتين ودحرجت على خدي. كان صوتها يبدو وكأنه يعتذر تقريباً، كـ طفلة نادمة.

لأنها **كانت طفلة**.

كنتُ أعلم أنني لو أردتُ الآن، لكان بإمكاني الاستناد إلى التوبيخات التي وجهتُها لها سابقاً، وإقناعها بـ النزول من على المراتب المكدسة، ومعانقتها، وتركها تبكي، وإخبارها وبقية الأطفال بـ الحصول على بعض النوم وأن الرجلين سيدعاننا نرحل قريباً.

كدتُ أشعر بـ ثقل جسدها المتعب والمتعرق وهو يستند عليّ في استسلام. كانت ذراعاي تؤلماني لرغبتي في التمسيد على

شعرها، وإخبارها بـ أننا سنكون بخير، وأننا سنتجاوز هذه الساعات الطويلة بـ تلك الطريقة.

لقد تجاوزتُ الأمور بـ تلك الطريقة من قبل. متكومةً بـ شكل مسطح تحت سرير «**صوف**» مع بطانية كـ لعبة الغميضة، معتمدةً على أن يتوقف «**مات**» عن المشي بـ خطى حثيثة في الممر خارج غرفتها ويتراجع للحصول على جرعة أخرى من الخمر في وقت ما.

الليالي التي كان يمد فيها يده تحت الخزانة لـ تلك الزجاجة ذات اللون العنبري، كانت هي الليالي التي أتجه فيها صاعدةً إلى غرفة «**صوف**». أستمع لـ خطواته الثقيلة على الدرج ثم عبر الممر ليقف خارج بابها. كان يعلم أنني بالداخل.

كل بضع دقائق، كان يتمتم بـ تهديدات بـ صوت عالٍ بما يكفي لأسمعها عبر الباب؛ دون أن يكون عالياً بـ درجة توقظ «**صوف**». لم يكن يريد إيذاءها أو إزعاج نومها؛ بل أنا فقط.

«سيكون الوضع أسوأ غداً...»

«يا جبانة...»

«كنتُ أعلم أن لديكِ ما تخفينه...»

لم أجرؤ قط على وضع يدَي على أذنيّ لـ حجب صوت كلماته؛ لأنه بين الحين والآخر، كان يضع يده على مقبض باب غرفة ابنتنا لـ يرجّه قليلاً، جاعلاً إياه يحتك بـ قفل الخصوصية الهش

الذي كنا نعرف كلانا أنه يمكنه فتحه بـ قطعة نقدية أو سكين زبدة في ثوانٍ معدودة.

كنتُ أقول لنفسي دائماً إنني لن أستجيب له إلا إذا فتح الباب بالفعل؛ وعندها سيتوجب عليّ الذهاب معه إلى حيث يريد، حتى لا تستيقظ «**صوف**».

أحياناً، حتى الآن، لا أزال أتساءل عما إذا كانت الأمور ستسير بـ شكل مختلف لو أنني تمسكتُ بـ خطتي: مجرد البقاء متجمدة تحت ذاك السرير مع صوت تنفس ابنتي الهادئ في أذن، والصوت المشؤوم لـ طقطقة مقبض الباب في الأذن الأخرى.

ومع ذلك، في كل ليلة كان يحدث فيها ذلك، كان «**مات**» يبقى خارج بابها لـ فترة أطول قليلاً، يطقطق المقبض ذهاباً وإياباً بضع مرات أخرى. أحياناً كان يبقى ساكناً تماماً حتى أسترخي، ظانةً أنه ذهب للنوم أخيراً.

أحياناً كان يفعل، وفي أحيان أخرى، وفي اللحظة التي أكون فيها على وشك إغلاق عينَي والاستسلام للنوم، يدق بقدمه بضع خطوات لأعرف أنه خارج الغرفة.

ثم في إحدى الليالي، سُمعت أصوات طقطقة من قفل الخصوصية لتحرير المزلاج.

دار مقبض الباب بحرية.

حبستُ أنفاسي وشُدّت عضلاتي. *لا، لا، لا.*

تزحزحت «**صوف**» في السرير فوقي وكأنها تستيقظ، ومتمتمة:

«ماما...»

ودعوتُ الله أن تكون تتحدث وهي نائمة.

أصدر «**مات**» خريراً خافتاً لكنه لم يدفع الباب لـ يفتحه بالكامل، وكأن هذه لعبة يستمتع بها ويريدها أن تستمر لـ فترة أطول قليلاً. فجأة، تحولت فكرة «*فقط تجاوزي الليلة*» في رأسي إلى: «*ماذا لو كانت هذه الليلة هي كل ما تملكين؟*»

تلك كانت اللحظة التي انكسر فيها شيء ما في داخلي، وتسللتُ خارجةً من تحت سرير «**صوف**» عبر الأرضية نحو شريط الضوء الأصفر الضئيل القادم من تحت الباب.

لم يكن قد فتح الباب بالكامل بعد، لكنني عرفتُ أنه سيفعل. ولو كان مستعداً للقدوم من أجلي في الملاذ الأخير المتبقي لي، فهذا يعني أنه مستعد أن يُظهر لابنتنا لمحة من الوجه الذي لم يُظهره إلا لي حتى الآن.

كانت المسألة مسألة وقت فقط، والوقت كان ينفد.

قال بـ صوت خافت، شبه لطيف عندما وقفتُ وجه لوجه معه في الممر:

«ظننتُ أن هذا قد يخرجكِ. ربما بعد هذه الليلة، ستتحسنين في تصرفاتكِ».

كدتُ أنهار على ركبتَي. بدلاً من ذلك، أغلقتُ باب «**صوف**» برفق وتركتُه يمسك بي من ذراعي.

عندها رأيتُ سيخ الحديد الخاص بـ الموقد في يده.

عندما كان «**مات**» يغضب، ويشتمني، ويدفعني بـ عنف وهو يعدد الأدلة المزعومة التي تكشف أنني خائنة له، كان مرعباً. لكن تلك الانفجارات كانت متوقعة، على الأقل؛ كانت تشتعل وتصل لـ ذروتها، ثم تتلاشى ببطء كأن للتهديدات والإهانات مدة صلاحية تدميرية.

لكن عندما كان يهدأ ويصبح متزناً، كنتُ أعرف أن شيئاً فظيعاً بحق على وشك الحدوث.

كانت التهديدات المبطنة غير الملفوظة هي الأكثر خطورة دائماً، في تجربتي. لذا عندما قال «**مات**»: «*ربما بعد هذه الليلة، ستتحسنين في تصرفاتكِ*» بـ ذاك الصوت الفائق الهدوء، أضاء جزء مني؛ زر خطر يحدد الحالات التي تكون فيها الأمور على وشك الخروج عن السيطرة.

كان ذلك هو الجزء نفسه الذي أضاء بالأسفل هنا في المخبأ، عندما أخبرتني سيدج بما قاله الخاطفون:

«*يمكننا فقط تركهم بالأسفل هناك*».

تكررت تلك الكلمات كـ دقات القلب، بـ صوت أعلى وأشد في عقلي.

ابتلعتُ الريق عبر جفاف حلقي:

«لا يا سيدج. كنتِ على حق، وكنتُ أنا على خطأ. أنا آسفة. أنا هنا من أجلكِ الآن».

شهقت وكأنها تبكي هي الأخرى. ثم اهتزت كومة المراتب وهي تتحرك لـ تصبح على يديها وركبتيها:

«حسناً. سأحاول الوقوف مجدداً».

بسطتُ ذراعيّ وسندتُ جسدي على المراتب المطوية، وهمستُ:

«هيا يا أطفال. أعلم أننا جميعاً متعبون، لكن لنشكل دائرة حول الكومة لنجعلها مستقرة، حسناً؟ ليميل الجميع للداخل حتى تتمكن سيدج من الوقوف والوصول إلى السقف».

هست سيدج فجأة من فوق رأسي، بـ صوت يبدو منتصراً:

«يا إلهي! سيدة جيسا، أستطيع لمسه!»

لـ أجزاء ضئيلة جداً من الثانية، تركتُ نفسي أشعر بـ الحماس في صوتها.

ثم جاءت موجة جارفة جديدة من الرعب.

لأنه حتى لو تمكنا من حفر طريقنا للخروج من هنا، فلن نكون أحراراً؛ سنكون قد أصبحنا وجه لوجه مع الرجلين اللذين وضعانا بالأسفل هنا في المقام الأول.

وعندما يحدث ذلك، فإن التهديد **الهادئ** بـ: «*يمكننا فقط تركهم بالأسفل هناك*»، سيكشف عن وجهه الحقيقي.

29

سيدج

ست ساعات وخمسون دقيقة من الدفن

خفق قلبي بينما تحركت أطراف أصابعي عبر الخشب الخشن لـ فتحة السقف.

«*خشب مضغوط*». طرأت الكلمة في عقلي، وتخيلتُ اللوح الذي رأيتُ **جيبيرز** يغلق به المخبأ ويسحب شيئاً ثقيلاً فوق الفتحة المؤدية إلى المدخنة.

كدتُ لا أستطيع ضغط طرف إصبعي بـ شكل مسطح على السقف، ناهيك عن دفعه بـ راحتي يدي، لكنني رفضتُ الاستسلام لهذه الحقيقة.

لم تكن «**هاريت الجاسوسة**» لتدع ذلك ينال منها؛ كانت ستفكر—وتواصل المحاولة.

والآن بعد أن أصبحت السيدة **جيسا** في صفنا أيضاً، شعرتُ بـ التأكيد أننا نستطيع الوصول إلى حل.

مررتُ أصابعي على طول السطح الخشبي الخشن للسقف، ذهابًا وإيابًا. كان الخشب يبدو مليئاً بـ الشظايا، وكأن هناك

الكثير من قطع الخشب الصغيرة المهروسة معاً، وكانت بعض الشظايا بارزة بـ قدر يكفي لأمسك بها.

كـ تجربة، تمطيتُ على أطراف أصابعي بأقصى ما أستطيع واستخدمتُ ظفري لـ الحفر في إحدى الشظايا الكبيرة وسحبها. افلتت من تحت ظفري بـ صوت تمزيق خافت.

لم تكن أكثر من شريحة ضئيلة، في حجم قطعة نقدية تقريباً. لكن كان هناك المئات، ربما الآلاف من تلك الشظايا الورقية التي تمسك الخشب المضغوط معاً. وفجأة أصبحتُ متأكدة من أنني لو ملكتُ نوعاً من السكاكين أو الأدوات، لاستطعتُ كشط المزيد منها، شيئاً فشيئاً. ولو استطعتُ كشط المزيد، فربما يمكنني صنع حفرة كبيرة في الخشب المضغوط بما يكفي لـ يتسع لها جسدي.

سألتُ، محاولةً عدم التفكير في كم سيكون الأمر مخيفاً لو أضفتُ جسماً آخر فوق هذا البرج غير المستقر:

«هل هناك أي شيء آخر يمكنني الوقوف عليه؟»

لم تكن المراتب تتأرجح بـ نفس القدر تقريباً مع إسناد السيدة **جيسا** والأطفال الآخرين لها، لكنني لا أزال أشعر بأنني قد أهوي في أي ثانية.

همست **إيفلين ماركس**:

«ماذا عن دلو الحمام؟»

تلا اقتراحَها بضع تمتمات متحمسة وصوت «إيو» واحد.
استمعتُ لأرى ما ستقوله السيدة **جيسا**، منتظرةً إياها لتغير رأيها وتصر على أن أجلس عائدة على المراتب.
ظلت صامتة، لكنني استطعتُ الشعور بـ وجودها على بعد بضع أقدام أسفل المكان الذي أقف فيه، ممسكةً بـ المراتب لـ تبقيها مستقرة مع الأطفال الآخرين. جعلني ذلك أشعر بـ شجاعة أكبر، وكأنها بدلاً من أن تكون «**الطاهية**» في *هاريت الجاسوسة*، كانت مستعدة لتكون «**أولي جولي**»—مربية هاريت وموجهتها—لـ بعض الوقت.
قلتُ وأنا أفكر بصوت عالٍ:
«هناك دلوان لـ الحمام».
كانا عريضين وكبيرين، كـ الدلاء التي تحتفظ بها أمي في المرآب لـ اقتلاع الأعشاب الضارة. لو قلبتُ أحدهما رأساً على عقب، فبإمكاني وضعه فوق المراتب والوقوف عليه حتى أصل لـ السقف بـ شكل أفضل.
سألت السيدة **جيسا** بـ صوت مرتجف، لـ يحلق قلبي عالياً:
«إيفلين، هل يمكنكِ جلب أحد الدلوين؟»
كانت تقصد ما قالته لي سابقاً؛ كانت ستساعدني وتكون **أولي جولي**:

«لو كان فيه أي شيء، اسكبيه في الدلو الثاني. وبقية الجميع، واصلوا الإمساك بـ كومة المراتب لـ إبقائها مستقرة معي، حسناً؟»

قالت **إيفلين** وصوتها يبدو متشابكاً بـ الشك:

«حسناً».

بعد بضع ثوانٍ سمعتُ صوت خض، ثم صوت تقاطر خافتة.

انطلقت **بوني** بـ صوتها، وكنتُ فخورةً بها لـ كم كانت تبدو شجاعة:

«لا بأس يا إيفلين. الجميع يتبرز ويتبول».

عرفتُ للتو أنها تقتبس من ذاك الكتاب الغبي الذي كانت أمي تقرأه لنا عندما كنا أطفالاً صغاراً. لكنها أضافت بعد ذلك:

«سيدج ستخرجنا. لن تبقى الرائحة كريهة لـ فترة طويلة بعد الآن».

انقبض ضيق حلقي، وقطعتُ على نفسي وعداً بـ أنني سأفعل كل ما بوسعي لكي لا أخذلها هي والأطفال الآخرين.

قالت **إيفلين** بعد بضع ثوانٍ:

«تفضلي يا سيدة جيسا. ها هو الدلو. لكنني لا أعرف ما إذا كان كبيراً بما يكفي للوقوف عليه. لا أريد لـ سيدج أن تسقط».

كان عقلي يتحرك أسرع فأسرع، رغم أن جسدي كان يشعر بـ تعب شديد:

«بوني، هل يمكنكِ الصعود إلى هنا والإمساك بـ الدلو لـ إبقائه مستقراً ـــكـ لعبة كرة اليوغا؟»

كنت أعلم أنها ستفهم تمامًا ما قصدته. كانت أمي تحتفظ بكرة يوغا في مكتبها، وكنا أنا وبوني نحب اللعب بها عندما لا تكون مشغولة بالعمل. كانت لعبتنا المفضلة هي التنافس على من يستطيع الحفاظ على توازنه عليها لأطول فترة ـــ دون أن تلمس قدميك الأرض. وكانت مهمة الشخص الآخر، إلى جانب عد الثواني لتوقيتك، هي لف ذراعيه حول قاعدة كرة اليوغا حتى تقول «ابدأ». وبهذه الطريقة، كانت لديك فرصة لاستعادة توازنك قبل أن تنقلب.

لو استطاعت فعل ذلك بـ قاعدة الدلو، فسأكون شجاعة بما يكفي للوقوف عليه. ربما كان أحد الأطفال الأكبر سناً أشد قوة، لكنني رأيتُ **بوني** وهي تتمسك بـ كرة اليوغا المتذبذبة كـ محارة، وكنتُ أثق بها أكثر مما أثق بـ الآخرين.

قالت **بوني** وصوتها الصغير مبتهج وكأنني طلبتُ منها للتو لعب لعبة كرة اليوغا:

«أوه، نعم!»

شعرتُ بـ وخزة ذنب؛ فقد توقفت عن طلب لعب تلك اللعبة معها منذ بضعة أشهر لأنني قلتُ «لا» مرات كثيرة جداً. «*نحن نلعب معاً بـ القدر الكافي بالفعل، لأنكِ تتبعيني في كل مكان طوال*

الوقت في برايت بيغينينغز»، هذا ما قلته ذات مرة عندما توسلت إليّ.

تقرفصتُ لـ تسلمني السيدة **جيسا** الدلو. لمستُه بـ يدَي لأحفظ شكله رغم أنه كان يقطر بـ البول. بعد بضع ثوانٍ، اهتزت كومة المراتب قليلاً بينما زحفت **بوني** لـ تصبح بجانبي.

قلبتُ الدلو المتقاطر، وزحزحتُه إلى منتصف كومة المراتب، وحركتُ ذراعي **بوني** حول القاعدة:

«تمسكي هنا بالظبط، حسناً؟ حاولي ألا تدعيه يتذبذب».

دون أن تشتكي من الرائحة أو تطلب المزيد من التوجيهات، انبطحت **بوني** على بطنها وفتحت ذراعيها لـ تلفهما بالكامل حول القاعدة.

لـ سبب ما، جعلني ذلك أريد البدء بـ البكاء مجدداً.

قلتُ وصوتي يتعثر:

«شكراً يا بوني».

ثم، وقبل أن أتمكن من الخوف أكثر من اللازم، وضعتُ قدمي الأولى فوق القاع المسطح للدلو ودفعتُ جسدي أعلى نحو السقف حيث شعرتُ بـ الخشب المضغوط.

وكما أملتُ، ارتطمت راحة يدي باللوح الخشبي بشكل مسطح:

«لقد فعلتُها!»

همستُ بـ حماس:

«أستطيع الوصول إلى السقف بـ شكل جيد جداً الآن».

دفعتُ بـ قوة أكبر هذه المرة بـ أظافري، كاشطةً المزيد من شظايا الخشب الكبيرة.

نقلتُ وزني إلى قدمي الأخرى على الدلو، فمال بـ قدر ضئيل جداً:

«هل أنتِ ممسكة بـ إحكام يا بوني؟»

همستُ:

«أنتِ تفعلين ذلك بـ شكل جيد جداً».

همست رداً عليّ وصوتها مليء بـ الفخر:

«أجل، أنا ممسكة به».

انفصلت بضع شظايا إضافية من الخشب في يدي، وحفرتُ لـ الحصول على المزيد رغم أن أصابعي بدأت تؤلمني. عقدت حاجبيّ وحاولتُ التفكير؛ لو أردتُ تحقيق أي تقدم حقيقي، فما أحتاجه بحق هو حافة حادة.

«هل يملك أي شخص أي شيء حاد حتى أتمكن من كشط السقف بـ شكل أفضل؟»

شعرتُ بـ الغباء لمجرد السؤال؛ فنحن أطفال مدرسة ابتدائية، ولا نملك أدوات معنا.

ترددت تمتمات قلقة في الغرفة المظلمة. ثم قالت السيدة **جيسا**:

«أنا أرتدي حزاماً. حافة الإبزيم حادة إلى حد ما. لنجرب ذلك».

هززتُ كتفيّ:

«ناوليه لـ بوني».

سمعت المزيد من أصوات الحفيف بينما كانت السيدة جيسا تفك حزامها وتسلمه إلى بوني، متحركة ببطء حتى لا تهتز كومة المراتب.

محافظةً على توازني بـ أقصى قدر ممكن من الحذر، انحنيتُ لـ الأسفل بـ القدر الكافي فقط لألتقي بـ يد **بوني** الممتدة.

في الثانية التي لامس فيها المعدن الدافئ لـ الإبزيم أصابعي، ابتسمتُ لـ المرة الأولى.

كانت عملية كشط الخشب المتشقق من الخشب المضغوط ستكون مروعة. حتى مع وجود مشبك الحزام، كانت أصابعي ستتعرض للخدش والتقرح وربما حتى النزيف.

ومع ذلك، كانت هذه أداة يمكن للجاسوسة استخدامها. الحجم المثالي لأمسكها بيدي، مع زوايا مربعة يمكنني حفرها بقوة في الخشب.

كانت «هاربيت الجاسوسة» ستشعر بالدوار من الفرح. وكذلك كنت أنا.

30

سيدج

ثماني ساعات من الدفن

قمت بكشط وحفر وخدش الخشب المضغوط بكل ما تبقى لدي من طاقة.

مع كل بضع ضربات بـ إبزيم الحزام، كنتُ ألمس السقف بحثاً عن علامة تدل على أنني اخترقتُ قطعة الخشب أخيراً. كان يبدو أنني أحرز تقدماً، خاصة بعد أن اعتادت يدي على أفضل طريقة لـ الإمساك بـ إبزيم الحزام. ومع ذلك، لم تكن لديّ أي فكرة عن سُمك الخشب المضغوط. كل ما عرفتُه هو أنه، شيئاً فشيئاً، كان المكان الذي أحفر فيه يتحول إلى حفرة ضحلة في السقف.

أبقيتُ عينَي مغمضتين أثناء الحفر، لأمنع شظايا الخشب الضئيلة التي كانت تتساقط على وجهي من الدخول في عينَي. وظل الدلو الذي أقف عليه مستقراً، لكن كل بضع دقائق كنتُ لا أزال أنادي لـ أسفل على **بوني**:

«هل أنتِ مستيقظة؟»

قالت:

«أجل، أنا مستيقظة».

لكن مع تسرب الدقائق وارتجاف ساقيّ وذراعيّ، قلقتُ من أنني سأحتاج إلى استراحة قبل أن تحتاج هي إليها.

كانت هناك أغنية من برنامج «شارع السمسم» لا تنفك تتردد في ذهني، لكنني لم أكن أعرف كلماتها بالضبط. كانت تتحدث عن وضع قدم أمام الأخرى. كنت قد توقفت عن مشاهدة «شارع السمسم» منذ سنوات، لكن **بوني** كانت مهووسة بشخصية «سنافلوباجوس» منذ أن كانت رضيعة، وكانت تشغل البرنامج كلما سبقتني إلى التلفاز.

ارتجفت يداي واحترق كتفاي وأنا أغرس إبزيم الحزام في الخشب بـ كشطة أخرى. تذبذبت قدمي على الدلو، لكنني لم أسقط.

همست **بوني**:

«هل أنتِ بخير؟»

انطلقت **روز** بـ صوتها:

«يمكنني محاولة فعل ذلك لو كانت سيدج متعبة».

لكن كلماتها انقسمت في المنتصف بـ تثاؤب كبير.

هززتُ رأسي. وقلتُ لـ **بوني**:

«سأكون بخير».

ثم أضفتُ:

«شكراً يا روز. لكن جميع الآخرين قصيرون جداً—باستثناء السيدة **جيسا** ربما، لكنها أقصر مني أيضاً».

جعلني قول ذلك أريد البكاء؛ لم أكن متأكدة كم من الوقت يمكنني الاستمرار دون الحصول على راحة.

قالت السيدة **جيسا** ببطء:

«يمكنني المحاولة، لكنني أزن على الأقل ثلاثة أضعاف وزنكِ يا سيدج، وأنا أقصر. سأغوص لـ أسفل أكثر على كومة المراتب».

ابتلعتُ غصة في حلقي. كانت المراتب واهية وقابلة للانحناء—مما جعل طيها إلى النصف سهلاً. ومع ذلك، كان ذلك يعني أيضاً أنها تغوص لـ أسفل عندما تضع أي وزن عليها. كانت السيدة **جيسا** «ممتلئة القوام»، وهي الكلمة التي أخبرتنا أمي أنا و**بوني** أنه يتوجب علينا استخدامها بدلاً من «سمينة». لن تتمكن من الوصول إلى الخشب المضغوط، لا مجال لذلك.

كان الأمر برُمته يقع على عاتقي.

نقلتُ وزني إلى القدم الأخرى، محاولةً منع ساقيّ من الارتجاف، ثم انتقلتُ لـ استخدام يدي اليسرى.

وبينما كنتُ أقوم بـ الكشطة التالية في الخشب، دافعةً لـ أعلى بأقصى ما أستطيع لـ جعل إبزيم الحزام يحتك بـ أكبر عدد ممكن من الشظايا، حدث أمرين:

أولاً، سمعتُ الصوت الخافت لـ إطارات تتحرك على التراب والحصى، وتزداد صخباً مع الثواني.

ثم، شعرتُ بـ إبزيم الحزام ينبثق لـ أعلى نوعاً ما بينما كنتُ أدفعه في السقف. انخدشت مفاصل أصابعي بـ قطع خشبية حادة، لكنني تمسكتُ ودفعتُ بـ قوة أشد حتى سمعتُ صوت تصدع.

شهقتُ، مما جعل بضعة من الأطفال والسيدة **جيسا** يهمسون في الوقت نفسه بالظبط:

«ماذا حدث؟»

مع صوت الإطارات المقتربة في أذن، وذالك الصوت الجميل لتصدع الخشب في الأذن الأخرى، دفعتُ بكل قواي، مجهزةً نفسي لـ الاستناد على السقف بـ يدي الأخرى حتى لا أهوي فوق **بوني** تحتي.

شهقتُ مجدداً بينما وخزت المزيد من الشظايا جلدي، وسال شيء دافئ ولزج على يدي.

لكن بعد ذلك، حدث الأمر..

دُفعت أصابعي عبر حفرة في حجم القَبضة كنتُ قد صنعتُها للتو في سقف الخشب المضغوط!

شعرتُ فجأة بـ دوار شديد من الحماس لدرجة أنني قلقتُ من أنني سأسقط فوق **بوني**.

توقفت الإطارات وانفتح باب—هذا الباب كان يصر بـ شكل أشد من الأبواب الأخرى التي سمعتُها—ثم انغلق على مسافة قصيرة. *هل كانت هذه سيارة مختلفة عن الشاحنة الرمادية والشاحنة البيضاء؟* لم تكن أبواب أي منهما تصر. ماذا كان يجري؟ هل يجب أن نصرخ لـ طلب المساعدة؟

تنفستُ بـ عمق وبشكل كبير:

«صنعتُ حفرة!»

هسستُ لـ الأسفل نحو الآخرين:

«وهناك سيارة جديدة هناك في الأعلى الآن، لكنني لا أعلم ما إذا كان ينبغي لنا..»

همست السيدة **جيسا**:

«هل يمكنكِ..»

لكن فجأة استطعتُ سماع أصوات قادمة من مكان ما عبر الحفرة.

قلتُ:

«اششش!»

ثم استمعتُ بأقصى ما أستطيع.

قال **صاحب الشعر الزيتي**:

«لا تصب بـ الذعر، حسناً؟ الأمر هو ما هو عليه».

برد دمي، رغم أنني كنتُ متعرقة بـ قدر لم أكن عليه في حياتي من قبل. لقد عاد **صاحب الشعر الزيتي**. عما كان يتحدث؟ ما الذي قد يجعل **جيبيرز** يصاب بـ الذعر؟

توسلتُ إليهم في عقلي: «*أرجوكم لا تنظروا لـ الأسفل هنا*»، متأملةً أن أي شيء يقوله **صاحب الشعر الزيتي** سيبقيهما بعيدين. لو حصلتُ على القليل من الوقت الإضافي فقط، فكنتُ متأكدة من أنني سأستمر في الكشط حتى تصبح الحفرة في سقف المخبأ كبيرة بما يكفي لأتلوي بـ جسدي صاعدةً إلى المدخنة الخشبية الكبيرة التي تسلقناها عبر السلم سابقاً.

سأل **جيبيرز**، وكان صوته يصعب سماعه بـ شكل أشد:

«ولماذا أُصاب بـ الذعر؟»

«فقط لا تصب بـ الذعر. لقد فات الأوان على ذلك».

قال **جيبيرز** بـ صوت أعلى هذه المرة:

«تباً لهذا الخراء! أخبرني فقط ماذا حدث».

ثم انفتح باب آخر وانغلق بـ قوة.

قال **صاحب الشعر الزيتي** شيئاً آخر، لكنني كدتُ لا أسجله لأن عقلي جمع فجأة قطعتين من الأحجية معاً:

كنتُ أعرف من هو جيبيرز.

كان **جيبيرز** هو السيد **إدوارد**؛ سائق الحافلة في *برايت بيغينينغز*، الذي شتمنا جميعاً عندما دحرجت التفاحة عبر الممر وانحشرت في المقدمة.

«تباً لهذا الخراء»؛ هذا ما قاله في ذلك اليوم. لم أسمع أي شخص آخر يستخدم تلك الشتيمة من قبل، والطريقة التي قالها بها كانت غريبة... يمط العبارة، جاعلاً منها جملة طويلة بدلاً من مجرد ثلاث كلمات.

كان قد قاد الحافلة لـ أسبوع واحد فقط عندما حدثت كارثة التفاحة. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي يقود فيها الحافلة. قالت **روز** إن أمها اتصلت بـ *برايت بيغينينغز* واشتكت، مما يعني أن السيد **إدوارد** قُطع رزقه طُرِد على الأرجح.

هل لهذا السبب وضعنا بالأسفل هنا؟ لأنه كان غاضباً بسبب طرده؟

«تباً لهذا الخراء». كانت الكلمات والطريقة التي قالها بها تدور في رأسي. لقد كان يقول الشيء نفسه بالظبط، بـ الطريقة نفسها بالظبط، طوال الليلة.

31

تيد

نمْتُ في الشاحنة لـ مدة ساعة ربما بينما كان «أندي» يقوم بـ توصيلة الساعة 1:00 صباحاً على حافلة النقل، لكن الأمر بدا وكأنه بضع دقائق فقط. عندما استيقظتُ على صوت الإطارات، انتفضتُ واقفاً، فاقداً للاتجاهات ومسطولاً من النوم.

مسحت يدَي في جيوب سترتي ذات القلنسوة، وخرجتُ من الشاحنة، ورمشتُ من أضواء المصابيح الأمامية المقتربة.

كانت تلك أول علامة على وجود خطأ ما؛ فقد كانت تلك الأضواء منخفضة جداً بـ شكل لا يناسب حافلة النقل.

تشنجتُ بينما تباطأت السيارة ثم توقفت—وظهر «أندي».

ارتياح، ثم حيرة، ثم غضب، تدفق كل ذلك عبر جسدي:

«ما الذي حدث بحق الجحيم؟ أين حافلة النقل؟»

قال «أندي» وهو يستند إلى سيارة هوندا سيفيك ذات بابين عرفتُها الآن بعد أن بدأت عينَاي تتعافيان من العشى الذي سببتْه أضواء المصابيح الأمامية:

«يا رجل، اهدأ».

وصاد من جيبه سيجارة وولاعة:

«سيدة ما أصيبت بـ الذعر. كان الأمر مجرد القليل من التراب... والقمامة».

لو كنتُ غاضباً من قبل، فقد أصبحتُ شائطاً الآن:

«أخبرني ماذا حدث. لا تترك أي شيء».

وفعل. وعندما انتهى، جلستُ على غطاء محرك السيارة السيفيك لأهدئ نفسي. *تباً!*

كان ركاب توصيلة «أندي» في الساعة 1:00 صباحاً قد اتصلوا بـ مكتب حافلات النقل السريعة لـ الشكوى بعد خمس عشرة دقيقة من إنزالهم في المطار.

كانت أرضية الحافلة قذرة—لطخات من الغبار وآثار أقدام في كل مكان، جراء سحبي لـ لافتة التحويل إلى الداخل والخارج من الخلف. ليس هذا فحسب، بل إن «أندي» كان قد كرمش الجوارب النايلون الناشفة من العرق وحشاها تحت مقعد السائق—حيث تدحرجت إلى الخلف.

وقد رفعت إحدى النساء تلك الجوارب بالفعل، قبل أن ينتزعها بـ عنف من يدها!

تمتمتُ للمرة الخامسة:

«تباً لهذا الخراء!»

وركلتُ صخرة انطلقت في اتجاه لوح الصفيح المعدني الذي يغطي الحفرة.

كرر مجدداً وكأنني أبالغ في رد فعلي:

«اهدأ».

لكنني لم أستطع الهدوء؛ ليس عندما أفسد الأمر بـ هذه البشاعة.

أشعل «أندي» السيجارة وأدار رأسه نحو المخبأ المدفون:

«هل هناك أي صوت من أولئك المؤخرات الصغار؟»

قلتُ بـ صوت أكثر حدة مما كنتُ أقصد:

«ماذا تظن يا غبي؟»

التوى فم «أندي» في تكشيرة ساخرة حول عقب السيجارة المشتعل:

«أقصد... موعد نومك عادةً في التاسعة تماماً، أليس كذلك؟»

تجاهلتُ الطعنة ومسحتُ قطرة مطر ضخمة هطلت على رأسي ودحرجت على خدي.

لم أرد الشجار مع «أندي»—ليس ونحن قريبون جداً من خط النهاية. لكن كيف كان بمقدوره أن يكون بـ هذا الغباء؟ لم أستطع منع نفسي من الإضافة:

«حقاً، كم مرة راجعنا هذا الأمر؟ كان من المفترض أن تمنح الحافلة مسحة سريعة قبل أن تقل أي ركاب».

أضفتُ في سري متمنياً لو أنني فعلتُها بنفسي، حاقداً على نفسي لـ ترك الأمر له. لكن كان من المفترض أن يكون هذا جهداً

جماعياً؛ لو كان سيحصل على نصف المال، فكان عليه الالتزام بـ نصفه من الخطة.

رد بـ حدة وهو يلقي بـ السيجارة التي لا تزال تشتعل على التراب المخدد عند قدميه:

«تباً، لو لم تستغرق كل هذا الوقت الملعون في تدليل أولئك الأطفال أثناء إنزالهم في المخبأ، لما كنتُ مستعجلاً إلى هذا الحد سابقاً».

أجبرتُ نفسي على أخذ نفس عميق وقلتُ لنفسي إن الأمور، بـ شكل عام، لم تخرج عن السيطرة إلى ذلك الحد. لكن كان بإمكانها ذلك، وتلك كانت المشكلة الحقيقية.

سألتُه وأنا أريد منه أن يطمئنني مجدداً، أريد أن أصدق أنه لا يخفي شيئاً:

«هل قالت أي شيء عن الجوارب النايلون؟»

رفعت هبة ريح بعض التراب الناعم بالقرب من «**الحفرة**». وطرقَت المزيد من قطرات المطر خديّ، واستطعتُ سماع النقرات وهي تضرب الصفيح المعدني والقمامة الآن.

تباً! لم يكن من المفترض أن تمطر. كان جلدي يشعر بـ السخونة وعضلاتي تواصل التشنج.

«تباً لا، لقد أخبرتُك بالفعل. كانت غبية كـ صندوق من الحجارة. لم تدرك حتى أنها جوارب نايلون؛ ظنت أنه رباط شعر لعين.

سألتني ما إذا كانت ملكي ثم غضبت مني عندما انتزعتُها من يدها. غبية! من يجلس في المقعد الأمامي بينما هناك متسع في الخلف على أي حال؟ كانت عاهرة غبية، أضمن لك ذلك».

لم يكن قد ذكر الجزء المتعلق بـ « رباط شعر » في المرة الأولى التي حكى فيها القصة. أجبرتُ كتفيّ على الاسترخاء. كنا قد عدنا معًا إلى المحجر. كنا في أمان. ألقيت نظرة خاطفة نحو الصفيح المعدني الذي يغطي الحفرة، مذكراً نفسي بـ كل شيء نجحنا في الإفلات به بالفعل.

لم أسمع صوتاً واحداً من الأطفال؛ ربما كانوا نائمين. كنتُ أتوقع بعض الخبط والصراخ في وسط الصمت أثناء انتظاري لـ عودة «أندي» من إنزال المطار، لكن لم يكن هناك شيء.

تخيلتُ الأطفال نائمين على المراتب في أسفل الحفرة، شبعى من شطائر زبدة الفول السوداني والمربى التي استخدمتُ جزءاً من شيكي الأخير لـ صنعها، وجعلني ذلك أشعر بـ شعور غريب ولطيف؛ وكأنهم حيواناتي الأليفة لـ هذه الليلة فقط، مدثرين بـ أمان وسلام حتى أدعهم يرحلون.

قطع «أندي» أفكاري قائلاً:

«كان الأمر رائعاً نوعاً ما عندما طُردتُ».

تشنجت كتفاي مجدداً وأجبرتُهما على الفك. لم يكتفِ بـ الفشل التام في التأكد من نظافة الحافلة—وخلوها من الأقنعة

الملعونة—قبل التقاط ركابه فحسب، بل أحدث جلبة وطُرِد أيضاً!

دون أن ينتظر ردي، واصل «أندي»:

«في أي يوم آخر، كنتُ سأتبرز في بنطالي وأقبل مؤخرة السيد "كيسلر" عندما بدأ يوبخني بـ شدة بسب شكوى تلك السيدة. لأن وظيفة حافلة النقل تدر مالاً جيداً جداً، أليس كذلك؟ لكن بما أننا... كما تعلم، سنصبح أثرياء بحلول الغد، فقد ألقيتُ بوجهه كل شيء».

أدرت عيني، لكنني أردتُه أن يواصل الحديث حتى أعرف بالظبط ما حدث أثناء وجوده مع حافلة النقل السريعة:

«ماذا قلتَ له؟»

«عندما أخبرني أن تلك العاهرة اشتكت من قذارة الحافلة، قلتُ له ربما كان هناك شيء منحشر في مؤخرتها».

كززتُ على فكي لمنع التثاؤب.

قهقه «أندي»:

«لذا قلتُ له: "ربما يمكنك مساعدتها في إخراجه... من شخص بخيل إلى آخر"».

عرفتُ أنه كان من المفترض أن أضحك، لذا فعلتُ، لكنني كنتُ لا أزال غاضباً. كان من المفترض أن نختفي عن الأنظار، لا أن نحدث جلبة.

غنى «أندي» وهو يفتح باب السيارة الهاتشباك الصغيرة ويدخل لـ الداخل:

«لا بأس يا تيدي بير (الدب تيدي)».

بدأ المطر يشتد الآن؛ ليس هطلاً غزيراً، لكنه كافٍ لـ بللنا لو وقفنا في العراء.

دمدمتُ:

«لا تنادِني بـ ذلك الاسم».

لكنني بدأتُ أهدأ.

تمتم «أندي»:

«حسناً يا تيدي بير».

ثم تثاءب بـ وسع لدرجة أن فمه المحاط بـ الشعر أظهر كل أسنانه:

«لننم لـ بضع ساعات، حسناً؟»

وأشار نحو الصفيح المعدني الذي تنقره قطرات المطر:

«يوم كبير غداً».

أومأتُ برأسي واتجهتُ نحو الشاحنة الرمادية دون إجابة.

كنا بحاجة إلى أن نكون متيقظين لـ استلام الفدية. والأطفال لن يذهبوا إلى أي مكان.

لا أحد منهم، ولا حتى سائقة الحافلة، يستطيع الوصول إلى أعلى المخبأ دون السلم؛ ولا حتى قريباً من ذلك. وحتى لو

استطاعوا بطريقة ما، فلن تكون هناك أي طريقة تمكنهم من تحريك الخشب المضغوط الذي يغطي الحفرة الأولى. لقد وضعتُ بطارية شاحنة وزنها مئة رطل في منتصف الخشب وكدتُ أكسر ظهري أثناء فعل ذلك.

«*لا توجد طريقة*»، طمأنتُ نفسي للمرة الألف. لكن لو فعلوا، فسنكون هنا بالظبط في انتظارهم.

فتحتُ باب الشاحنة الرمادية وإنزلتُ النافذة بـ مقدار شق صغير حتى أتمكن من سماع أي نوع من الضجة. تدحرجت بضع قطرات مطر على الجزء الداخلي من الزجاج، لكنني اكتفيتُ بـ الاستناد إلى وحدة التحكم وأرحتُ رأسي على مقعد الراكب. كانت البطانية ستكون لطيفة، لكن كان لديّ سترتي على الأقل. لم تكن أكثر ليلة مريحة قضيتها في حياتي—وهذا يعني الكثير، لأن غرفة النوم الضيقة في مقطورة أمي كانت مريحة بـ قدر راحتي في زنزانة السجن تقريباً. لكن في خلال بضع ساعات إضافية، سينتهي كل هذا.

سأصبح غنياً.

وبعد ذلك سأختفي.

32

سيدج

تسع ساعات من الدفن

تردد صوت نقرٍ مكتوم من أعلى رأسي، فحبستُ أنفاسي. *ما هذا؟*

تكرر الصوت مرة أخرى، ثم أخرى، حتى اندمجت النقرات في هدير دافئ ومكتوم.

قطرات مطر، أدركتُ ذلك فجأة؛ لقد بدأ المطر يهطل بـ قوة.

تلا ذلك صوت إغلاق باب سيارة بـ قوة، ثم باب آخر. لابد وأن السيد **إدوارد** و**صاحب الشعر الزيتي** قد دخلا سيارتيهما للتو تجنباً لـ البلل. أجبرتُ نفسي على أخذ نفس عميق. كان صوت المطر العالي أمراً جيداً؛ فصوت قطرات الماء الهابطة على المعدن سيجعل من الصعب عليهما سماع صوت كشط إبزيم حزام السيدة **جيسا** ضد الخشب المضغوط.

لم أكن قد قلتُ شيئاً بعد بشأن كون **جيبيرز** هو سائق حافلتنا القديم، السيد **إدوارد**. كان ذلك يبدو كـ شيء يجب أن أهمس به في أذن السيدة **جيسا** بدلاً من إعلانه أمام الأطفال الآخرين، ولم أستطع إجبار نفسي على النزول والتوقف عن الكشط بعد.

كان ينتابني شعور بالفعل بأن الوقت ينفد منا.

قالت **بوني** وهى على وشك النحيب، وارتفع صوتها لأستطيع سماعها فوق قطرات المطر المتساقطة على الصفيح المعدني فوقنا:

«سيدج، لا أستطيع الإمساك بـ الدلو بـ شكل جيد. أنتِ تتحركين كثيراً وذراعاي تتعبان بحق».

قلتُ بـ تردد، لأن ساقيَّ كانتا ترتجفان بـ شدة لدرجة أنني قلقتُ من فقدان توازني وإمالة الدلو في أي ثانية:

«لنسترح لـ بضع دقائق».

كان الأمر يشبه محاولة التوازن على لوح تزلج.

سألت السيدة **جيسا**:

«هل أنتِ بخير يا سيدج؟»

فتحتُ فمي ثم أغلقتُه:

«أنا متعبة فقط».

قلتُ بـ هدوء، وأنا أصارع لـ الحفاظ على توازني بينما خفضتُ جسدي إلى وضعية القرفصاء ونزلتُ من على الدلو، حذرةً ألا أطأ على ذراعي **بوني**.

وبينما كنتُ أفعل ذلك، انطلقت في عقلي صورة مكبرة لـ وجه السيد **إدوارد** المهشم والمغطى بـ الجوارب النايلون.

تذكرتُ ما أخبرتنا به السيدة **جيسا** سابقاً، عندما كنتُ أحاول خدش الثقب في الطلاء لـ رؤية الرجلين: *إنهما لن يرتديا أقنعة لـ إخفاء وجوههما ما لم يكونا حقاً لا يريدان منا معرفة من هما؛ لأنه لو فعلنا وخرجنا من هنا لاحقاً، فسيمكننا الإبلاغ عنهما.*

لذا قررتُ أنه ربما لا ينبغي لي إخبار أي شخص، حتى السيدة **جيسا**، بما اكتشفتُه. لقد كانت تساعدنا في محاولة الهرب، لكن ماذا لو توقفت عندما تكتشف أنني أعرف من هو السيد **إدوارد؟** عبست وحاولتُ التفكير في الأمر بـ تدبر.

على عكس **بوني**، لم أكن أظن قط أن السيد **إدوارد** شرير إلى هذا الحد؛ مجرد شخص نكِد وقليل الصبر، كـ جدي عندما لا يحصل على قيلولته أو عندما ينسى شيئاً يعلم أنه كان من المفترض أن يتذكره.

كان ذلك سابقاً، على أي حال؛ فقد كانت **بوني** على حق طوال الوقت. كان السيد **إدوارد** شريراً؛ فقد وجه مسدساً إلينا جميعاً وأجبرنا على النزول إلى هذه الحفرة.

ومع ذلك، كنتُ لا أزال أُفضّل السيد **إدوارد** على **صاحب الشعر الزيتي**.

كان يبدو كـ «أخف الضررين» أو «أقل الشرين سوءاً». تلك كانت العبارة التي قالها جدي ذات مرة عندما أحرقَت أمي خبز الثوم وغلت المعكرونة أكثر من اللازم. كان يمزح فقط، لكن

تلك الكلمات كانت تطرأ في عقلي بين الحين والآخر. وكنتُ أبحث عن فرصة لـ قولها بصوت عالٍ، لكنني لم أجد الموقف المناسب قط... حتى الآن، على الأقل.

قالت السيدة **جيسا** مجدداً عندما تزحزحتُ أنا و**بوني** نحو حافة المراتب العلوية:

«سيدج؟»

قلتُ وأنا ألتصق بـ الأرض كي لا أفقد توازني أو أهوي من على الحافة كما كدتُ أفعل سابقاً:

«لحظة واحدة».

كانت كومة المراتب تتذبذب بـ شكل أشد بكثير مما كانت عليه. ومن صوت الشخير الخافت القادم من القاعدة، يبدو أن معظم الأطفال الآخرين قد استغرقوا في النوم مجدداً.

لم أكن ألومهم؛ كان رأسي يشعر بـ ضبابية ودوار شديدين لدرجة أنني بدأتُ أرى بقعاً رمادية ترقص أمام عينَي عندما أرمش في الظلام. لابد وأن الوقت قد أصبح متأخراً جداً جداً الآن.

كان جسدي يخبرني أن الظلام لم يكن فقط لأننا في حفرة، بل لأنه كان منتصف الليل.

أمسكت **بوني** بـ يدَي وهي مستلقية على بطنها وتركت الآنسة **جيسا** تساعدها على النزول من على المراتب. عصرتُ يديها

مرتين وتمسكتُ بها لـ فترة أطول قليلاً مما أحتاج، لأنني كنتُ فخورة بها لـ إمساكها بـ دلو الحمام القذر لـ كل تلك الفترة بينما نام حتى بعض الأطفال الأكبر سناً.

عندما جاء دوري للنزول من على كومة المراتب، أجبتُ السيدة **جيسا** أخيراً، وإن كنتُ قد استثنيتُ الجزء المتعلق بـ كون **جيبيرز** هو السيد **إدوارد**، على الأقل في الوقت الحالي:

«حاولتُ الاستماع إلى ما كان الرجلان يقولانه، لكن المطر جعل الأمر صعباً. إلا أنني أستطيع دفع أصابعي عبر الخشب المضغوط»، بمقدار ضئيل فقط. ويمكنني جعل الثقب أكبر. أحتاج فقط إلى الراحة لـ دقيقة».

لكنني عرفتُ أنني بحاجة إلى أكثر من دقيقة. والآن وقد أصبحتُ أقف على أرض صلبة، شعرتُ بـ تعب شديد لدرجة أنني تركتُ ساقيّ تنهاران وانهرتُ عند قدميّ السيدة **جيسا** حيث كانت **بوني** تجلس بالفعل. كانت رئتاي تؤلماني وكأنني ركضتُ ميلاً كاملاً في المدرسة دون توقف. ربما كان مجرد خيال، لكن الهواء كان يبدو أقل ثقلاً بـ مقدار ضئيل جداً الآن بعد أن صنعتُ ذاك الثقب في الخشب؛ ومما جعلني ذلك أقل خوفاً.

قالت السيدة **جيسا** وصوتها صادق وفخور لدرجة أنني فتحتُ عينَي بـ اندهاش:

«أنتِ فتاة شجاعة يا سيدج».

الطريقة التي قالت بها ذلك جعلتني أتسائل عما إذا كانت أماً، لأن صوتها كان يبدو تماماً كـ الطريقة التي تتحدث بها أمي معي ومع **بوني** عندما نفعل شيئاً يجعلها سعيدة بحق.

قلتُ وعينَاي تغلقان بالفعل:

«شكراً..، بوني؟ هل أنتِ لا تزالين مستيقظة؟»

كان المخبأ قد أصبح هادئاً من حولنا في الظلام، باستثناء صوت المزيد من الشخير والتنفس الثقيل.

همست السيدة **جيسا** بـ خفت شديد كدتُ لا أسمعها معه فوق قرقعة المطر على المعدن فوقنا:

«إنها عند قدمي. أظن أنها نامت بالفعل».

أومأتُ برأسي، متسائلةً عما إذا كان عليّ التزحزح لـ أكون بجانبها حتى لا تضطر للنوم على الأرضية المعدنية الصلبة والممتلئة بـ البروزات للمخبأ.

سألتُ، وفجأة تملكني الخوف من أنني لو تركتُ عينَي تغلقان ولو لـ ثانية واحدة، فأنني سأفتحهما لأجد أن أياماً قد مرت وأننا فقدنا فرصتنا في الهرب:

«كم من الوقت يجب أن نستريح؟»

«سأبقى مستيقظة وأوقظكِ بعد بضع ساعات. ستعملين بـ شكل أسرع عندما تكونين نشيطة، على أي حال».

صمتت لـ لحظة ثم أضافت:

«هناك ثلاثون شطيرة متبقية. أعتقد أنهما يخططان لـ إبقائنا بالأسفل هنا لـ بضعة أيام».

دمدمتُ وأنا معجبة بـ أنها فكرت في عد الشطائر:

«أنتِ جاسوسة أيضاً».

كان هناك صوت حفيف، ثم ناولتني السيدة **جيسا** كوب ماء بلاستيكياً ونصف شطيرة:

«تفضلي»، قالت بـ هدوء: «حتى تستعيدي بعضاً من قوتكِ. لقد عملتِ بـ كد شديد».

زمجرت معدتي بـ امتنان:

«شكراً».

ابتسمتُ وأخذتُ الكوب والنصف شطيرة منها، وجرعتُهما بـ سرعة لدرجة أنني كدتُ لا أستطعم زبدة الفول السوداني. ثم مسحتُ فمي وحاولتُ العثور على وضعية للنوم.

كان من المستحيل الشعور بـ الراحة على الأرض الصلبة، لكنني لم أكن لأوقظ الجميع لـ سحب مرتبة من أعلى الكومة. لذا جلستُ وأرحتُ رأسي على برج المراتب المليء بـ البروزات بينما جلست السيدة **جيسا** بيني وبين **بوني**.

لكن تلك الوضعية لم تكن مريحة جداً هي الأخرى.

صمتت السيدة **جيسا** لـ بضع ثوانٍ، ثم قالت:

«لو أردتِ، يمكنكِ وضع رأسكِ على كتفي».

قالتها وكأنه سؤال تقريباً؛ وكأنني قد أقول «لا». لكنني كنتُ ممتنة جداً لـ وجود مكان مريح للنوم، لدرجة أنني حركتُ جسدي وأرحتُ **رأسي** عليها دون حتى أن أفتح فمي لأقول «نعم».

33

جيسا

تسع ساعات من الدفن

«أنتِ فتاة شجاعة».

بدت تلك الكلمات لزجة وخاطئة في الثانية التي خرجت فيها من فمي.

لم تكن غير صحيحة؛ فـ سيدج كانت شجاعة بحق. ماذا في ذلك إذن؟

انقبض قلبي وفجأة أدركتُ أنها العبارة نفسها التي قلتُها لـ **صوف** في تلك الليلة المرعبة.

ولـ مرة واحدة، تركتُ ذاكرتي تعود بـ الكامل إلى الوراء.

سحبني **مات** إلى منتصف الممر—متجهاً نحو الدرج. أردتُ الصراخ، أردتُ التراجع والافلات، لكن ذلك كان سيجعل الأمور أسوأ فحسب. لم يكف عن غرس أصابعه في ذراعي إلا عندما سمعنا صوت **صوف** الضئيل ينادي:

«ماما؟ بابا؟»

هذه المرة، عرفتُ أنها لم تكن تتحدث وهي نائمة.

كانت خائفة، متسائلة عن سبب كون باب غرفتها مواربا، متسائلة عن مصدر أصوات الجلبة والأصوات المنخفضة القادمة من الممر.

همس **مات** في أذني، ونفسه حار ومريض، بـ رائحة الخمر الحلوة والحامضة:

«قولي لها أن تعود إلى الفراش».

قلتُ بـ صوت لم يكن يبدو كأنه ملكي على الإطلاق:

«صوف، لا بأس، كنتُ أطمئن عليكِ فقط ونسيتُ إغلاق الباب. عودي إلى الفراش يا حبيبتي».

ردت:

«لكنني حلمتُ بـ كابوس. أريد عناقاً».

خطوتُ خطوة بعيداً عن **مات**، نحو باب غرفتها الموارب، ظانةً أنه يتراجع بـ التأكيد الآن بعد أن استيقظت **صوف** وكانت خائفة. بدلاً من ذلك، شدد أصابعه على ذراعي مجدداً وضغط سيخ الحديد الخاص بـ الموقد على جانبي وهو يهمس في أذني:

«أنتِ تستخدمين ابنتك كـ درع بشري يا جيس».

نغزني بـ السيخ فابتلعتُ صرختي.

«توقفي عن هذا. أنتِ من أفسد الأمور، ليست هي».

لولا المرات التي لا تُحصى التي اتهمي فيها بـ خيانته، لما كانت لديّ أي فكرة عما يتحدث عنه. لم أكن قد فعلتُ أي شيء. لكن

قول ذلك لن يساعدني؛ كنتُ أعرف ذلك بـ الفعل، من قبل وقت طويل من بدئي بـ الاختباء تحت سرير **صوف**.

قلتُ، وأنا أفعل كل ما بوسي لـ منع الارتجاف من كلماتي:

«صوف، ماما متعبة. عودي إلى النوم يا حبيبتي. سأراكِ في الصباح».

«*لو رأيتُكِ في الصباح...*» لم أستطع منع هذه الفكرة من التبلور في ذهني قبل أن أبعدها بعيدًا.

ساد الصمت. ثم جاء ذاك الصوت الضئيل مجدداً:

«حسناً يا ماما».

استطعتُ القول بينما دفعني **مات** لـ الأمام بضع خطوات، مشيراً إلى باب **صوف**:

«أنتِ فتاة شجاعة».

مددتُ يداً وأغلقتُه ببطء، ببطء شديد، متأملةً أن تنادي مجدداً. بدلاً من ذلك، تنهدت. تنهيدة خافتة وصغيرة أخبرتني أنها عاودت النوم بـ الفعل.

الآن، عن يميني، تنهدت **بوني** في نومها، وكان صوت تنهيدتها كافياً لـ جعل ذكرى **صوف** تبدو حقيقية مجدداً لدرجة أنني، ولـ المرة الأولى منذ دهر، لم أحاول إيقاف الدموع التي انهمرت على خديّ وإلى داخل فمي، المفتوح في وعويل بلا صوت.

لـ بضع ثوانٍ فقط، تركتُ نفسي أتظاهر بأن **سيدج**—و**بوني**، التي حشرت نفسها في منتصف حضني—كانتا ابنتيّ.

حاولتُ التماسك ضد الارتعاش الذي صاحب النحيب الصامت، غير راغبة في إيقاظ أي من الأطفال، لكنهم كانوا جميعاً منهكين جداً لدرجة أنني شككتُ في أنني أستطيع البكاء طوال الليلة بـ هذه الطريقة دون إيقاظهم.

ماذا سنفعل؟ هل هناك أي طريق للخروج من هنا؟

تدفقت دموعي بـ سرعة أكبر، بـ شدة أكبر، بينما تحول الذعر الذي كان يخيم على معدتي إلى شعور ثقيل وصاعق بـ الطريقة نفسها التي حدثت في تلك الليلة في الممر عندما استدرتُ لـ مواجهة **مات**. ذاك الشعور الذي يصرخ: *اركضي، اخرجي، قاومي، افعلي شيئاً.*

باستثناء أن الاحتمالات كانت ضدنا بـ شكل صارخ، فما الذي كان بإمكاني فعله أساساً؟

لقد خسرتُ كل شيء في المرة الأخيرة التي شعرتُ فيها بـ تلك النكهة الخاصة من اليأس، وهي تحثني على فعل شيء ما.

لقد فعلتُ، وخسرتُ **صوف** الرقيقة التي كانت تحب الخيول وأساور الصداقة وآيس كريم العلكة. *هل كانت لا تزال تحب تلك الأشياء في سن التاسعة كما كانت وهي في السادسة؟* لم أكن أعلم، وتلك الفكرة جعلتني أبكي بـ حرقة أشد.

كان استعادة الحضانة أمراً ممكناً من الناحية التقنية؛ من الناحية التقنية فقط. فبقدر ما يتعلق الأمر بـ المحاكم، كان ذلك يتطلب ادخار مبلغ كافٍ من المال للانتقال من دار إعادة التأهيل إلى مسكن خاص بي. كما كان يعني اجتياز تقييم الأخصائي الاجتماعي الذي كُلف بالإشراف على زياراتنا لمدة ستة أشهر. وسرعان ما تعلمتُ أن تلك كانت الأجزاء السهلة؛ لـ سبب واحد، لم يكن أحد يريد توظيف مجرمة خرجت للتو من السجن. بدأتُ أضع اسم عائلتي قبل الزواج وعنوان أختي **ليزا**، داعيةً الله أن يجروا فقط فحوصات السجل الجنائي داخل الولاية.

عندما حصلتُ بـ الفعل على الوظيفة في *برايت بيغينينغز*، صرختُ بـ فرح.

وعندما أخبرتُ **صوف**ـــفي إحدى زياراتنا المُشرف عليهاـــ أنني سأتمكن من التقدم بـ طلب الحضانة مجدداً خلال ستة أشهر أو نحو ذلك، بكت.

لم تكن دموع فرح، على أي حال.

أكدت لي **ليزا**:

«ستتجاوز الأمر. إنها تمر بـ وقت عصيب للغاية فقط. المعالجة تقول إنها تتحسن كثيراً. على **صوف** إستعاب كل هذا بـ طريقتها الخاصة».

كانت طريقة جميلة لـ قول حقيقة بشعة. والحقيقة كانت بشعة جداً، جداً.

كانت **صوف** تعيش مع **ليزا** في أيداهو طوال السنوات الثلاث التي قضيتُها في السجن في يوتا. وبقدر ما كنتُ أعشق **ليزا** لـ ذلك—ولكل شيء آخر فعلتْه من أجلي— كنت أكرهها سراً بسبب ذلك أيضاً. لأن الرسائل الوحيدة التي تلقيتُها أثناء وجودي في السجن كانت مكتوبة بـ خط يدها هي، لا خط **صوف**. كنتُ أحب وأكره الصور التي رأيتُها لـ ابنتي الصغيرة، وهي تكبر وتصبح أكثر نضجاً وأبعد بـ كل شهر يمر، مبتسمةً لـ أطفال أختي وأختي كـ طوق نجاة.

لم تكن **صوف** ترغب قط في التحدث إليّ عبر الهاتف؛ ولا حتى مرة واحدة، طوال السنوات الثلاث التي قضيتُها محبوسة.

ضرب المطر بـ قوة أكبر فوقنا على اللوح المعدني الذي يغطي المخبأ، ناقراً بـ صوت أعلى وأشد عنفاً.

وبكيتُ بـ شكل أشد عنفاً أيضاً، تاركةً الصوت يغطي على نحيبي.

لم أكن قد حكيتُ قصة ما فعلتُه في تلك الليلة إلا مرة واحدة فقط؛ في اليوم الثالث من جلسة الاستماع الاستكشافية قبل المحاكمة، عندما غيرتُ إقراري إلى مذنبة.

لم تكن الأمور تبدو جيدة بالنسبة لي؛ كانت هيئة المحلفين ستدينني. لم يكن هناك شهود يمكنهم الشهادة بـ رؤية أدلة على التعذيب الجسدي؛ فقد غطيتُ كدماتي بـ شكل جيد للغاية. وأما بالنسبة للانتهاك العاطفي؟ فكانت كلمتي ضد كلمة رجل ميت.

في ذلك الصباح، عرض عليّ الادعاء صفقة إقرار بـ الذنب مع مهلة أربع ساعات: ثلاثة أعوام في السجن، مقابل احتمال السجن مدى الحياة لو ذهبت القضية إلى المحاكمة.

حثني محاماي على قبولها؛ فلم يريا صفقة بـ تلك جودة من قبل. كانت تعني أن ابنتي—وهي شاهدة لـ الادعاء—لن تُجبر على الشهادة ضد أمها في محاكمة قد تستمر لـ أشهر. كانت هي الوحيدة التي رأت ما حدث في تلك الليلة.

وكان قبول الصفقة يعني أنني سأخرج من السجن وهي لا تزال في المدرسة الابتدائية. أما البديل الآخر—وهو ألا أراها مجدداً أبداً—فكان ذلك غير قابل للتفكير.

لذا قبلتُ الصفقة. ثم وقفتُ أمام القاضي في جلسة الإقرار بـ الذنب وأخبرتُه بكل ما حدث في تلك الليلة. كل شيء بشع، مقابل تهمة القتل العمد وتأدية ثلاثة أعوام في السجن. أخبرتُه كيف تراجعتُ بعيداً عن **مات** عندما كنا في منتصف الدرج، عندما غرس سيخ الموقد في جانبي بـ قوة كافية جعلتني أتشنج. وكيف

فعل ذلك مجدداً، بـ قوة أشد، كأنه يثبت نقطة ما: «*اخرسي، لقد أجلتِ هذا لـ فترة طويلة بـ القدر الكافي*».

وقد عرفت حينها، في قرارة نفسي، أنني ربما أكون قد ودّعت ابنتي للمرة الأخيرة.

وكان ذلك كافياً ليجعل الذعر يشتعل بداخلي بشدة، لدرجة أنني انتزعت عصا الموقد قبل أن أدرك تماماً ما كنت أفعله.

تمسكت بدرابزين الدرج بيدي الحرة، متكئة على الحائط وراكلةً **مات** بعنف، فاصطدمت ركلتي بقوة في فخذه.

لم أكن أستهدف ذلك المكان.

كنت أحاول فقط إبعاده عني، محاولةً إفساح مساحة كافية حتى أتمكن من الركض عائدةً إلى الطابق العلوي وأغلق على نفسي في غرفة النوم مع هاتفي الخلوي، وأتصل بالشرطة، أي شيء إلا أن أسمح لنفسي بأن أُجرَّ إلى الطابق السفلي.

أصدر **مات** صوتاً غريباً وعالياً، وعرفتُ لـ التو أنني آلمتُه وأحرجتُه في الوقت نفسه.

بينما كان ثملًا؛ وبينما كان بـ الفعل في مهمة لـ عقابي.

طار سيخ الموقد نحو الجدار بضجة عالية بينما تعثر **مات** خطوة على درجة السلم. وهبط المقبض عند قدميّ.

وبينما مد يده للوصول إليه، استنشق نفساً وقال الكلمات التي رفعت مستوى ذعري إلى أقصى درجة:

«سأقتلكِ بحق الجحيم على هذا».
ترك ذراعي وهو يئن، منحنيًا إلى النصف على الدرج.
انحنيت وأمسكت بعصا الموقد.
لوحتُ بأقصى ما أستطيع، عالمةً أن لديّ فرصة واحدة قبل أن يسترده. لم أرد ضربه؛ لم أرد إيذاءه. كان الأمر وكأنني أراقب نفسي من مكان ما خارج جسدي، كما في برنامج تلفزيوني.
ضرب الطرف الحاد رقبته، ممزقاً الجلد الناعم حيث كان نبضه يقفز بـ سرعة.
أصدر صوت خرخرة:
«جيسا، توقفي..»
ومد يده للوصول إلى السيخ. دفعته بعيداً، ملاحِظةً قطرات حمراء صغيرة تطير نحوي من أثر اندفاع الدم المفاجئ الذي انفتح عند رقبته.
حدقتُ بـ رعب فيما فعلتُه.
وبينما كان يسقط، وقبل أن يصدر صوت الطقطقة عندما كسر عنقه، صرخ بـ اسمي لـ مرة أخيرة.
كاد صوته أن يطغى على الصوت الخافت الذي كان يصرخ من أعلى الدرج:
«أبي!»

مغلق.

أوقفت سيارتي في الموقف الأمامي التابع للاتحاد الائتماني وظللت أحدق في اللافتة المعلقة على الباب حتى تلاشت الحروف السوداء أمام عيني. كان هناك أشخاص يتحركون في الداخل، موظفون يرتدون قمصان بولو ذات ياقات خضراء، يستعدون لبدء يومهم. كانت الساعة 8:45 صباحًا فقط، ولم يكن البنك يفتح أبوابه إلا في الساعة 9:00 صباحًا.

توسلتُ إليهم في عقلي كلما مر أحدهم بـ جوار الباب الزجاجي لـ المدخل: *«افتحوا قبل الموعد بـ بضع دقائق فقط اليوم، أرجوكم»*.

كان وجهي يبدو منتفخاً ومستنزَفاً في الوقت نفسه؛ كنتُ مجرد قشرة مبتلة ومتهالكة لـ الشخص الذي كنتُه قبل يومين فقط.

لم أنم الليلة الماضية؛ ولا حتى لـ بضع دقائق. لأنني عندما كنتُ أغلق عينَي، لم أكن أرى سوى وجهَي **سيدج** و**بوني**. لم أكن أرى سوى نظرة الهزيمة والخيانة على وجه أبي عندما تركتُه في مؤسسة *« القلوب العزيزة »*، موعدةً إياه بـ الاتصال به في الصباح. ولم أكن أستطيع سوى تخيل المانشيتات التي قرأتُها

عن عمليات الخطف لـ طلب الفدية التي انتهت بـ الفشل، والقصص التي رواها لي أبي عندما كان يتمنى لو أنه اتبع حدسه بدلاً من البروتوكول الرسمية.

«*استمعي لحدسك يا شين، وتباً لـ الباقي*»؛ كان هذا ما أواصل تخيل صوت أبي وهو يقوله لي، وهي كلمات كررها أمامي مئات المرات. كنتُ أريد فقط عودة طفلتيّ إلى المنزل سالمتين. رمشتُ بـ قوة، محاولةً التركيز ومحاولةً التظاهر بأنني لستُ على وشك اختلاس أموال السندات الخاصة بـ المدينة بينما ابنتَاي محتجزتان لـ طلب فدية لا يعلم إلا الله مكانها.

تركتُ نفسي أنظر إلى ساعة لوحة القيادة لـ المرة المئة في ذلك الصباح. الثامنة وسبع وأربعون دقيقة. كل شيء كان يتحرك بـ بطء شديد وبسرعة فائقة في الوقت نفسه، كـ ذلك الشعور الدوار الذي يسبق هبوط قطار الملاهي لـ الأسفل في أول منحدر.

عن يميني، دخلت سيارة أخرى لـ تركن في الموقف المجاور لي بـ شكل مباشر. امرأة مسنة بـ رفقتها كلب أسود صغير يربض في أحضانها. أطفأت سيارتها وفتشت في حقيبتها، محدقةً بـ عينين مضمومتين نحو يافطة «مغلق». شحتُ بـ بصري بعيداً وفككتُ حزام الأمان، مستعدةً لـ التحرك، غير راغبة في المخاطرة بـ ألا أكون أول عميلة تدخل البنك.

مبقيةً إحدى عينَي على العجوز، فتحتُ أقفال سيارتي ومددتُ يدي لـ جلب المجلد الذي أعددتُه هذا الصباح، والمتضمن كل الأدلة التي سأحتاجها لـ سحب **9,758 دولارات** من البنك الأول— وهو المبلغ المحدد للعرض الذي أكدتُه لشراء معدات لعب جديدة لمدرسة لونغفيلو الابتدائية.

لم يكن المبلغ يصل إلى عشرة آلاف دولار بالضبط. وستكون الحال مماثلة في البنوك الخمسة الأخرى. وفي النهاية، سيكون لدي عجز قدره 8,752 دولارًا. لكن لم تكن هناك طريقة أخرى لمواءمة الحسابات والميزانية وعروض الموردين.

كان لديّ **ثلاثة آلاف دولار** من مالي الخاص في صندوق توفير لـ الطوارئ؛ سأسحبها في محطتي الأخيرة لـ هذا اليوم. ومع ذلك، فحتى هذا السحب سيترك لديّ عجزا يزيد عن خمسة آلاف دولار.

أخبرتُ نفسي، غير راغبة في التفكير في حقيقة أنني ألامس الفشل بـ الفعل: *«فقط أنجزي الأمر. سيكون كافياً، وستجدين حلاً ما»*.

جذبت حركة مفاجئة عن يميني انتباهي، فرفعتُ رأسي في الوقت المناسب لـ أرى المرأة المسنة تفتح باب سيارتها.

دون تردد، خطفتُ مجلدي وحقيبتي، وفتحتُ باب سيارتي، وركضتُ المسافة القصيرة نحو الباب الأمامي لـ اتحاد الائتمان.

خلفي، نبح الكلب ونهرتْه المرأة بـ حدة ليصمت. ثم تمتمت لنفسها بـ صوت خفيض—لكن ليس خافضاً بـ القدر الذي يمنعني من سماعها:

«تربية سيئة! لم يعد أحد يحترم كبار السن هذه الأيام، أليس كذلك؟»

كززتُ على فكي وتجاهلتُها، رافضةً الاستدارة والمواجهة بـ العينين معها. بدلاً من ذلك، راجعتُ في ذهني ما سأقوله عندما تنقلب تلك اليافطة أخيراً إلى «مفتوح»:

ادخلي لـ الداخل.

أرِيهم بطاقة هويتك.

ابتسمي واملأي استمارة السحب.

أخبريهم أنكِ بـ خير حال عندما يسألون.

قدمي لهم المجلد الذي يحتوي على مصاريف ملعب لونغفيلو لو ترددوا في أي شيء.

اخرجي بـ السرعة القصوى واذهبي إلى البنك التالي.

لم يكن هناك أي سبب يَدعوني للظن بأن هذا سيكون أي شيء سوى أمر سهل بـ الكامل. لقد سحبتُ مبالغ أكبر من هذه من قبل، مرات عديدة. حتى أنني زوّرتُ توقيع رئيسي في العمل من قبل—بـ إذن منه—لـ تلبية شرط «التوقيع الثنائي» الذي كان يبدو لي دائماً كـ اختصار لـ الروتين المعقد. بـ بصفتي أمينة

صندوق المدينة، كنتُ مسؤولة عن حلقة لا تتوقف من المدفوعات والبائعين والمشاريع التي تتطلب مني الذهاب إلى البنك مرتين في الأسبوع على الأقل لـ إيداع أو سحب مبالغ مختلفة، بـ شكل شيكات مصرفية عادةً، لكن المبالغ النقدية لم تكن أمراً غريباً.

اقتربت المرأة خلفي بضعة إنشات من ظهري، ولا تزال تتأفأف لنفسها. تحركتُ لـ الأمام أنا الأخرى، حتى أصبحتُ قريبة جداً من الأبواب لدرجة أنني كنتُ ألتصق بـ الزجاج تقريباً. رفع موظف صراف يبدو في الخامسة والعشرين من عمره رأسه من مكانه خلف الطاولة وتلاقت عينانا عبر الزجاج. ابتسمتُ بأقصى ما أستطيع، متأملةً أن يدعوه ذلك للخروج وفتح الباب. اكتفى بـ الابتسام رداً عليّ، ثم استأنف ما كان يفعله خلف الطاولة، مأخوذاً بـ وقته في تحريك الأوراق والالتفاف لـ الدردشة مع زميل عمل.

أخرجتُ نفساً موزوناً لكنني لم أدع ابتسامتي تسقط. أدرتُ جسدي حتى لا ترى المرأة خلفي هاتفي، لأتمكن من التحقق من الوقت مجدداً.

الثامنة وإحدى وخمسون دقيقة.

لم تكن هناك أي طريقة لـ تمضية هذا اليوم بـ سلام؛ كان هذا تعذيباً.

وبدافع الرغبة العارمة في جعل الوقت يمر بـ شكل أسرع، فتحتُ هاتفي وتصفحتُ المكالمات الفائتة والرسائل النصية التي تجاهلتُها منذ الصباح. كانت هناك رسالة قصيرة من مركز «*برايت بيغينينغز*» تعد بـ تقديم المزيد من التحديثات وتتوسل إلى أولياء الأمور الامتناع عن القدوم إلى المركز الترفيهي لـ محاولة الحصول على معلومات. وكانت هناك مكالمة فائتة من ضابط الشرطة الذي تحدثتُ معه في موقف السيارات بالأمس، تلتها رسالة نصية تطلب مني الحضور إلى المركز في أقرب وقت يناسبني لـ إجراء مقابلة أكثر تفصيلاً.

تلك الرسالة جعلت دمي يبرد في عروقي.

لو كان ذلك الضابط يعلم فقط بما أفعله الآن!

سرَت قشعريرة مألوفة من الشك في ظهري: *هل أفعل الشيء الصحيح؟* انطلق السؤال في عقلي مجدداً، لـ يجد اليأس المذعور نفسه كـ رد حاسم.

كانت الرسالة الأخيرة طويلة من «شيز» الجار المجاور، يعبر فيها عن مدى أسفه لما حدث لـ الفتاتين، ويطلب مني إخباره لو احتجتُ أي مساعدة بـ شأن أبي.

قبض عليّ الشعور بـ الذنب بـ قوة فى حلقي، فأخذتُ نفساً عميقاً آخر وأغلقتُ هاتفي. دقيقتان على الموعد.

سأتصل بـ مؤسسة *«القلوب العزيزة»* في طريقي إلى البنك التالي.

رفع موظف الصراف خلف الطاولة رأسه مجدداً، وتلاقت عينانا بـ الخطأ عبر الزجاج لـ المرة الثانية. انحنى فمه لـ الأسفل بـ قدر ضئيل جداً. ودون تفكير، رفعتُ يدي الحرة في الهواء ولوحتُ بـ جنون:

«هل فتحتم؟»

ناديتُ، رغم أنها كانت لا تزال الثامنة وست وخمسون دقيقة— وربما لم يكن ليستطيع سماعي عبر الباب المغلق.

ألقى نظرة على الساعة المعلقة على الجدار البعيد، ثم ضحك وقال شيئاً لـ زميله بـ طريقة جعلتني أدرك أن هذا الأمر يحدث بـ شكل متكرر على الأرجح.

ثم وضع الورقة التي كان يمسك بها في إحدى يديه، وخطا واقفاً من خلف الطاولة، ولوح لي لـ الدخول. لابد وأن أقفال الباب قد فُتحت عن بُعد، لأن القفل أصدر صوت «تك».

قلتُ بصوت عالٍ، ناسيةً أن المرأة العجوز كانت لا تزال على بُعد بضع إنشات خلفي:

«شكراً يا رب!»

استنكرت العجوز وتمتمت مجدداً:

«تربية سيئة!»

لكنني كنتُ أمد يدي بـ الفعل لـ الإمساك بـ مقبض الباب لـ الدخول.

دلفت بـ سرعة وأنا أبتسم بـ أكبر قدر ممكن:

«شكراً جزيلاً، حقاً، أنا في عجلة من أمري هذا الصباح بـ شكل مجنون!»

قال وهو يلوح لي لـ التوجه نحو الطاولة التي كان يقف خلفها قبل لحظات:

«لا مشكلة. كيف يمكنني مساعدتكِ؟»

أخبرتُه بـ ما تدربتُ عليه، فخورة ومصدومة بـ مدى سهولة تدفق الأكاذيب على لساني.

كل ما كان يهم هو أن ينجح هذا الأمر.

استغرق الأمر منه حوالي خمس دقائق فقط لـ حشو حزمة النقدية في ظرف وتسليمها لي، ولا يزال يبتسم، عبر الطاولة:

«هل هناك أي شيء آخر يمكنني مساعدتكِ به يا سيدة هالفيرسون؟»

قلت وأنا أحشر المجلد تحت ذراعي:

«هذا كل شيء. وبحق، شكراً مجدداً. أنتَ منقذ حياة».

كادت الكلمات الأخيرة أن تعلق في حلقي.

لم أكن أقصد تلك الكلمات بـ شكل حرفي في حياتي قط كما قصدتُها في تلك اللحظة.

35

تيد

عندما استيقظتُ على صوت الإطارات وهي تدور على طريق المحجر، كانت أول فكرة خطر ببالي هي «لقد انتهى الأمر».

هل ذهبت **شينا هالفيرسون** إلى الشرطة؟ أم أنني أخطأتُ وتركتُ بصمة إصبع على رسالة الفدية بـ طريقة ما، رغم أنني كنتُ أرتدي القفازات كلما لمستُها؟ *هل يمكن للشرطة فحص البصمات بـ هذه السرعة؟ وكيف سيعرفون طريقهم إلينا هنا على أي حال؟*

تباً لهذا الخراء! جلستُ ونظرتُ في المرآة الخلفية—لا شيء بعد—ثم نظرتُ نحو **أندي** في سيارته السيفيك—كان لا يزال نائماً:

«يا رجل، استيقظ بحق الجحيم!»

هسستُ عبر الشق المفتوح في نافذة الشاحنة:

«هناك شخص ما قادم!»

لـ ثانية واحدة، فكرتُ في أدار المفتاح في مقود الشاحنة والفرار تاركاً **أندي** يدبر أمره بنفسه. لكن كانت هناك مشكلتان في تلك الخطة: الأولى هي مبدل السرعة اليدوي، والثانية هي أن

الشاحنة كانت متجهة في الاتجاه الخاطئ لـ الهرب؛ ففي غضون نصف ميل، ينتهي هذا القطاع من المحجر عند حفرة المكب القديم—والتي أُغلقت قبل عامين بعد أن امتلأت.

هززتُ رأسي وتمتمتُ لنفسي:

«لا، فكّر!»

ضغطتُ زر التشغيل في هاتفي وتصفحتُ العشرات من الإشعارات التي ضبطتُها لـ تتلقى تحديثات الأخبار الجنائية من محطة KTRB.

كان الإشعار الأخير لا يزال يقول: «**تحديث: العثور على حافلة مدرسة نورثريدج الابتدائية، والطلاب المخطوفون لا يزالون مفقودين**». لم يكن هناك أي ذكر لي أو لـ **أندي**. لكن هل كانوا سيعلنون ذلك حقاً في الأخبار المحلية الرديئة لو كانوا يعلمون أننا نحن الفاعلون؟ خاصة وأنهم لم يجدونا بعد؟

كانت أصوات الإطارات تزداد صخباً. استيقظ **أندي** الآن، ينظر إليّ بـ تلك النظرة الغبية كـ نظرة غزال مذهول بـ الأضواء عندما لا يدري ما يفعل.

أمسكت بعجلة القيادة وبدأت أحدق، منتظراً أن ألمح السيارة على الطريق المقابل قبل أن أفعل أي شيء أحمق.

استرخت أصابعي عندما ظهرت شاحنة عجوز يدعى **بول سكاغ** في المدى، وهي تطرطش عبر البرك التي تشكلت في

الأخاديد الترابية طوال الليلة بسب المطر. كان **بول** مزعجاً للغاية، لكنه كان ينشغل بـ شؤونه الخاصة ولا يتدخل فيما لا يعنيه.

تمتمتُ وأنا ألقي نظرة إلى **أندي**، الذي كان يفتح باب السيفيك بالفعل ويلوح بـ يده:

«تباً لهذا الخراء!»

أسرعتُ بـ الخروج من الشاحنة لـ الانضمام إليه. كنا قد خططنا لـ احتمال كـ هذا—أن يتوقف شخص ما في المحجر خلال عطلة نهاية الأسبوع لـ سبب ما—لكنني لم أكن أرغب في ترك الارتجال لـ **أندي**؛ ليس بعد ما فعله الليلة الماضية.

انتقلت عينا **بول**، وكأنهما زبيبتان تحت حواجب رمادية نحيفة في وجهه المجعد، مني إلى **أندي**. لم يكن يبدو عليه الشك على أي حال؛ بل كان يبدو مسروراً لـ رؤيتنا، وهو ما كان بـ نفس قدر السوء تقريباً.

همستُ لـ **أندي** من طرف فمي وانا ارفع يدي لـ التلويح لـ **بول**:

«لا تقل أي شيء غبي».

زمجر **أندي**:

«تباً لك».

أجبرتُ نفسي على عدم النظر إلى لوح الصفيح المعدني الملقى على الأرض على بعد عشرين قدماً، بينما توقف **بول** بـ شاحنته

التاكوما الزرقاء اللامعة—فخره واعتزازه—على بعد بضعة أقدام منا، وأدار النافذة لـ الأسفل وهو يغمض عينيه في الشمس: «لم أتوقع رؤية أحمقين مثلكما هنا هذا الصباح».

أدرت عينيّ وأجبرتُ نفسي على إطلاق ضحكة بدت حقيقية بـ القدر الكافي لـ أذنيّ. رفعتُ قميصي لأريه مسدسي ثم أشرتُ إلى الشاحنة وعلب البيرة الملقاة على الأرض التي لم أكلف نفسي عناء تنظيفها من الليلة الماضية:

«ليلة جمعة بأسلوب الريفيين. جئنا إلى هنا لـ صيد الجرذان البرية وثملنا بـ الكامل».

رفعتُ ذراعيّ وكأنني أقول: *ألم نمر جميعاً بـ هذا من قبل؟* وبما أنها ولاية أيداهو، فمن المرجح أن **بول** قد مر بذلك؛ فقد كان يعمل في المحجر منذ أن افتتحه والد **أندي** قبل عشرين عاماً.

نكزتُ **أندي** في جانبه وأعطيتُه نظرة، فابتسم وقال:

«لا تقل أي شيء لـ والدي، حسناً؟ لديه نقطة ضعف تجاه هذه القوارض».

كان ذلك صحيحاً؛ فقد كانت دعابة متداولة بين العمال في المحجر؛ إذ كان والد **أندي** يضغط على الفرامل كلما رأى تلك القوارض التي بـ حجم القطط، بينما كان الجميع يزيدون السرعة. وفي العام الماضي، قام **بول** بـ تحنيط أحدها ووضعه في مكتبه.

ضحك **بول** وكأن هذا كان أطرف شيء سمعه في حياته:

«هل اصطدتم أي شيء؟»

سأل، وكاد قلبي ينبض خارجاً من صدري عندما ألقى نظرة خاطفة نحو الصفيح المعدني. بدأ العرق يتصبب على ظهر سترتي.

قلتُ وأنا أجبر نفسي على ضحكة أخرى:

«كلا، حصدنا من البيرة أكثر مما حصدنا من القوارض الليلة الماضية. قد نلبث هنا لـ بعض الوقت ونحاول مجدداً».

أومأ **بول** برأسه وأخرج رأسه من النافذة لـ فترة أطول قليلاً. لـ ثانية واحدة، خفتُ من أن يطلب الانضمام إلينا، أو أن يعرض عليه **أندي** ذلك. لكنه قال بعد ذلك:

«حسن حسناً، حظاً موفقاً. لن أقول شيئاً. اصطد واحداً من أجلي، اتفقنا؟ أخبرتُ ابني أنني سأحضر له بعض الصخور غير النافعة لـ حديقته. لا تخبرا والدك عن ذلك أيضاً».

قال لـ **أندي** وهو يغمز بـ عينه، وأمال ذقنه نحو غطاء الصندوق الخلفي لـ شاحنته.

ابتسم **أندي** كـ الأبله، وابتسمتُ أنا أيضاً:

«وصلت الفكرة!»

ثم لوح **بول** وقاد شاحنته ماراً بنا، وأخيراً تركتُ نفسي أنظر نحو لوح الصفيح المعدني.

أخرجتُ نفساً عميقاً كـ الزفير:

«أتظن أن علينا الاطمئنان على الأطفال؟»

استنكر **أندي**:

«أجل، لنفتحه بالظبط في الوقت الذي يعود فيه بول ماراً بنا ويرانا نفعل ذلك! أنت جبان جداً بـ شأن هؤلاء الصغار».

أدرت عينيّ، لكنه كان على حق. لو أنهم تبللوا قليلاً بالأسفل هناك، فسوف يجفون. ولو سار كل شيء كما هو مخطط له مع الفدية لاحقاً هذه الليلة، فسيعودون إلى منازلهم بحلول صباح الغد.

قال **أندي** وهو يحك اسفل رأسه وينظر في الاتجاه الذي اهتزت فيه شاحنة **بول** في الطريق:

«أعتقد أنه يتوجب علينا صيد بعض القوارض الآن».

قلتُ:

«كلا، سيكون هناك الكثير من الضوضاء. لنشرب بضع علب من البيرة. هناك شطائر فوق المبرد أيضاً. لدينا اليوم بطوله قبل أن نضطر لـ المغادرة إلى "ليتل إيدي" على أي حال».

الحقيقة هي أنه كانت لديّ نقطة ضعف تجاه تلك القوارض أيضاً، ليس لأنني سأقول ذلك لـ **أندي** لأنه سينادني بـ «الجبان» مجدداً فحسب.

صاح **أندي** وهو يبتعد دون أن يخبرني أنني يجب أن أكون من يجلب البيرة من المبرد في السقيفة:

« فطور الأبطال لزوج من الملوك اللعينين »

كنا كلينا في مزاج أفضل هذا الصباح، بفضل بضع ساعات من النوم.

سحبتُ هاتفي وتحققتُ من الوقت—ومن إشعارات الأخبار.

ظهرت عبارة «الطلاب المختطفون ما زالوا في عداد المفقودين» على الشاشة داخل مربع تنبيه صغير.

وكأنما لـ تأكيد تلك النقطة، جاءت خبطة مكتومة من اتجاه المخبأ.

لم تكن تلك هي الارتطام أو الخبطة الأولى التي أسمعها؛ فهناك أحد عشر شخصاً بالأسفل هناك على أي حال، وكانت خافتة لدرجة أنه حتى لو سمعها **بول**، لما كانت لتثير انتباهه ما لم يكن يستمع إليها بـ اهتمام. ومع ذلك، جعل الصوت كتفيّ المتشنجتين ترتفعان أكثر نحو أذنيّ.

طمأنتُ نفسي أن **بول** سيأخذ صخوره ويرحل قريباً، دافعاً لـ الأسفل إحساساً متزايداً بـ عدم الراحة. كانت الشمس قد عادت للظهور، وتوقف المطر، وكان علينا فقط الثبات لـ بضع ساعات إضافية.

وبعد ذلك، يمكننا الحصول على الفدية—وإنهاء ما بدأناه.

36

سيدج

تسعة عشر ساعة من الدفن

بعد هطول المطر، أصبحت الرائحة في السجن تحت الأرض أسوأ بكثير مما كانت عليه من قبل.

كان دلو الحمام الوحيد المتبقي على الأرض قد امتلأ لـ آخره، وسكب بعض ما فيه على الأرض. كان الهواء حاراً ورطباً، ورائحته تشبه إحدى مراحيض المخيم التي كان علينا استخدامها عندما ذهبنا إلى «غرايباك جولش» مع أمي، وكانت **بوني** خائفة جداً حينها من أن تسقط فيها.

لم يكن أحد منا يعرف كم لبثنا نائمين، ولا حتى السيدة **جيسا**. *هل نحن في الصباح أم في الليل الآن؟* لم يكن أحد يملك ساعة أو هاتفاً. عندما استيقظتُ ورأسي على حضنها ويد **بوني** ملتفة حول يدي، لم أتحرك على الفور. كان جسدي كله يؤلمني من النبش في الخشب المضغوط، وكنتُ لا أزال متعبة للغاية. لكن سماع صوت قرقعة أحذية الرجال وهي تطأ الأرض فوقنا أفاقني لـ التو.

هسستُ بـ جنون:

«ارفعوني إلى قمة المراتب!»

وساعدني الجميع.

مرت سيارة بعد ذلك بـ وقت قصير جداً. ومن قمة كومة المراتب، استطعتُ سماع السيد **إدوارد** و**صاحب الشعر الزيتي** يتحدثان مع شخص يدعى **بول** عن صيد «القوارض البرية».

في بداية الأمر، أردتُ الصراخ والعويل؛ فماذا لو كان **بول** رجلاً طيباً؟

ثم بدأتُ أفكر في أنه ربما كانت كلمة « القوارض البرية » تعنينا نحن بالأسفل في هذه الحفرة!

لو بدأنا جميعاً بـ الصراخ، فسيفتحون الحفرة وربما يرون ما كنا نفعل بإبزيم الحزام.

مجرد التفكير في ذلك جعلني أعيد جسدي المتعب والمؤلم فوق دلو الحمام وأبدأ بـ كشط الخشب بـ حدة أشد.

هذه المرة، تناوب الأطفال الآخرون على الإمساك بـ الدلو بينما كنتُ أكشط أنا.

بعد أن ابتعدت سيارة **بول**، لم أستطع سماع الكثير مما كان السيد **إدوارد** و**صاحب الشعر الزيتي** يقولانه لـ بعضهما. كان الأمر يبدو في معظمه كأنهما يحطمان علب المشروبات الغازية—أو ربما علب البيرة—ويتجشآن ويضحكان.

كنتُ أقول لهما في عقلي: *«اذهبا بعيداً، ارحلا»*. لكنهما لم يفعلا قط.

لذا واصلتُ الكشط، شظية تلو الأخرى، بـ أقصى هدوء مستطاع لـ فترة بدت وكأنها أبدية.

بعد فترة، بدأتُ أحسب الوقت بـ عدد الخدوش التي أحدثُها في الخشب ، لأن أي شيء آخر كان مستحيلاً تقريباً.

عندما وصلتُ إلى ثلاثمئة، بدأت **روز**، التي كانت تتولى دور الإمساك بـ الدلو، بـ البكاء.

قالت في همس، ثم بـ صوت أعلى:

«لا أستطيع التنفس بـ شكل جيد. سنموت، أليس كذلك؟ هذا لا ينفع، سنموت!»

اهتز الدلو، وانقلبت معدتي بينما كنتُ أحاول استعادة توازني مجدداً.

اخترق صوت السيدة **جيسا** الظلام:

«روز، لا بأس يا حبيبتي. أنتِ تقومين بـ عمل جيد جداً، لكنني أظن أنكِ بحاجة إلى استراحة. لنتشارك بعض الشطائر الأخرى، حسناً؟ تذكري كم هي لذيذة. سيدج، هل تحتاجين إلى استراحة؟»

كل ما استطعتُ التفكير فيه هو أن السيدة **جيسا** كانت تبدو تماماً كـ أمي، لذا أردتُ البكاء مجدداً أنا أيضاً. كنتُ أواصل التفكير

في أنني قريبة من صنع ثقب في الخشب بـ حجم كافٍ لـ دفع يدي عبره، لكن الأمر كان أصعب مما ظننتُه. وكنتُ أظن أصلاً أنه سيكون صعباً جداً.

كان رأسي يشعر بـ الدوار، وكانت هناك بضع مرات تيقنتُ فيها أنني سأسقط وأهوي فوق **روز** أو أياً كان من يتولى دور الإمساك بـ الدلو. لذا لم أجادل السيدة **جيسا** عندما سألتني إن كنتُ بحاجة إلى استراحة. «*لـ بضع دقائق فقط*»، أخبرتُ نفسي بـ حزم. لم تكن «هاريت» لتأخذ استراحة أطول من ذلك، ولن أفعل أنا أيضاً.

سألت **بوني** بينما كنا نأكل قطع الشطائر التي وزعتها السيدة **جيسا**:

«هل يمكننا لعب لعبة العطلة مجدداً؟»

قالت **شارلوت** بـ حماس، وكان أنفها يبدو مسدوداً وصوتها مبحوحاً كأنها كانت تبكي مجدداً:

«أجل، لكنني لا أتذكر كيف تُلعَب».

ردت **بوني**:

«حسناً، تقولين فقط شيئاً تريدين إحضاره معكِ في العطلة، ثم...»

ثم توقفت وتابعت:

«لا أعرف كيف أشرحها. سيدج، هل ستلعبين معنا؟»

عقدت حاجبي وهززتُ رأسي، رغم أنه لم يكن أحد يستطيع رؤيتي في الظلام. كان الأمر يبدو وكأن عقلي يتحول إلى عجينة. كان الهواء الحار والكريه يمتص الحياة من الجميع.كم *لبثنا هنا بالأسفل؟ يوماً؟ أكثر من ذلك؟*

دمدمتُ وأنا أجلس مستندةً إلى كومة المراتب وأضع كسرة من الشطيرة في فمي:

«لا أريد لعب أي ألعاب بعد الآن».

كان كشط ذلك الخشب المضغوط لـ كل تلك الفترة يستنزف كل ذرة طاقة لديّ. كانت يداي تشعران وكأنهما بثور معبأة بـ الفطريات.

قالت **بوني** دون شجار:

«حسناً».

وهذا جعلني أشعر بالسوء، لكنني لم أستطع أن أجد الكلمات المناسبة.

ثم تحدثت السيدة **جيسا**:

«لديّ لعبة» وتابعت: «لـ من يريد اللعب بينما نستريح. هل يمكنكم جميعاً صنع دائرة حول المراتب والتشابك بـ الأيدي؟»

وبينما تزحزحتُ بعيداً عن المراتب، أضافت السيدة **جيسا**:

«سيدج، سُترتي بـ جوار الشطائر لو أردتِ إراحة رأسكِ عليها لـ فترة».

قلتُ:

«شكراً».

متأملةً أن تفهم أنني قصدتُ ذلك لـ أكثر من مجرد السترة. كانت السيدة **جيسا** تبدو كـ شخص بالغ بحق الآن؛ مما يعني أنني أستطيع العودة كـ طفلة مجدداً، حتى لو كنتُ لا أزال أنا من يتوجب عليه كشط الخشب لأنني الوحيدة التي تستطيع الوصول إليه.

بقيت عيني مغلقتين وأنا أستمع إلى صوت الأجساد وهي تتحرك ببطء حول كومة المراتب. كانت السيدة جيسا تقوم بترتيب الأطفال في صفّ — الجميع ما عداي، على حد علمي. تنفستُ لـ الداخل ولـ الخارج بـ أقصى بطء مستطاع وحاولتُ التظاهر بأنني في مكان آخر، حتى وأنا أستمع بـ إحدى أذنيّ.

قالت السيدة **جيسا**:

«حسناً، هذه لعبة كنتُ ألعبُها مع ابنتي عندما لا تكون بـ خير حال».

وطريقة قولها ذلك جعلتني أتساءل عما إذا كانت لا تزال لديها ابنة.

«سنحكي قصة، كلمة واحدة في كل مرة. يمكنك قول أي كلمة تريدها..»

سألت **آفا**:

«أي كلمة؟»

أكدت السيدة **جيسا**:

«أي كلمة».

سأل **كيد** بـ وقار، مما أثار بضع ضحكات خافتة:

«ماذا عن الكلمات السيئة؟»

قال **بين** بـ أسلوب العارف بكل شيء:

«أجل، لا يوجد شتم في الحافلة».

ضحكت السيدة **جيسا**:

«حسناً... لسنا في الحافلة بعد الآن، لذا قولوا أي كلمة تريدونها، حسناً؟ فقط لا تخبروا أولياء أموركم».

جعل ذلك الجميع يضحكون مجدداً.

«سأبدأ أنا. وبمجرد أن تقول كلمتك، اضغط على يد الشخص المجاور لك ليعلم أن دوره قد حان».

صمتت لـ لحظة، ثم بدأت اللعبة:

«نحن».

أبقيتُ عينَي مغلقين واستمعتُ بينما يضيف الجميع كلماتهم مع وقفات وبضع ضحكات خافتة فيما بينها:

«نحن. نكون. هنا. إنه. كريه الرائحة. لكن. أنا. أحب. الكلاب. أنا. أريد. بعض. الطعام. الجيد. الضراط. سيء. حوريات البحر. يغنين. مثل...»

أكملت السيدة **جيسا**:

«الدجاج!»

وهذه المرة ضحك الجميع، بـ من فيهم أنا.

فركتُ يديّ وجلستُ:

«أستطيع النبش مجدداً» سألت: «هل يمكن لـ أحد الإمساك بـ الدلو من أجلي؟»

قالت **بوني** بـ سرعة كبيرة قبل أن يستطيع أي شخص آخر الإجابة:

«سأفعل ذلك!»

ووعدتُ نفسي بأنني لن أناديها بـ «الطفلة» مجدداً أبداً لو خرجنا من هنا على الإطلاق.

***

«خمسة وعشرون»، حسَبتُ في عقلي، وأنا أدفع إبزيم الحزام نحو الأعلى داخل الخشب بـ أقصى قوة أستطيعها.

كنت قد توقفت عن الاكتراث لما يقوله الرجلان، لـ سبب رئيسي وهو أنهما كانا يتحدثان عن أشياء غبية للغاية عندما كنتُ أتوقف لـ الاستماع؛ مثل أفضل الإطارات لـ الدراجات النارية، وكم علبة بيرة يمكنهما شربها دون أن يصلا إلى الثمل، وأي

أمهاتهما هي الأسوأ. أشياء من هذا القبيل. لا شيء يتعلق بنا نحن الأطفال، وهو ما كان يبدو غريباً بـ شكل ما طالما أنهما يحتجزوننا بالأسفل هنا.

طَقّ!

كتمتُ شهقتي عندما انهار الخشب المضغوط بسبب الإبزيم ودُفعت يدي فجأة لـ تنفذ بـ الكامل عبر الخشب.

آلمني ذلك، وخدش أصابعي المليئة بـ البثور والدماء بـ شكل أشد مما كانت عليه بـ الفعل، لكنني لم أهتم بـ ذلك على الإطلاق؛ لأنني أصبحتُ أستطيع الآن إدخال يدي بـ الكامل عبر الثقب الذي صنعته لـ التو.

سأل الأطفال الآخرون ومعهم السيدة **جيسا**:

«هل اخترقتِ الخشب بـ الكامل؟»

لكنني كنتُ أحاول الاستماع لـ أصوات الأقدام: *هل سمع الرجلان صوت التصدع ذاك؟* كان الصوت عالياً بـ القرب من أذنيّ، لكن كم كان عالياً خارج الحفرة؟

حبستُ أنفاسي، لكن لم يستغرق الأمر سوى ثانية واحدة لـ أدرك أن صوتَي الرجلين لم يتغيرا على الإطلاق؛ فقد كانا لا يزالان يتحدثان معاً عن البيرة.

لم تكن لديهما أي فكرة عما فعلتُه لـ التو.

همستُ لـ الأسفل، وأنا أثبت يدي الأخرى على السقف:

«أجل، اخترقتُه. أظن أنني أستطيع الإختراق عبره بـ شكل أسرع الآن».

أضفتُ، مدركة أنه إذا وسّعتُ الثقب قليلاً، فسأتمكن من تقشير قطع صغيرة من الخشب باستخدام أصابعي بينما أستخدم الإبزيم في الوقت نفسه.

وقبل وقت طويل، سأصبح قادرة على إدخال ذراعي بـ الكامل للكوع عبر الثقب؛ ثم جسدي، لو رفعتني إحدى الأيادي لـ الأعلى.

هتفت **بوني** بـ صوت خفيض ومتحمس:

«عمل رائع يا سيدج!»

وأضافت السيدة **جيسا**:

«مذهل!»

رغم أنه كان بإمكاني التمييز من نبرة صوتها المرتجفة أنها بدأت تخاف مجدداً؛ لأننا لو استطعنا صنع ثقب كبير بـ القدر الكافي في الخشب، فربما نتمكن بـ الفعل من الخروج من هذا المخبأ الكريه الرائحة، لكن حينها سيتوجب علينا مواجهة الرجلين.

سألت:

«هل تحتاجين إلى استراحة أخرى؟»

هززتُ رأسي:

«كلا، أستطيع المواصلة. بوني، هل تريدين ترك دور لـ روز؟»

ردت **بوني**:

«مستحيل!»

وأحببتُها لـ ذلك.

كانت أصابعي تحترق، وساقاي ترتجفان بـ شدة كما كانتا من قبل، لكنني لم أكن لأستريح مجدداً؛ فـ لم تكن هناك أي طريقة لـ معرفة كم من الوقت بَقي لدينا.

37

شينا

اتصلتُ بـ مؤسسة «*القلوب العزيزة*» بينما كنتُ عالقة في ازدحام مروري شديد، في طريقي إلى البنك الأخير في مدينة «كونا». من الناحية الفنية، كنتُ لا أزال أسير بـ شكل جيد على الجدول الزمني؛ بل كنتُ أسبق الجدول بـ خطوات لو دققنا.

ساورني الشك في أن الخاطفين أرسلوني خارج المدينة إلى قلب زحام الموظفين عمداً لـ إبقائي مشغولة؛ لكن عندما تباطأت السيارات حتى أصبحت تسير ببطء شديد ثم توقفت تمامًا، لم يمنعني هذا الإدراك من أن يسيطر عليّ الذعر، مما جعلني أتنفس وكأنني كنت أركض للنجاة بحياتي. وبطريقة ما، كنت أفعل ذلك بالفعل. إذا فقدت بناتي بسبب هذا الازدحام، لم أكن أعرف كيف سأستمر في الحياة.

كنتُ أتحرك بـ بطء شديد بـ معدل خمسة أميال في الساعة على مدار العشرين دقيقة الماضية، ولن أتمكن من الخروج من الطريق السريع قبل عشرين دقيقة أخرى على الأقل.

ردت موظفة الاستقبال في مركز «*القلوب العزيزة*» بعد الرنة الأولى؛ لابد وأنها تملك خاصية إظهار رقم المتصل لأنها قالت:

«سيدة هالفيرسون، أوه، أنا سعيدة جداً لأنكِ اتصلتِ! **رون** يسأل عنكِ طوال اليوم».

جعل الشعور بـ الذنب—والمسافة الطويلة الحمراء على تطبيق الخرائط—معدتي تنقبض بـ ألم:

«أنا آسفة حقاً. لقد كان... لقد كان يوماً صعباً. أنا آسفة جداً لأن الأمر استغرق كل هذا الوقت لـ الاطمئنان عليه».

أمرتُ نفسي: «*لا تبكي! لا تظهري هذا في البنك وتبدي كـ حطام!*»

قالت الموظفة:

«كلا، كلا يا عزيزتي، لم أكن أقصد ذلك بـ هذه الطريقة».

وكادت الطيبة في نبرتها أن تدفع دموعي لـ الانهيار:

«إنه في أيدٍ أمينة. من الجيد أنكِ اتصلتِ، هذا كل ما في الأمر. إنه يشعر بـ بعض الضياع والوحدة، وهذا أمر طبيعي تماماً في يومه الأول. انتظري دقيقة، حسناً؟»

حاولتُ الرد قبل أن تضعني على الانتظار لـ جلب أبي، لكن الغصة تحشرجت في حلقي ولم تسمح لي بـ النطق.

مرت بضع دقائق عندما جاء أبي على الخط:

«مرحباً».

لم يكن يبدو ضائعاً أو حزيناً؛ بل كان لـ صوته نبرة حادة ومقتضبة، وكأنني قاطعتُه في منتصف شيء ما.

تخبطتُ في حديثي، غير متأكدة مما يتوجب عليّ قوله:
«من الرائع جداً سماع صوتك».
ما الذي يتذكره من الليلة الماضية؟ هل يجب أن أعتذر مجدداً؟ أأشرح له قراري بـ أخذه إلى مركز "القلوب العزيزة"؟ لم أكن أستطيع قول أي شيء عن الفتاتين؛ فـ ذلك سيجعل كل شيء أسوأ. لكن ذلك كان السبب الرئيسي وراء قيامي بـ كل هذا بـ شكل مفاجئ.
اجتاحتني موجة جديدة من الشعور بـ الذنب—تسونامي كامل هذه المرة—بـ قوة جعلتني أبتلع العصارة المريرة التي ارتفعت في حلقي.
ضربت الشاحنة النصف-مقطورة خلفي بوقها فـ قفزتُ في مكاني، مدركةً أن السير بدأ يتحرك مجدداً:
«أبي، هل تتذكر عندما كنتُ طفلة صغيرة وأخبرتني أن أثق بك—وأن أظل ثابتة جداً، جداً في تلك الرحلة للتخييم؟»
كان سؤالاً مستبعداً؛ ومع ذلك، تعلمتُ أن تلك الذكريات القديمة تكون أحياناً محفورة بـ عمق، بـ طريقة لا يبدو أن أي شيء آخر يضاهيها.
كان بـ إمكاني التفكير في وميض الجمر البرتقالي والأزرق في حلقة النار، والطريقة التي اتسعت بها عينا أبي عندما ألقى نظرة في اتجاهي ثم صرخ بي ألا أتحرك إنشاً واحداً. أردتُ الدوران

والقفز من الصخرة التي كنتُ أجلس عليها؛ لكن صوته— والطريقة التي وثقتُ بها بـ أبي—ثبتاني في مكاني تماماً.

زمجر بـ صرامة:

«أجل».

وابتسمتُ رغم عني.

بدأتُ:

«كان هناك..»

لكنه قاطعني وبدأ يحكي القصة بنفسه:

«كان هناك عنكبوت على عنقكِ»، قال أبي، بينما كانت نبرة صوته تفقد بعض حديتها: «عرفتُ أنه عنكبوت الأرملة السوداء بسبب أرجله تلك وجسمه الكبير القديم. لابد وأنه كان على الصخرة عندما جلستِ، ولابد وأنكِ شعرتِ بـ دبيبه؛ لأن يدكِ كانت مرتفعة وتتحرك نحوه. لو بدأتِ بـ نكزه، لـ كان قد عضكِ».

قلتُ:

«أجل، أتذكر كيف كان شعوري حينها. كنتُ خائفة جداً، لكنني وثقتُ بك؛ لذا لم أتحرك حتى وأنا أريد الارتباك والذعر».

ساد الصمت في الطرف الآخر من الخط، حتى قال أخيراً:

«أجل».

«وقبل أن أدرك ذلك، كنتَ قد نقرتَه بـ غصن شجرة بعيداً. لم تخبرني حتى بـ ماهيته حتى عدنا إلى المنزل من الرحلة».

كرر مجدداً بـ صوت أكثر رقة:

«أجل».

«أحتاج منك أن تثق بي، حسناً؟ حتى لو كان الشعور سيئاً ولا يبدو منطقياً؛ كل ما أحتاجه هو أن تثق بي. لأنني أحبك وسأعود من أجلك، حسناً؟ أنا—أنا أتبع حدسي، كما كنتَ تقوله لي دائماً. سأشرح لك لاحقاً، اتفقنا؟»

صمت لـ فترة طويلة لدرجة أنني ظننتُ أنه أغلق الخط، ثم قال: «حسن حسناً، لماذا لم تقولي ذلك الليلة الماضية؟ سأبقى في مكاني يا شين. أنتِ تعلمين أنني أحبكِ أيضاً، وأحب الفتاتين... قولي لهما مرحباً من جدهما».

اختنقتُ بـ الكلمات وأنا أقول:

«شكراً يا أبي. يتوجب عليّ الذهاب الآن، حسناً؟ سأراك في القريب العاجل جداً».

***

عندما قدتُ سيارتي مبتعدةً عن البنك الأخير بعد خمس عشرة دقيقة، ألقيتُ نظرة خاطفة على انعكاسي في المرآة الخلفية.

كنتُ أتوقع أن أرى بقايا امرأة منهكة ومحطمة—تماماً كما أشعر من الداخل. ولـ مفاجأتي، كانت **شينا** التي تنظر إليّ تبدو متماسكة للغاية؛ فـ محدد العيون (الكحل) لا يزال مجنحاً بـ زوايا خفيفة كما وضعته في الساعة الرابعة صباحاً، عدم رغبة مني في إعطاء البنك أي سبب لـ رفع راية حمراء أو الشك في عمليات السحب. كما أن كريم الأساس والبودرة يخفيان البقع التي أعلم أنها تتربص تحت بشرتي المجهدة والجافة، حتى أن محدد الشفاه لم يتلطخ.

أعدتُ نظري إلى الطريق ودفعتُ السيارة لتتجاوز الحد الأقصى للسرعة بخمسة أميال. بالاتجاه إلى هذا المسار، عائدة نحو «بويسي»، كانت حركة السير خفيفة، لكنني لم أكن مستعدة لـ المخاطرة بـ القيادة بـ سرعة أكبر؛ ليس في وقت قد يكون فيه أحدهم يراقبني، وليس عندما يتبقى لديّ بـ الكاد أكثر من ساعة لـ الوصول إلى المنزل، وتنظيم الأموال في حقيبة ظهر كما أُمرت، وكتابة ملاحظة أتوسل فيها إلى الخاطفين لـ قبول المبلغ الناقص.

كان بحوزتي، في دواسة مقعد الراكب في السيارة، ما مجموعه 44,243 دولاراً. كان أقل بـ 5,757 دولاراً مما طلبه الخاطفون، لكن حتى هذا المبلغ جعلني أشعر وكأنني أطلب من الشرطة—والفيدراليين—أن يستيقظوا ويبدأوا في النظر في

اتجاهي في أي لحظة. ومع ذلك، فإن تلك الفكرة لم ترفع معدل نبضات قلبي بـ الكاد؛ فلم يعد هناك أي شيء يهم سوى إنقاذ طفلتيّ.

ألقيتُ نظرة خاطفة على المرآة الخلفية مجدداً عندما خرجتُ أخيراً من الطريق السريع الرئيسي ودخلتُ في حركة السير عبر شارع «ستيت» وموجهةً السيارة نحو المنزل، مسحتُ المنطقة هذه المرة بحثاً عن الشرطة.

لقد كنتُ قريبة جداً.

نجحتُ في إجراء عمليات السحب من جميع البنوك الخمسة. وبمجرد أن أعبر «بويسي» وأخرج من حدود المدينة، سأكون متجهة مباشرة نحو مخيم «ليتل إيدي». وبعد ذلك، سيكون الشيء الوحيد المتبقي في قائمة مطالب الخاطفين هو تحويل البتكوين بـ قيمة مليونَي دولار—وهو ما سيُنبه السلطات بـ التأكيد.

«ماذا لو لم يعيدوا الأطفال؟» ارتفع الصوت في خلفية رأسي وأنا أتخيل إسقاط الأموال والابتعاد.

كان ذلك الصوت يزداد صخباً مع كل عملية سحب ناجحة من البنك، ومع كل دقيقة تمر تقترب أكثر فأكثر من موعد تسليم الفدية.

قبضتُ على عجلة القيادة بـ قوة أكبر، وكان قلبي ينبض بـ سرعة جعلتني أخاف من أن أضطر إلى التوقف على جانب الطريق.

«*ماذا لو كانوا قد ماتوا بـ الفعل؟*» سأل الصوت الذي كنتُ أعلم أنه صوتي، لكنه كان يبدو وكأنه لـ شخص غريب. *هؤلاء أناس أشرار، ولا يوفون بـ وعودهم.*

صرختُ بصوت عالٍ والدموع تفيض من عينَي وتتلطخ أخيراً بالكحل الموضوع بـ عناية:

«لكن لا تزال هناك فرصة!»

لم أكن أعلم أين طفلتاي، أو حتى ما إذا كانتا لا تزالان على قيد الحياة. كل ما عرفتُه هو أنه طالما كانت هناك خيط رقيق من الأمل في إعادتهما، وفرصة في أن تكونا بـ خير، فسوف أحرك السماء والأرض لـ تحقيق ذلك.

طنين الإشعارات.

ألقيتُ نظرة على هاتفي لـ وقت كافٍ لـ إدراك أن تحديث الرسالة النصية تضمن الكلمات «اختطاف» و«شخص محط اهتمام» كـ جزء من العنوان الرئيسي.

أوقفت السيارة إلى جانب الطريق بـ سرعة دون إعطاء إشارة، لدرجة أن شاحنة على يميني ضربت بوقها بينما شغلتُ أضواء التحذير وأمسكتُ بـ هاتفي.

كان العنوان يقول: «**الشرطة تحدد شخصاً محط اهتمام في قضية اختطاف دار الرعاية**».

جف فمي وأنا أسرع لـ النقر على المقال: *هل يعني هذا أن الشرطة تقترب من مشتبه به؟ هل هناك فرصة ألا أضطر لـ تنفيذ هذه الفدية المجنونة بـ مفردي؟*

عندما فتحتُ المقال، هززتُ رأسي بـ ذهول واستغراب.

أظهرت الصورة تحت العنوان الرئيسي صورة جنائية لـ امرأة نحيفة ذات هالات سوداء تحت عينَيها البنيتين. لم تكن أكبر مني بـ كثير، وكان يبدو أنها كانت تبكي في الصورة.

تصفحتُ لـ الأسفل، يائسة لـ القراءة بـ أسرع ما يمكن، لكن غير راغبة في تخطي كلمة واحدة.

في تطور صدم الجميع، سمّت السلطات المدعوة جيسا لاندون، البالغة من العمر 38 عاماً، كـ شخص محط اهتمام في القضية التي تنطوي على اختطاف عشرة أطفال أثناء توجهم إلى مركز "برايت بيجينينغز" لـ الرعاية بعد المدرسة. وكان الأطفال، الذين تتراوح أعمارهم بين 7 و 11 عاماً، قد شوهدوا لـ أخر مرة وهم يستقلون الحافلة في مدرستهم الابتدائية بعد ظهر يوم الخميس، لكنهم لم يصلوا قط إلى مركز الرعاية.

وتخضع جيسا لاندون، التي كانت تعمل تحت اسمها قبل الزواج "جيسا بالمر"، لـ تحقيقات مكثفة الان. فقد تقدم غريغ

لاندون من هيريمان، يوتا، وهو شقيق زوجها السابق، بـ معلومات مقلقة عن ماضيها، كاشفاً أن جيسا قضت مؤخراً ثلاث سنوات في السجن بـ تهمة القتل العمد بعد قتل زوجها. وعقب إدانتها، فقدت السيدة لاندون حضانة ابنتها.

وقال غريغ في تصريح تم تسجيله بعد ظهر اليوم: "عندما رأيت المقالات المتعلقة بـ الاختطاف وقرأت اسمها، شعرت بـ غصة شديدة في معدتي. فكرتُ: 'يا إلهي، ماذا فعلت جيسا الآن؟' لقد رأيتُ بـ أم عينَي ما يمكن لـ تلك المرأة فعله. إنها متلاعبة محترفة، وليست شخصاً ينبغي أن يكون بـ القرب من الأطفال بـ أي حال من الأحوال".

أصدر مركز "برايت بيجينينغز" بياناً يعرب فيه عن قلقه وذهوله: " لقد صُدمنا عندما علمنا أن جيسا لاندون ضللتنا عمداً بـ استخدام اسم عائلتها واستخدام عنوان أختها في طلب التوظيف. هذا الخداع سمح لها بـ تجاوز عملية الفحص الجنائي لدينا. يبقى همنا الرئيسي هو العودة الآمنة لـ الأطفال".

مع استمرار البحث عن الأطفال المفقودين، تحث السلطات أي شخص لديه معلومات على التقدم بها. وصرح مسؤولو إنفاذ القانون بأنه سيتم تحديث هذا المقال الإخباري كلما توفرت معلومات جديدة. وقال متحدث باسم الشرطة: "نحن نفعل كل

ما في وسعنا لـ تحديد موقع هؤلاء الأطفال وضمان عودتهم الآمنة. قلوبنا مع العائلات خلال هذا الوقت العصيب للغاية".

عندما أنهيتُ الجملة الأخيرة، أجبرتُ نفسي على إعادة الهاتف إلى حامله على لوحة القيادة والعودة إلى حركة السير.

لكنني لم أستطع التوقف عن الارتجاف.

كان وجه تلك المرأة يحدق بي من مخيلتي بينما كانت أجزاء من المقال تدور في رأسي.

قتل عمد. متلاعبة محترفة. فقدت الحضانة.

لـ المرة الأولى، سرى التيار الخفي من الغضب عبر خوفي: *هل هذه هي الشخص الذي كتب رسالة الفدية التي ظهرت على عتبة بيتي مع البيتزا؟* كان يبدو أنها قابلة لـ ارتكاب أشياء شنيعة؛ فقد قتلت زوجها—وفقدت حضانة ابنتها.

لم أكن أريد الاعتراف بـ ذلك، حتى لنفسي، لكن كانت هناك أيضاً شائبة غريبة من الارتياح لأن طفلتيّ قد تكونان مع أم؛ فحتى الأشخاص الأشرار يحبون أطفالهم أحياناً، أليس كذلك؟ بالتأكيد، لا يمكن لشخص مرّ بكل ما تنطوي عليه الأمومة من دماء وعرق وألم — حتى في أبسط صورها — أن يكون خاليًا تمامًا من التعاطف، أليس كذلك؟

رفضتُ تذكر القصص التي حكاها لي أبي عن هذا النوع من الأمهات بـ الذات: نساء يحبسن أطفالهن في الخزانة لـ أيام،

ويطعمن أطفالهن الرضع طعام الكلاب، ويغرقن أطفالهن الصغار في حوض الاستحمام.

بالتأكيد لم يكن هناك الكثير من هؤلاء النساء، لكنني عرفتُ يقينًا أنهن موجودات.

طردتُ الفكرة المروعة ونظرتُ في العينين المليئتين بـ الدموع في الصورة قليلة الجودة على شاشتي.

هل كانت تلك دموع كراهية، وأنانية، وخداع؟

أم هل كانت تلك قطرة من روحها تطفو على السطح؟ لو كان الأمر كذلك، فربما، مجرد ربما، ستكون هذه المرأة مستعدة لـ الوفاء بـ وعدها وإعادة طفلتيّ إليّ لو اتبعتُ تعليماتها بـ الحرف.

أضاءت شاشة هاتفي بـ مكالمة واردة—محفوظة في هاتفي سابقاً بـ اسم: **الشرطة**.

دفعتُ الهاتف بعيداً دون إجابة، ثم عدتُ إلى الطريق ودفعتُ دواسة البنزين لـ رفع سرعة السيارة إلى سبعة أميال فوق الحد المسموح، بينما كان دمي يغلي بحرارةً وقلبي ينبض بـ قوة داخل قفصي الصدري.

اختنقتُ بـ الكلمات:

«تباً لكِ يا جيسا لاندون!»

بينما كنتُ أتوسل إليها في سري ألا تؤذي طفلتيّ.

38

تيد

«تباً لـ هذا الخراء»، زمجرتُ لـ المرة الثالثة وأنا أتصفح هاتفي لـ الأعلى.

سأل **أندي**:

«يا إلهي، ما الأمر؟»

وقد أثاره الإزعاج أخيراً بـ القدر الكافي لـ يدفع بجسده الثمل بعيداً عن صندوق التبريد ويمشي نحو الصخرة التي كنتُ أجلس عليها تحت المأوى المرتجل.

هززتُ رأسي، وأنا أندم نصف ندم على قول أي شيء؛ لكن الخبر الإخباري كان قد أخذني على حين غرة بـ الكامل. كان هذا أمراً لا يُصدق.

قلتُ وأنا أضع علبة البيرة الدافئة التي كنتُ أرتشف منها ل الساعة الماضية، متفحصاً نفسي ذهنياً لـ التأكد من أنني لم أعد ثقيلاً أو ثكلاً:

«سائقة الحافلة».

كان صندوق التبريد فارغاً بـالكامل تقريباً، لكن ذلك كان في الغالب بفعل آندي؛ فـ بالرغم من تحذيراتي، شرب المخزون

بـالكامل تقريباً. وكنتُ غاضباً جداً من ذلك في الواقع؛ فـ أنا من سيتولى استلام الفدية، لكن لم يكن ينبغي له أن يكون ثقلاً لدرجة تجعله يفقد أعصابه لو جاء أحدهم حول المحجر أثناء غيابي.

ترنح **أندي** وخطا خطوة أخرى نحوي وهو يتجشأ ويمسح على بطنه السميكة، ثم ألقى علبته الفارغة أمامه وهرسها بـ فرقعة:

«ما بها سائقة الحافلة؟»

حدقتُ في الصورة الجنائية أمامي:

«إنها مجرمة يا صاح! انظر إلى هذا».

مددتُ الهاتف نحو وجهه لـ يستطيع رؤية العنوان الإخباري:

«الشرطة حددتها لـ التو كـ شخص محط اهتمام! يظنون أنها هي من فعلت هذا».

وأشرتُ باتجاه المخبأ المدفون.

أخرج **أندي** تجشؤاً رطباً كان نصفه تجشؤاً ونصفه ضحكة:

«مستحيل! مستحيل!»

ركل علبة البيرة المهروسة الأخيرة وأدخل أصابعه في شعره الطويل المتسخ:

«يتوجب علينا استغلال هذا يا صاح! هذا مثالي جداً. وكأن الله يعطينا إشارة أو شيئاً من هذا القبيل، أليس كذلك؟»

تجشأ مجدداً بصوت عالٍ، ثم قهقه:

«يمكنها أن تتحمل اللوم عن الأمر برُمته! لن يأتوا خلفنا أبداً لو ظنوا أنها هي من فعلتها».

هززتُ رأسي:

« صه، حسناً؟»

كان يكاد يصرخ الآن. ولم يكن يفكر بوضوح.

«كلا! حتى لو تحملت هي اللوم، فالأطفال سيتذكرون الرجلين اللذين يرتديان الجوارب الطويلة على رأسيهما واللذين اقتادوهم بعيداً عن حافلتهم...»

قاطعني **أندي** بـ نبرة غنائية وهو يتوقف أمامي ويحدق في عينَي مباشرة:

«لكن هذا فقط لو سمحنا لهم بـ الخروج...»

وبينما كانت يداه لا تزالان تشدان شعره إلى الأعلى لتشكله في شكل ذيل حصان، وبطنه المنسكبة فوق جينزه، وعينيه الجاحظتين في وجهه المتسخ، توجب عليّ منع نفسي من الانكماش بعيداً عنه؛ فقد كان يبدو—مع نبرت صوته—كـ مجنون بحق.

قلتُ بـ حزم:

«كلا. لقد قررنا بـ الفعل: لا أحد يصاب بـ أذى».

سخر **أندي** وركل علبة بيرة فارغة أخرى في اتجاهي، وكأننا نلعب لعبة معاً.

لـ ثانية واحدة، خفتُ من النظر لعينيه؛ فقد عرفتُ الآن في داخل أحشائي أنه لم يكن يتوجب عليّ إخباره بـ المقال الإخباري. «*أو محاولة تنفيذ هذه الخطة معه بـ الأصل*»، صاح عقلي.

قال **أندي**، وهو لا يزال مصراً على هذه الخطة الجديدة وعيناه تلمعان بـ بريق الكحول:

«استمع إليّ فقط. يمكننا إقناعهم بأن سائقة الحافلة هي العقل المدبر وراء كل شيء. هي لا تبدو كـ عقل مدبر، ليس بـ ذلك الوجه، لكن لو كان رجال الشرطة يفكرون في ذلك بـ الفعل...»

خفض صوته واتبع نظراتي نحو الصفائح المعدنية الملقاة في التراب على طرف «الحفرة»:

«يمكننا إخراجها من الحفرة والتحدث إليها وكأنها شريكة في كل شيء، لـ يسمع الأطفال ذلك، ثم نضع مسدساً على رأسها و...»

جف فمي. وبـ شكل غير ممكن، اتسعت عينا **أندي** وأصبحتا أكثر بريقاً وهو يكمل:

«هذه فكرة رائعة جداً!» هسس بـ سرعة: «هل لديك بعض الورق؟ يمكننا أن نجعلها تقرأ شيئًا للأطفال. مثل... مثل كيف أننا أفسدنا كل شيء وأنها لن تشاركنا أي شيء من أموال الفدية بعد الآن لأننا حمقى عاجزون. نطلق طلقتين ناريتين، كأنها

قتلتنا نحن الاثنين، لكننا سنطلقهما مباشرة في رأسها. سيخبر الأطفال الشرطة أن سائقة الحافلة قتلتنا ثم هربت».

تمتمتُ:

«وماذا بعد ذلك؟»

رغم أن العقدة في معدتي كانت تخبرني بـ الضبط إلى أين تتجه هذه المحادثة: إلى الخروج عن السيطرة تماماً.

صرخ **أندي** بـ صوت خفيض وهو يترنح أمامي ويكاد يصفق بـ يديه بـ ابتهاج:

«وبعد ذلك يمكننا، كما تعلم، إخفاء جثتها في 'الحفرة' والهروب بـ المال!»

نظر إليّ بـ توقع، وكأنني بـ التأكيد لن أعترض على هذه الخطة العبقرية.

وقفتُ بعيداً عن الصخرة وتراجعتُ بضع خطوات لـ الخلف، وألقيتُ نظرة خاطفة باتجاه المخبأ المدفون مجدداً. كان الوقت قد حان لـ تغيير الموضوع؛ فلم أكن أريد قتل أي شخص:

«هيا. يتوجب علينا المغادرة إلى "ليتل إيدي". سنتأخر».

خطوتُ خطوة نحو سيارته الهوندا سيفيك:

«يمكننا التحدث في السيارة».

ضيق **أندي** عينيه وضحك:

«نحن؟ انتظر لحظة، ظننتُ أنك ستذهب لـ استلام الأموال بـ مفردك».

وتجشأ وكأنه يثبت ذلك.

فكرتُ بـ سرعة، محاولاً إيجاد سبب منطقي. كان محقاً؛ الخطة—قبل أن يُطرد ويفقد حافلة المطار—كانت تقضي بـ أن أستلم أنا الأموال بينما يبقى هو في المحجر. وعندما رسمنا جميع التفاصيل النهائية لـ تلك الخطة قبل أسابيع، قدمتُ الأمر وكأنني أصنع له معروفاً: يمكنه البقاء في مكانه وشرب البيرة، بينما أضع نفسي في خطر الخروج إلى العلن لـ المرة الثانية.

لكن الحقيقة هي أنني لم أثق به قط لـ تنفيذ عملية استلام الأموال بـ مفردة؛ فقد كان **أندي** اندفاعياً، خاصة عندما يكون ثقلاً. ولو سارت الأمور بـ شكل خاطئ، أردتُ أن يحدث ذلك تحت مراقبتي—وليس تحت مراقبته.

وهو السبب نفسه الذي جعلني لا أثق به لـ البقاء هنا بـ مفردة مع الأطفال أيضاً؛ ليس بعد ما قاله لـ التو، وليس مع تلك الخطة التي تخمرت في عقله الممتلئ بـ الكحول.

كان هناك تحذير أحمر يرفرف في رأسي بـ أنه لو تركته يواجه أفكاره الحالية التي تتغلغل في عقله الثمل، فسأعود لـ أجد مشهداً لا يمكن لـ كل أموال العالم تغطيته.

لم أستطع تركه هنا؛ لكنني لم أستطع السماح له بـ القيادة أيضاً—فقد كان ثملاً لـ الدرجة التي لا تسمح بـ ذلك.

فكر! شغل عقلك يا تيد.

قلتُ وأنا أتمسك بـ سبب شبه قوي يفرض عليه المجيء معي:

«يا صاح، سيارتك الهوندا حطام. كان من المفترض أن أقود حافلة المطار، أتتذكر؟»

ارتجلتُ الحديث، واكتسبتُ زخماً مع هذا الخيط من الأفكار. وعلى عكس الحافلة، كانت السيفيك ذات ناقل حركة أوتوماتيكي، لذا كان بإمكاني قيادتها من الناحية الفنية، لكن مفتاح التشغيل كان معطلاً، وكنتُ قد رأيتُ **أندي** يقضي عشر دقائق وهو يشتمها محاولاً إجبارها على العمل بعد أن أخذني لـ العمل من المقطورة.

فكر **أندي** في هذه الفكرة ورشف جرعة أخرى من البيرة. أردتُ انتزاعها من يده وصفعه.

صحتُ بـ صرامة:

«يا القرف! اركب السيارة فحسب».

قال بـ تمطيط في الكلام، بينما انخفضت معدتي لـ الأسفل أكثر:

«يبدو أن هذا سيكون مملًا... سأبقى هنا وأسترخي».

والتف بعيداً عني وواصل التحديق في تلك الحفرة.

ضغطتُ على أسناني وحاولتُ عدم الارتباك. *تباً، تباً، تباً*. كنا قريبين جداً من إنهاء هذا؛ وكنتُ قريباً جداً من الخروج من هنا بـ المال—ومع ضمير نظيف إلى حد ما. نظيف بـ القدر الكافي بالنسبة لي على الأقل.

وكأنه يقرأ أفكاري، وجه **أندي** عينيه نحوي ورفع حاجباً، ماداً يده نحو مقبض المسدس المحشور بـ شكل جانبي في حزامه:

«أنت صاحب قلب رحيم جداً يا تيدي بير. كان لـ يكون من السهل جداً القيام بـ الأمر بـ طريقتي...»

وتلعثم في كلامه.

أصررتُ:

«إنه وقت سيء لـ الارتجال».

ضحك بـ خفة ثم وقف، ومال برأسه وكأنه حصل لـ التو على فكرة جديدة وعبقرية:

«ربما تكون محقاً».

وأخيراً خفض صوته وأسقط كتفيه:

« لكننا لم ننتهِ من الحديث عن هذا الأمر بعد. فكر في الأمر: إنها مجرد عاهرة غبية، لقد قتلت زوجها بحق المسيح!»

تابع وهو يمسكني من ذراعي:

«الأمر مثالي جداً؛ فـ الله يلقي بـ هذا في أحضاننا عملياً».

حافظتُ على ملامح وجهي محايدة. لم يكن الأمر مثالياً، ليس بـ أي حال من الأحوال، وكنتُ أشك في أن الله مسرور بـ أي شيء نفعله. بـ الإضافة إلى ذلك، حتى لو كنتُ موافقاً، لم تكن هذه هي الخطة التي يمكننا تجميعها بناءً على نزوة:

«لنحصل على الفدية فحسب»، أصررتُ مجدداً «هيا، يمكننا التحدث في السيارة..»

قال **أندي**:

«حسناً».

ولـ ارتياحي، تمدد والتف لـ يتبعني.

تحركتُ نحو السيفيك، متلهفاً لـ الركوب والقيادة؛ وكنتُ متأكداً من أنني أستطيع إقناعه بـ التراجع لو حصلتُ على القليل من الوقت فقط. لم نكن مضطرين لـ إيذاء أي شخص، وكان لا يزال بإمكان هذا الأمر أن ينجح.

ولكن بعد بضع خطوات، سمعتُ **أندي** يتمتم بـ شيء ما تحت أنفاسه.

انقبضت معدتي والتفتُ لـ أرى ما كان يعطله؛ لكن بدلاً من النظر إليّ، كان **أندي** يرفع إصبعه ويشير نحو الطرف الآخر من الطريق الترابي، في الاتجاه المعاكس لـ السيفيك.

سألتُ بـ استغراب، وأنا أمد عنقي ظاناً أن **بول** أو شخصاً آخر قد عاد مجدداً محاولاً الوصول إلى الصخور أو شيئاً من هذا القبيل:

«ماذا؟»

تجاهلني **أندي** وخطا خطوة غير متزنة في الاتجاه المعاكس، مائلاً نحو الحافلة الرمادية:

«هؤلاء الأوغاد الصغار!»

تفجرتُ غضباً وأنا أبدأ بـ الشعور بـ الاستياء الآن:

«أندي، هيا! سنفوت موعد تسليم الأموال الفعلي بـ جديّة!»

لم يكن لدينا وقت لـ هذا الهراء.

تقدمتُ للأمام وأمسكتُ بـ ذراعه، لكنه نفضها وواصل التحرك نحو الحافلة الرمادية، ماشياً بـ سرعة ومشيراً إلى شيء ما.

قال مجدداً، بـ صوت أعلى:

«هؤلاء الأوغاد الصغار! انظر إلى ما فعلوه».

ركضتُ لألحق بخطواته المتعثرة، محاولًا معرفة ما الذي كان ينظر إليه بحق الجحيم.

ثم رأيته.

تحولت أحشائي إلى مادة لاصقة مطاطية.

كان هناك ثقب بحجم قطعة نقدية مخدوش في الطلاء الأسود الذي استخدمناه لتغطية الجزء الداخلي للشاحنة. كانت أشعة

الشمس الغاربة تتسلل عبر النوافذ الخلفية بزاوية مائلة، مما يعني أن الزاوية كانت مناسبة تمامًا لتكوين هالة بيضاء خافتة في الظلال المتجمعة خلف المصد.

تنفستُ بـ صعوبة:

«تباً لـ هذا!»

وأنا أشعر وكأن الأرض تتحرك تحت قدميّ وعقلي يحاول السباحة بـ سرعة أكبر وأسرع لـ تجنب السحب تحت تيار غير مرئي.

فتح **أندي** باب الحافلة ورفع نفسه إلى الداخل.

وبعد نصف ثانية، اختفى الثقب الموجود في الطلاء، واستُبدل بـ بؤبؤ عينه البنية الواسعة التي كانت تحدق بي مجدداً.

انقبضت معدتي: *كم رأى هؤلاء الأطفال الأغبياء؟* أسرعتُ لـ التفكير في كل ثانية نَزعنا فيها أنا و**أندي** جواربنا الطويلة قبل أن نقود الأطفال إلى الحفرة. كنتُ قد أبقيتُ على جواربي، لكن **أندي** كان مكشوف الوجه عندما عدتُ إلى المحجر.

ولو كُشف غطاء **أندي**، فـ غطائي كُشف أيضاً.

تباً لـ هذا القرف! تباً، تباً، تباً.

تمتم **أندي** من داخل الحافلة، وكان الصوت مكتوماً:

«هل لا تزال تظن أنه بإمكاننا مجرد تركهم يرحلون جميعاً؟ لقد رأوا وجوهنا! تباً، يتوجب علينا تغطية خرطوم الهواء الآن،

والذهاب لـ جلب المال والقيادة بعيداً فحسب. لن يعثر عليهم أحد أبداً—ولا علينا».

احترق الحمض في مجرى تنفسي وسحب التيار الخفي في أحشائي بـ قوة أكبر.

كان هذا سيئاً.

كان هذا سيئاً جداً، جداً، جداً.

تأتأتُ وأنا أُميل ذقني نحو «الحفرة»:

«لا نزال بحاجة إلى مناقشة هذا الأمر».

وبـ القدر الذي كنتُ أكره الاعتراف بـ ذلك، كنتُ أشعر بـ الارتباك الشديد الآن أنا أيضاً.

أعاد **أندي** فتح الباب الخلفي لـ الحافلة ونظر إلى بـ تعبير غير قابل لـ القراءة جعلني أتراجع خطوة لـ الخلف.

لأول مرة، فكرت بجدية فيما إذا كان سيقوم بشيء ضدي، في حال لم يحصل على ما يريد. إذا ما وجد نفسه في موقف حرج.

تمكنتُ من القول، مجبراً صوتي على البقاء ثابتاً وفولاذياً كصوته:

«لن يذهبوا إلى أي مكان حتى نعود إلى هنا. لنحصل على المال فحسب ثم نفعل ما يتوجب علينا فعله، حسناً؟»

لم تكن **شينا هالفيرسون** تتوقع منا أن نحضر الأطفال معنا بـ الفعل في موقع تسليم الأموال؛ فقد كانت تعلم أنه يتوجب عليها

إجراء تحويل البتكوين أولاً، ثم الانتظار لـ الحصول على التعليمات المتعلقة بـ إطلاق سراحهم. لا يزال لدينا القليل من الوقت لـ اكتشاف هذا الأمر.

حدق فيّ من مؤخرة الشاحنة وهو يرفع حاجبه:

«حسناً يا تيدي بير. لو كنتَ تقول ذلك... لنذهب».

39

سيدج

ثلاث وعشرون ساعة وثلاثون دقيقة من الدفن

«لقد رأوا وجوهنا! يتوجب علينا تغطية خرطوم الهواء الآن... لن يعثر عليهم أحد أبداً...»

لقد رأوا ثقب المراقبة الذي كشطتُه في الطلاء.

لم يعد هناك أي شك حول ما إذا كانوا سيفعلون بنا شيئاً مروعاً أم لا؛ فـ **السيد إدوارد** و**صاحب الشعر الزيتي** كانا سيعودان لـ تركنا هنا—أو لـ قتلنا. وقريباً جداً.

والأسوأ من ذلك، أن الأمر كان بـ سببي جزئياً على الأقل.

لقد صنعتُ ذلك الثقب في الطلاء، رغم أن **السيدة جيسا** أخبرتني ألا أفعل. وبالرغم من كل محاولاتي لـ التجسس والكشط في الخشب المضغوط بينما العرق يتصبب من بشرتي وقدماي تؤلمانني من الوقوف لـ فترة طويلة، فإن الثقب لم يكن كبيراً بـ القدر الكافي لـ يمر جسدي من خلاله. كان بإمكاني إدخال ذراعيّ، لكنني أهدرتُ وقتاً ثميناً في الحفر عند المكان الواقع تحت ذلك الشيء الثقيل والكبير الذي دفعوه فوق الخشب لـ تثبيته في مكانه.

انغلق بابان لـ السيارة، واختفت أصوات الرجلين، وتلاشى صوت طنين الإطارات بـالتدريج مبتعداً عنا.

استمعتُ بـ حذر شديد، وأنا أتنفس بـ الكاد. كانا قد قالا إنهما ذاهبان معاً لـ جلب المال. وبعد ذلك، لم تعد هناك أي أصوات قادمة من الأعلى؛ لقد ذهبا كلاهما، في الوقت الحالي.

سألت **بوني**، من حيث كانت تستلقي على المرتبة وذراعاها ملتفتان حول الدلو:

«ماذا قالا؟»

لم أجب؛ ابتلعتُ ريقي فحسب، وتجمدتُ في مكاني وأنا واقفة فوق الدلو وساقاي ترتجفان. كنتُ سعيدة لأن **بوني** لم تسمع ما سمعتُه، لكن عدم سماعها لن ينقذها—ولن ينقذ أحداً منا—مما سيحدث عندما يعود الرجلان من استلام أموال الفدية.

لم يعد الخوف من أننا قد نموت مجرد فكرة مروعة؛ بل أصبح حقيقة واقعة. كان يتجه نحونا بـ سرعة، وكانت المسألة مسألة وقت فقط، وليست احتمالية.

عندما لم أقل أي شيء، نادت **السيدة جيسا**:

«سيدج؟»

اختنقتُ بـ الكلمات لـ إخراجها من حلقي المكتوم:

«يتوجب عليّ التحدث إليكِ».

ثم نزلتُ من كومة المراتب، ومالت أذني بـ القرب من أذن **السيدة جيسا**، وكررتُ كل ما سمعتُه لـ التو وكل ما استنتجتُه—بما في ذلك أن **السيد إدوارد** هو سائق الحافلة القديم.

بما في ذلك ما قالاه عنها؛ كيف قُبض عليها، وهو ما عرفتُ أنه يعني أنها دخلت السجن.

ذلك الجزء أخير لم يعد يخيفني حتى، لأنني كنتُ مشغولة جداً بـ الشعور بـ الرعب من الجزء الأول.

ظلت **السيدة جيسا** هادئة وسمحت لي بـالاتكاء عليها وإخراج الكلمات بـ صعوبة حتى لا يسمع الأطفال الآخرون. لم أكن أريد أن يشعر أي شخص آخر، وخاصة **بوني**، بـ الرعب الذي كنتُ أشعر به الآن.

لم تبتعد عني حتى عندما شعرت أن مخاطي ودموعي كانتا تتساقطان كـ صنبور مقزز بينما أضغط بـ فمي على أذنها.

عادت الفكرة المروعة مجدداً: *سنموت جميعاً، وهذا خطأي.*

همستُ في أذنها، وأنا أدرك أنني ربما أكرر نفسي، لكنني بحاجة لـ التأكد من أن **السيدة جيسا** تعرف مدى سوء الأوضاع: «لم أستطع سماع معظم ما قاله **السيد إدوارد**، وسمعتُ بعض ما قاله **صاحب الشعر الزيتي** فقط. لكنه رأى بـ التأكيد الثقب الذي كشطتُه في الطلاء على نافذة الحافلة. أنا آسفة، أنا آسفة

جداً لأنني لم أجلس عندما طلبتِ مني ذلك. سيقتلوننا عندما يعودون، وكل هذا خطأي».

كنتُ قريبة من التعرض لـ ما أطلق عليه جدي «نوبة غضب وهلع». لم أستطع إيقاف ذلك؛ فقد كنتُ مرعوبة ومذعورة جداً. حاولتُ مواصلة الحديث، لكن فجأة سحبتني **السيدة جيسا** إلى صدرها وعانقتني بـ قوة. ثم أمالت رأسها وهمست في أذني:

«ليس خطأكِ. إنه خطؤهم هم يا **سيدج**. خطؤهم هم فقط. هل تفهمين؟»

الطريقة التي قالت بها ذلك ذكّرتني بـ أمي مجدداً؛ الطريقة التي أصبحت بها قاسية وشديدة على الهاتف عندما دُفعت **بوني** من على قضبان التسلق وحاولت **مراقبة مركز الرعاية** إخبار أمي بأنه كان ينبغي على **بوني** أن تكون أكثر حذراً.

لم يكن الأمر خطأ **بوني** في عدم الحذر؛ بل كان الطالب في الصف الخامس الذي دفعها هو المشكلة. هذا ما قالته أمي بـ نفس الصوت تماماً الذي تستخدمه **السيدة جيسا** الآن.

انهمرت دموعي بـ سرعة أكبر.

بغض النظر عن المتسبب في الخطأ، وكنتُ لا أزال متأكدة من أنه خطأي، فإننا كنا سنموت على أي حال.

واصلت أصوات صغيرة التساؤل من حولنا:

«ما الأمر؟»

وكررت **بوني** مراراً وتكراراً:

«سيدج؟ سيدج؟»

بينما كانت يد صغيرة تشبه يدها تمسح على ظهر قميصي المبتل بـ العرق.

بكيتُ بـ شدة أكبر فحسب.

قالت **السيدة جيسا**، وصوتها يبدو وكأنها تسحب الهواء عبر قشة:

«سيدج تشعر بـ التعب الشديد».

كان المكان خانقاً وحاراً جداً في تلك اللحظة، لدرجة أننا جميعاً كنا نتنفس بـ تلك الطريقة؛ شهيق ثقيل، وزفير ثقيل. ومع ذلك، أبقت **السيدة جيسا** ذراعيها ملفوفتين حولي بـ قوة، وكنتُ سعيدة لأنها فعلت ذلك، على الرغم من أن ذلك زاد من تعرقنا وألم البثور والجلد على يديّ المتقرحتين:

«هذا منطقي، لأن هذا وقت صعب».

سحبت نفساً آخر يبدو مؤلماً:

«أعتقد أننا جميعاً نمر بـ وقت صعب، أليس كذلك؟»

كانت هناك بضع تمتمات بـ: «نعم»، و«أنا كذلك»، و«أنا أيضاً يا سيدج»، و«لا بأس بـ البكاء».

قالت **السيدة جيسا**:

«رغم أننا جميعاً نمر بـ وقت صعب، إلا أنني بحاجة إلى أن يفعل الجميع شيئاً من أجلي الآن، حسناً؟ نحتاج جميعاً إلى مساعدة سيدج».

ترددت تمتمات الموافقة عبر الظلام في الحفرة. سألت **روز**: «ولكن كيف يمكننا ذلك؟ نحن لا نستطيع الوصول إلى السقف كما تفعل هي».

أجبرتُ نفسي على التوقف عن الانتحاب لـ أستطيع السماع بـ شكل أفضل.

لم أكن أتوقع أن تقول **السيدة جيسا** ما قالته، وكان لدي نفس سؤال **روز**: *كيف يمكن لـ أي شخص مساعدتي؟*

ابتلعت صرخة البكاء التي كانت تحاول أن تنفجر من حنجرتي. كان جزء مني متأكدًا من أنني سأختنق هنا، في هذه اللحظة بالذات. بدا لي من المستحيل أن أدخل الهواء إلى رئتي. كانت **السيدة جيسا** و**بوني** والأطفال الآخرون يعتمدون عليّ جميعًا، لكنني كنت متعبة جدًّا وخائفة جدًّا. كم يبعد مال الفدية الذي كان الرجال يتحدثون عنه؟ متى سيعودون؟ كانت الأسئلة تدور في ذهني لزجةً كالسكر في آلة صنع حلوى القطن في المهرجان.

حتى لو استطعتُ الخروج من الحفرة، كم من الوقت سيستغرق مني العثور على المساعدة؟ لم تكن لدي أي فكرة عن مكان وجودنا.

ربما يمكنني سحب بعض الأطفال الأطول قامة معي لو استطعتُ الوصول إلى أعلى الخشب المضغوط؟

هززتُ رأسي بـ يأس؛ فـ تلك المدخنة الضيقة التي عبرناها في البداية لم تكن واسعة جداً. كانت كبيرة بـ القدر الكافي فقط لـ لوح الخشب المضغوط الذي كنتُ أحفر فيه وأي شيء ثقيل وُضع فوقه وكنتُ أصطدم به باستمرار.

قطعت **السيدة جيسا** أفكاري المروعة وسألت:

«سيدج، ما حجم الثقب الذي صنعتِه في الخشب الآن؟»

قلتُ وأنا أنظف حلقي لـ يستطيع الأطفال الآخرون فهمي:

«يمكنني إدخال كلا ذراعيّ بـ الكامل من خلاله».

قالت **السيدة جيسا**:

«هذا جيد جداً جداً».

ثم قالت بـ صوت أعلى:

«سنساعد سيدج بـ القيام بـ شيء تعلمتُ كيف أفعله مرة عندما كنتُ أمر بـ وقت صعب للغاية؛ عندما توجب عليّ الابتعاد عن ابنتي لـ مدة ثلاث سنوات كاملة».

انكسر صوتها:

«واشتقتُ إليها بـ نفس الطريقة التي تشتاقون بها إلى أمهاتكم وأبائكم».

كانت هناك بضع أصوات خافتة بـ «أوه» من حول كومة المراتب.

مسحتُ عينَي، وأنا أفكر أنها لابد وأنها تتحدث عن الوقت الذي قضته في السجن.

قالت بـ سرعة أكبر:

«الشيء الذي تعلمتُه، والذي أخبرتني به مستشارة ذكية جداً لـ أقوم به، هو تخيل ما أردتُه؛ بدلاً من التفكير في ما لا أريده. مثلاً، كنتُ أفكر دائماً في كم من الوقت سيستغرق الأمر حتى أرى ابنتي **صوفي** مجدداً، أو كم أشتاق إليها. لكن ذلك جعلني أشعر بـ العجز والخوف فقط. لذا بدلاً من ذلك، أخبرتني المستشارة أن أفكر فينا ونحن نأكل الحبوب معاً في وجبة الإفطار، أو نركض عبر رشاشات المياه في يوم صيفي حار، أو مجرد قول "ليلة سعيدة" عند النوم».

تعلثم صوتها:

«لذا، هل يمكنكم جميعاً مساعدتي في فعل ذلك من أجل سيدج بينما تحاول هي جاهدة إخراجنا من هنا؟»

لاحظتُ أن **السيدة جيسا** قالت إن المستشارة أخبرتها بـ فعل ذلك، ولم تقل أنها فعلته بـ الفعل.

لم يكن هذا يبدو وكأنه سينجح.

قالت **بوني** بـ دون تردد:

«نعم».

وتبع ذلك كورال من الأصوات يكرر الشيء نفسه.

لـ ثانية واحدة، أردتُ إخبارهم ألا يزعجوا أنفسهم؛ فلن يجعلني ذلك أحفر بـ سرعة أكبر، ولم يكن لدينا ما يكفي من الوقت قبل عودة **صاحب الشعر الزيتي** و**السيد إدوارد**.

لم يكن الأطفال الآخرون يعرفون ذلك الجزء؛ ذلك الجزء الأسوأ والأكثر رعباً.

ومع ذلك، جعلني ذلك أرغب في المحاولة مجدداً بـ طريقة ما. كنتُ أريد بـ شدة ألا أخذلهم، وسأحميهم من هذا الشيء السيئ بـ أفضل ما أستطيع لأنهم آمنوا بي بـ قوة. لم أكن قد شعرتُ بـ هذا الشعور تجاه أي شيء من قبل، وجعل ذلك المزيد من الدموع تتساقط على وجنتيّ.

قالت **السيدة جيسا**:

«سأبدأ أنا. عندما نخرج، سأأكل مثلج الآيس كريم مع كل الإضافات: الكريمة المخفوقة والكرز والكثير من الكراميل الساخن».

انضم **كيد**، وصوته هادئ وحازم:

«عندما نخرج، سأعطي أمي وأبي عناقاً كبيراً؛ بـ قوة تجعلهم يضحكون ويقولون: "مهلاً هناك يا نمر!"»

ثم **بوني**:

«سأشاهد التلفاز مع اختي سيدج، وتستطيع هي اختيار العرض. ولن أقول إنني لا أحبه، حتى لو كان عرض Family Guy، ولن أخبر أمي عنها».

ابتسمتُ رغم أن ذلك كان يؤلمني. ولـ مفاجأتي، كانت **السيدة جيسا** محقة بـ الفعل؛ فقد كان من الجيد التفكير في ما ينتظرنا خارج هذه الحفرة في الأرض، حتى لو كان ذلك بعيد المنال.

كان يتوجب علينا الوصول إلى هناك فحسب.

وقفتُ على قدمَي وقلتُ بـ صوت مبحوح:

«ساعدوني لـ الصعود مجدداً».

40

جيسا

خمس وعشرون ساعة وثلاثون دقيقة من الدفن

استمر الأطفال وأنا في الحديث بينما كانت **سيدج** تكشط الخشب المضغوط كـ الماكينة.

فكرتُ في الدم اللزج الذي شعرتُ به يغطي يديها، والطريقة التي كانت تتأوه بها عندما لمستُ أصابعها الممزقة.

مراراً وتكراراً، أخبرناها عن كل الأشياء الجيدة التي تنتظرنا عندما ننجو.

عندما ننجو... وليس *إذا نجونا*.

كان عقلي يزمجر في داخلي: *أكاذيب، أمل زائف*. لكن ولـ مفاجأتي، كان ما نفعله يبدو أنه ينجح بـ الفعل؛ فـ فوق صوت أمانينا، كانت **سيدج** تكشط وتفرك الخشب بـ أظافرها بـ سرعة أكبر وأسرع.

وعلى نحو بعيد، أدركتُ أن هؤلاء الأطفال العشرة جميعهم، وخاصة **سيدج**، يعرفون سري: أنا مجرمة مدانة. ولو خرجنا من هنا، فإن محاولاتي المترددة لـ بدء حياة جديدة ستتحطم بـ

الكامل؛ سأفقد وظيفتي الجديدة، وربما أعود إلى السجن لأنني انتهكتُ شروط الإفراج المشروط بـ الكذب في طلب التوظيف. لكن سيكون لديّ حياة على أي حال. لو نجونا من هذا المأزق الجحيمي، فـ سنمتلك جميعاً حياة.

وكان ذلك هو كل ما يهم.

كنتُ أشعر بـ الدوار والتعب لـ درجة أنني بـ الكاد أستطيع الوقوف. لكنني رفضتُ الجلوس؛ فـ لو كانت **سيدج** هي من تقف هناك على قمة كومة المراتب ساعة تلو أخرى، تحفر بـ قوة أشد من أي وقت مضى، فـ بإمكاني على الأقل البقاء على بعد ذراع منها في حال احتاجت إليّ.

ورغم نصيحة مستشارة السجن—التي قدمتُها بـ كل ثقة لـالأطفال—إلا أنني لم أطبقها قط على حياتي الخاصة في الواقع. لكن صوت تلك الأصوات الصغيرة وهي تنادي بـ كل هذا القدر من الشجاعة والتفاؤل في هذا المأزق الخانق الخالي من الهواء جعلني أفكر في أنه كان خطأً مني.

ربما كان هناك شيء يمكن الأمل فيه—كل أنواع الأمل—بعد كل شيء.

41

سيدج

ست وعشرون ساعة من الدفن

لم أستطع معرفة كم من الوقت كان يمر بينما كنتُ أُجعل الثقب أكبر؛ كل ما عرفتُه هو أنه يتوجب عليّ الإسراع بـ أقصى ما أستطيع.

لم أسمح لـ نفسي بـ التفكير في مدى الألم الذي يشعر به جسدي، أو في ما قاله **السيد إدوارد** و**صاحب الشعر الزيتي**؛ بل ركزتُ فقط على ما كانت تقوله الأصوات تحتي. حتى اتسع الثقب في الخشب المعاكس لـ درجة مذهلة جعلتني أمد ذراعيّ وكتفيّ من خلاله وأضغطهما ضد الحواف المشرشرة لـ الخشب الممزق. لامست أطراف أصابع يدي اليمنى لوحاً خشبياً آخر—تلك المدخنة التي تسلقنا عبرها سابقاً. ولامست أطراف أصابع يدي اليسرى المعدن القذر والدافئ لـ ذلك الشيء الكبير القابع فوق الخشب المضغوط.

تأتأتُ وأنا أمل بـ قوة في أن أكون محقة:

«أعـ... أعتقد أنني قد استطيع سحب نفسي لأعلى عبر الثقب الآن لو رفعني أحدهم».

سيكون ضيقاً جداً، لكنني كنتُ متأكدة بـ الفعل من أنني سأستطيع الصعود إلى المدخنة لو تسللت عبرها. عندما كان جدي لا يزال يعيش في منزله القديم، وجدتُ أنا و**بوني** ثقباً في خزانة حمامه في الطابق السفلي، يؤدي إلى ثقب في خزانة الحمام في الطابق العلوي. قالت أمي إنه «منزلق غسيل»، وأخبرتنا ألا نلعب فيه.

لكننا فعلنا ذلك على أي حال في أول فرصة أُتيحت لنا، ونحن نقهقه بينما نتسلق صعوداً ونزولاً عبر ذلك النفق المربع الضيق.

كنتُ متأكدة بـ الفعل من أن الثقب الذي صنعتُه في الخشب كان بـ ذلك الحجم تقريباً، لكن بـ الكاد، ولم تكن حوافه ملساء كـ منزلق الغسيل.

قالت **السيدة جيسا**:

«أجل يا سيدج، هذا مذهل! هل يستطيع الجميع التمسك بـ جوانب كومة المراتب؟ إيفلين، هل تعتقدين أن بإمكانكِ إبقاء الدلو ثابتاً من أجل سيدج لو تسلقتُ فوق المراتب واستلقيتُ بـ جوارك لـ أرفع سيج لـ الأعلى؟»

قالت **إيفلين** وكأنها ولدت لـ هذه اللحظة بـ الذات:

«أستطيع فعل ذلك».

«حسناً، **بين و روز**، تعاليا وارفعا ساقي. والجميع، اضغطوا على كومة المراتب حتى لا تتأرجح بـ شدة. سأتحرك بـ بطء».

ثبتُ يدي على حافة الثقب المشرشرة بينما تسلقت **السيدة جيسا** نحوي. كان الأمر أسهل الآن بعد أن أصبحت لديّ حافة أتمسك بها، حتى عندما كانت المراتب والدلو يهتزان قليلاً تحت قدمَي.

وفي وقت قصير، شعرتُ بـ يدي **السيدة جيسا** تبحثان عن حذائي فوق الدلو:

«هل أنتِ مستعدة يا سيدج؟»

انقبضت معدتي، وسرى شعور حار ومتحمس عبر عروقي، وكأنني تناولتُ لـ التو كمية كبيرة من الحلوى:

«مستعدة».

هتزت المراتب مرة أخرى عندما انحنت **السيدة جيسا** وحركت أصابعها المتشابكة تحت القدم التي كنت أرفعها لها لتتمسك بها.

قبضتُ بـ قوة على الجوانب المليئة بـ الشظايا لـ الخشب:

«حسناً، ابدئي».

ارتفعت ذراعيّ ورأسي عبر الثقب.

وعندما لامس إبطاي الحواف المشرشرة، بدأتُ في الارتباك والهلع: *لن أتسع هنا!* انغرزت أجزاء من الخشب الحاد في إبطي في مكانين، وكأنها تريد اختراق الجلد. سيتوجب عليّ بدء الكشط من جديد بـ الكامل.

نادت **بوني** من تحتي، بينما كنتُ أتلوى بـ قوة أكبر رغم أن الحواف الخشنة كانت تؤلمني:

«سيدج، عندما تصلين إلى القمة ستكونين فخورة جداً بـ نفسكِ!»

قلتُ لـ **السيدة جيسا** لأنها توقفت لـ ثانية:

«واصلي دفعي لـ الأعلى».

لويتُ صدري وشعرتُ بـ الشظايا تنغرز بينما كانت **السيدة جيسا** تدفع قدمَي لـ الأعلى.

كتمتُ صرخة الألم التي أردتُ إخراجها، ونجحتُ في وضع يديّ فوق الجانب العلوي لـ الخشب المضغوط.

نعم، نعم، نعم!

مع بسط كفيّ فوق الخشب القذر المليء بـ الشظايا، دفعتُ بـ أقصى ما أستطيع واستندتُ على يدي **السيدة جيسا**. كان الجلد على بطني يؤلمني بـ شدة لدرجة أنني تخيلتُ لـ نصف ثانية أن الحواف المليئة بـ الشظايا تخترق قفصي الصدري ورئتيّ.

لكن ذلك لم يكن ما حدث.

شيئاً فـ شيئاً، تلاشى الضغط الناتج عن الحواف الحادة، وكنتُ أتحرك بـ الكامل إلى داخل المدخنة.

هسستُ، وأنا بـ الكاد أصدق ذلك:

«لقد صعدتُ، لقد صعدتُ!»

ارتفعت هتافات خافتة لـ استقبالي:

«سيدج، لقد فعلتِها!»

«سنخرج من هنا!»

42

سيدج

ست وعشرون ساعة من الدفن

«السيدة جيسا، هل يمكنكِ رفعي لـ الأعلى أنا أيضاً الآن؟» سأل **بين**، وكان التالي من حيث الطول.

«نعم، بـ مجرد أن تجد سيدج طريقاً لـ الصعود عبر ممر المدخنة».

استنشقتُ نفساً ممزقاً؛ كان التنفس هنا أسهل بـ الفعل، بـ القرب من السطح. وكانت نسيمات متناهية الصغر تداعب الشعر على ذراعيّ.

كانت ذراعيّ المرتجفتان تقطران بـ طبقة جديدة من الدم الحار والحارق بينما حركتُ قدمَي حول الحافة الضيقة لـ الخشب المضغوط. ثم تسلقتُ بـ حذر فوق ذلك الشيء المربع الكبير والثقيل في منتصف الخشب، مسندةً يديّ على ألواح الخشب الملتوية التي شكلت جدران المدخنة الضيقة.

كان هناك القليل من الضوء يدخل إلى المدخنة من فوقي؛ شقوق صغيرة حول إحدى حواف تلك القطعة المعدنية الكبيرة التي تغطي مدخل الحفرة.

وقفتُ بـ بطء، وكنتُ بـ الكاد أجرؤ على الأمل في أن أكون قادرة للوصول إلى اللوح المعدني. لم يكن بعيداً بـ تلك الدرجة. مددتُ يديّ، وأطراف أصابعي تمتد نحو السماء. وانقبض قلبي؛ فـ لا يزال هناك مسافة قدمين كاملتين فوق أطراف أصابعي، حتى وأنا واقفة فوق الجسم الثقيل.

ناديتُ لـ الأسفل:

«لا أزال لا أستطيع الوصول إلى القمة».

سألت **السيدة جيسا** بـ أمل:

«هل يمكنكِ سحب روز أو بين لـ الأعلى هناك معكِ؟ أعتقد أنني أستطيع رفعهما عبر الثقب لو كان هناك متسع لـ الوقوف».

هززتُ رأسي وضيقتُ عينيّ أنظر في جدران الخشب المنحنية نحوي. كان المكان هنا أضيق مما أتذكره عندما تسلقنا عبره سابقاً؛ فقد كان مجرد إدخال ذراعيّ وساقيّ في الوضعية المناسبة لـ الوقوف يمثل صراعاً. لم أكن متأكدة كيف اتسع السلم لـ الهبوط هنا بـ الأصل! أتذكر أن ممر المدخنة كانت أكبر، وكانت جدران الخشب أكثر استقامة. بـ التأكيد لن أكون قادرة لـ رفع شخص آخر معي إلى هنا.

مررتُ إحدى يديّ على الخشب وعبست؛ كان رطباً.

وفجأة تذكرتُ صوت المطر من الليلة الماضية، وهو يضرب بـ سرعة وقوة على اللوح المعدني فوقنا قبل أن ننام:

«لا أعتقد أن هناك متسعاً لـ أكثر من شخص واحد. المطر... لقد بلل الجدران الخشبية، وهي تنحني إلى الداخل بـ شدة. هل يمكنكِ إعطائي الدلو؟ أعتقد أنني أستطيع وضعه فوق هذا...»

ركلتُ ذلك الشيء الأسود الكبير الذي كنتُ أقف عليه، مختبرةً مدى صلابته. لم يتحرك:

«هناك شيء مربع كبير يمكنني وضع الدلو فوقه».

كان هناك قعقعة خفيفة تحتي بينما حاولت **السيدة جيسا** دفع الدلو لـ الأعلى عبر الثقب، ثم ارتطام قوي عندما حاولت إجباره على المرور.

قالت **السيدة جيسا**:

«الشكل غير مناسب؛ سيتوجب علينا جعل الثقب أكبر. هل يمكنكِ كسر المزيد من قطع الخشب ؟»

لأنني كنت منشغلة جدًّا بفكرة خطرت على بالي فجأة.

كانت فكرة من طراز «المحققة هاربيت»، وأرسلت شرارة صغيرة من الأمل عبر عروقي.

ناديتُ مجدداً:

«لا أعتقد أنني بحاجة إلى الدلو... أنا أعرف كيف أخرج الآن!»

43

شينا

انعطفتُ نحو المخرج المؤدي إلى مخيم «ليتل إيدي»، وأنا ألهث والعرق يغمرني لـ درجة قد تجعل من يراني يظن أنني كنتُ أركض بدلاً من القيادة صعوداً عبر طريق الجبل.

كنتُ أسبق الوقت المحد بـ سبع دقائق بـ الضبط.

مسحتُ الجزء الخلفي من رقبتي الرطبة، وألقيتُ نظرة خاطفة نحو وميض ضوء النهار الذي كان يتلاشى بـ سرعة غارباً خلف أبعد خط لـ الأشجار على قمة الجبل. لن يكون الغروب الفعلي قبل نصف ساعة أخرى، لكن مع هبوط الشمس خلف الجبال، كان يبدو وكأن الغسق قد حلّ بـ الفعل بـ كل جديّة.

صعبت على تجمعات أشجار الصنوبر الكثيفة المتناثرة في أرجاء مواقع التخييم في «ليتل إيدي» عليّ رؤية ما إذا كان هناك أي شخص قادم عبر الطريق الترابي الضيق إلى المخيم، لكنني واصلتُ تحريك عينَي بـ سرعة بين الفينة والأخرى على أي حال، ظانة أنى اتخيل ظل داكن لشخصاً ما.

سحبتُ نفساً وحاولتُ إرغام نفسي على الهدوء. ومع إخراجي لـ ذلك النفس الطويل، جعلتني حركة خاطفة ومفاجئة عبر

الأشجار أقبض بـ قوة أكبر على عجلة القيادة وأعتدل في جلستي مجدداً.

كانت مجرد طفلة صغيرة—في الحادية عشرة من عمرها ربما، بـ العمر نفسه تقريباً لـ **سيدج**—تركب دراجتها الهوائية عبر المسارات الترابية الممتلئة بـ النتوءات.

أردتُ إنزال نافذة السيارة والصراخ في وجهها بأن شيئاً سيئاً يحدث في هذا المكان الهادئ من الغابة، وبأن عليها العودة إلى موقع تخييمها والابتعاد بـ دراجتها ذات العجلتين بـ أسرع ما يمكن.

بدلاً من ذلك، أطبقتُ على أسناني وراقبتُها وهي تنحدر على منحدر، وشعرها الأشقر الطويل يتطاير في الضوء الرمادي، وذقنها مرفوع لـ الأعلى والابتسامة تعلو وجهها بينما مرت بـ لافتة بداية مسار «بول كريك» واختفت بين الأشجار.

فتحتُ نافذة السيارة بـ مقدار شق صغير، فتدفقت رائحة طهي الطعام على نيران المخيم الدخانية والشهية عبر الهواء، مما جعل معدتي تصدر صوتاً رغم الرعب المستمر الذي يتقلب في داخلي. كنت قد شربت نصف كوب من القهوة التي أعدتُها منذ يوم في ذلك الصباح، لكن هذا كان كل ما تناولته اليوم. شعرتُ بضيق في معدتي وحموضة شديدة، وكأنها مليئة بالعصارة الحمضية.

أربع دقائق. كان يتوجب عليّ البقاء في مكاني حتى ذلك الحين. تحركت عيناي إلى حقيبة الظهر الممتلئة بـ الأموال النقدية على أرضية مقعد الراكب، ثم عادتا إلى الساعة على لوحة القيادة. في غضون أربع دقائق بـ الضبط، كان من المفترض أن أخرج من سيارتي وأترك كل ذلك لـ الخاطفين.

كنتُ أعرف ما كان يتوجب عليّ فعله؛ فـ التعليمات لم تكن لـ تكون أكثر وضوحاً من ذلك، وكنتُ قد حفظتُها عن ظهر قلب منذ أول مرة رأيتُها فيها الليلة الماضية:

ستحضرين النقود، في حقيبة ظهر، إلى بداية مسار «بول كريك» في مخيم «ليتل إيدي» في الساعة 7:00 مساءً بـ الضبط. ثم تقودين سيارتكِ مبتعدة. لن نسترد الأموال حتى تغادري.

ومع ذلك، ومع كل ثانية تمر، كان عدم الارتياح يطباق على أحشائي كـ المكبس الذي يزداد إحكاماً. كيف يمكنني إرغام نفسي بـ الفعل على القيادة بعيداً، ممتلئة بـ الثقة في أن الشخص الذي أخذ طفلتيّ سيفي بجزءه من الاتفاق ويتصل بي لإعادة الأطفال بمجرد أن أقوم بتحويل البيتكوين عند وصولي إلى المنزل؟

أجابتني أحشائي المجهدة: *«لأن هذا هو كل ما تملكينه»*.

وفجأة، لاحت في عقلي الصورة الجنائية ذات العينين الميتتين لـ سائقة الحافلة من المقال الإخباري.

انقبضت معدتي بـ شدة أكبر وأعدتُ عينَي لـ التطلع إلى الساعة على لوحة القيادة.

ثلاث دقائق متبقية.

همستُ بـ صوت خفيض:

«تباً».

في نبرة نصفها كلمة ونصفها أنين. كنتُ أظن بـ الفعل أن الحصول على المال سيكون الجزء الأصعب.

لكنه لم يكن كذلك؛ فـ البقاء هنا في هذه اللحظة بـ مفردي، دون معرفة ما إذا كنتُ أفعل الشيء الصحيح أم أفسد الأمر بـ الكامل، مع كون حياة طفلتيّ على المحك، كان هو الجزء الأصعب.

وأياً كان ما سيحدث بعد ذلك، فقد كان مسؤوليّتي بـ الكامل. لقد فعلتُ بـ الضبط ما طلبتُه رسالة الفدية، بـ الحرف الواحد: لم أتصل بـ الشرطة، ولم أخبر أحداً، وكان بحوزتي المال— معظمه على الأقل. وكنتُ على وشك القيادة عائدة إلى المنزل بـ أقصى سرعة لـ تحويل البتكوين.

كنتُ أتتوق بـ شدة لـ أن يخبرني أحدهم بأنني أفعل الشيء الصحيح، وبأنه بـ حلول صباح الغد، ستكون **سيدج** و**بوني**

تلفان ذراعيهما حول رقبتي بـ شدة تجعلني بـ الكاد أستطيع التنفس.

ثم سمحتُ لـ نفسي أخيراً بـ تخيل الخيار البديل: وصول الشرطة والفيدراليين إلى عتبة بيتي الليلة، ومحاصرة المنزل، عندما يؤدي تحويل البتكوين إلى إفراغ أموال السندات من حسابات المدينة و تشغيل الإنذار الرقمي.

سيدركون بـ سرعة كبيرة ما يحدث عندما أكمل تلك الخطوة الأخيرة من الفدية؛ وسيكتشفون من أكون وأن طفلتيّ كانتا على متن تلك الحافلة.

تخيلتُ ضابطاً من الفيدراليين بـ وجه أحمر ويرتدي بدلة يسألني أن أخبره مجدداً لماذا كنتُ غبية لـ درجة البقاء صامتة، والتفكير في أنني أستطيع القيام بـ هذا بـ مفردي. بـ التأكيد كنتُ أعرف أفضل من ذلك! تخيلتُه يخبرني بأن حقيبة الظهر الممتلئة بـ الأموال هي الخيط المادي الأخير المتبقي لـ الوصول إلى الخاطف.

والآن طفليّ—وأطفال الآباء الآخرين—قد اختفوا فحسب.

استمعي إلى أحشائكِ يا شينا. فكري في ميندي فالكريست؛ فـ "الشيء الصحيح" ليس دائماً هو الشيء الصحيح.

كنتُ أضغط بـ شدة على الجزء الداخلي من خدي لدرجة أنني استطعمتُ طعم الدم. هل كان هذا حقاً ما سيخبرني به أبي لو

كان عقله سليم؟ أم أن هذه مجرد قصة أرويها لـ نفسي لأنني مرعوبة جداً لـ درجة لا تسمح لي بـ التفكير بـ شكل صحيح؟

ماذا فعلتُ؟

دقيقتان.

أناملي ترتجف، فتحتُ أقفال أبواب السيارة ومددتُ يدي لـ الإمساك بـ مقبض حقيبة الظهر.

وبينما أتحرك، لفت انتباهي بريق ذهبي من حامل الأكواب في السيارة: الساعة الرولكس المقلدة والمكسورة الخاصة بـ أبي.

مددتُ يدي نحوها، وقد غمرتني مشاعر قوية من الانفعال والذعر:

«ماذا يتوجب عليّ أن أفعل بحق السماء يا أبي؟» همستُ.

لم أكن أتوقع إجابة.

لكن بعد ذلك، لاحت فكرة خافتة في زوايا عقلي.

كان عقرب الثواني في الساعة يتحرك نحو الساعة السابعة بينما كنت أفرد حلقات السوار، والعرق البارد يتدفق في مجاري صغيرة على ظهري.

همستُ مجدداً وصوتي ينكسر:

«تباً».

هل كانت هذه فكرة جيدة أم سيئة؟ كان عقلي المجهد يتخبط؛ فلم يكن هناك ما يكفي من الوقت لـ أفكر في الأمر بـ شكل كامل.

دقيقة واحدة.

افعليها، حثتني أحشائي بـ صوت أعلى وأكثر حزماً من أي شيء شعرتُ به طوال اليوم.

ألقيتُ الساعة مجدداً على المقعد وأمسكتُ بـ قلم وإيصال بنكي كان ملقى تحت نظارة شمسية على لوحة القيادة، وأنا أدعو أن تكون الأداة لا تزال تعمل.

ثم كتبتُ ملاحظة بـ سرعة، ولففتُها حول الساعة المكسورة، ووضعتُ كلا الأمرين في أعلى حقيبة الظهر:

لم أستطع الحصول على كل الأموال النقود؛ هناك نقص بـ مقدار 5,700 دولار. هذه ساعة رولكس الخاصة بـ أبي؛ وسيكون من السهل جداً إصلاح القفل، وهي تساوي 12,000 دولار.

نظرتُ إلى الساعة: صفر دقائق.

وقبل أن أسمح لـ نفسي بـ الانهيار، أمسكتُ بـ حقيبة الظهر، وفتحتُ باب السيارة وخطوتُ بضع خطوات نحو بداية مسار «بول كريك».

من مكان ما أبعد عبر الطريق الترابي في المخيم، كان صوت مولد سيارة التخييم يطن بـ خفوت. ونادى أحدهم على كلب ينبح، بينما أصبحت الرائحة الخافتة لـ اللحم والبطاطس المطبوخة على نار مخيم أحدهم أكثر قوة.

لكن كل ما استطعتُ رؤيته، والمحشور في الغابة عند بداية المسار، كان أشجاراً داكنة وسماء رمادية تزداد ظلمة.

كانت ساقاي ترتجفان، لكنني دفعتهما للأمام حتى وقفتُ بـ جوار مجموعة من شجيرات التوت، التي بدأت أوراقها تتلون بـ الأحمر بـ الفعل بـ سبب الليالي الباردة في المرتفعات. وضعتُ حقيبة الظهر بينها، ثم تراجعتُ لـ الخلف لـ أرى ما إذا كانت مرئية من طرف الطريق الترابي.

بـ الكاد فقط؛ ولا يراها المرء إلا إذا كان يعرف ما يبحث عنه بـ الضبط.

ثم أجبرتُ نفسي على السير عائدة إلى سيارتي بـ خطوات متزنة، بـ دون القيام بـ أي شيء قد يجعل متنزهاً يخرج لـ المشي عبر الغابة ينظر إليّ مرتين.

لم ألتفت بـ نظرة إلى الخلف فوق كتفي.

ولم أتردد بينما انسحبتُ من المخيم ودخلتُ الطريق السريع الريفي في اتجاه «صن سيت سبرينغز».

لكنني لم أعد إلى المنزل.

44

تيد

أخرج **أندي** رأسه من النافذة المفتوحة لـ جانب الراكب في سيارة السيفيك كـ الكلب، وهو يسيل لعابه تقريباً. ثم خفض منظاره المكبر—نفس المنظار الذي استخدمناه في وقت سابق من اليوم—وأشار إلى مسار الغزلان الداكن والضيق الذي يتقاطع مع «بول كريك».

همس بـ نفاد صبر لـ المرة الثالثة:

«يا صاح، لقد غادرت، لنذهب!»

كان شعره، الذي لم يُمشّط خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية—ربما أكثر—يبدو أكثر تشعثًا مما رأيته من قبل، محيطًا بخدّيه. وكان بـ التأكيد لا يزال ثقلاً من البيرة.

سألتُ وأنا أمد يدي إلى المفتاح لـ إيقاف المحرك:

«هل قادت سيارتها مبتعدة بـ الفعل؟ هل أنتَ متأكد؟»

سحب رأسه من النافذة ودفع المنظار المكبر على حضني:

«أنا ثمل، ولستُ أحمقاً. أجل يا أخي، لقد غادرت».

طالبتُه بـ حزم:

«وهل كانت تبدو وكأنها لم ترَنا؟»

أصر بـ نبرة جافة وهو يرفع يده كـ قسم الكشافة:

«الظلام يحيط المكان، لم ترَ خراءً».

دق قلبي عندما سحبتُ المفاتيح من محرك التشغيل، وخرجتُ من السيارة، وتبعتُه عبر المسار المليء بـ الشجيرات المنخفضة الذي يؤدي إلى الطرف البعيد من المخيم، حيث توجد المداخل الفعلية لـ المسارات ومواقع التخييم. كان هذا الجانب من «ليتل إيدي» عبارة عن حفر للمراحيض ومواقع تخييم مغطاة بـ النباتات المتضخمة، مع لافتة «مغلق» وسلسلة ممتدة عبر الطريق.

تذمر **أندي**:

«حقيبة الظهر كانت تبدو صغيرة نوعاً ما؛ يجدر بـ تلك العاهرة أن تكون قد أحضرت كل الأموال ».

هسستُ:

«هش!»

لم يكن هناك أي شخص بـ القرب منا؛ فـ كل مواقع التخييم الحديثة كانت على بعد ربع ميل، بـ القرب من الطريق الترابي الرئيسي. وأي شخص يخرج لـ التنزّه في المساء سيكون متجهاً بـ التأكيد نحو أحد المسارات المحددة—مثل «بول كريك». لكن الصوت كان ينتقل في الهدوء، ولم يكن هناك داعٍ لـ التصرف بـ غباء.

همستُ، وأنا لا أريد تعكير مزاج **أندي** مجدداً:
«أنا متأكد من أن الأموال كاملة هناك؛ فهي تريد استعادة طفلتيها».
كان قول ذلك يشبه حجراً هبط في قاع معدتي.
لم نكن قد استقررنا بعد على ما سنفعله بـ الأطفال وسائقة الحافلة—رغم أننا تناقشنا حول الأمر طوال طريق القيادة.
كان **أندي** لا يزال يريد «الاعتناء بهم»، كما قال بـ صوته المترنح والمتلعثم.
لم أعد أعرف ما أفكر فيه؛ ليس منذ أن علمتُ أن أولئك الأطفال ربما يكونون قد رأوا وجه **أندي**... والمحجر.
بالتأكيد، لم تكن هناك أي طريقة لـ أن يعرف أي منهم من يكون **أندي**. ومع ذلك، لو استطاعت سائقة الحافلة أو أي من الأطفال توجيه رجال الشرطة إلى المحجر—وإلى **أندي**—فـ سأكون قد هلكت. الجميع يعرف أنني أنا و**أندي** مقربان جداً؛ ولو ألقوا القبض عليه، فـ سيلقون القبض عليّ بـ التأكيد.
بحق الخراء!
دفعتُ هذه الأفكار جانباً وأخبرتُ نفسي بأننا سنستلم الأموال، ثم نكتشف الأمور بـ طريقة ما بعد ذلك. وعند تلك النقطة، ستكون خطتنا—باستثناء حيلة الاختفاء بـ الفدية—قد اكتملت.

لم تكن هناك أي سيارات حولنا بينما اقتربنا من بداية مسار «بول كريك» سيراً على الأقدام، ولا أشخاص أيضاً؛ مجرد الظلام، وهو يخيم بـ عمق بين أشجار الصنوبر الطويلة.

همس **أندي** وهو يقتحم الشجيرات بـ قوة:

«انظر!»

فـ أصدر طائر مذعور صوتاً حاداً وطار في الاتجاه المعاكس لـ أقدامنا.

وقفتُ وحدقتُ بينما انحنى **أندي**، متمتماً بـ شيء لم أستطع سماعه.

نبح كلب في مكان ما من اتجاه مواقع التخييم، وانكمشتُ لكنني أجبرتُ نفسي على عدم التطلع حولنا وكأنني أفعل شيئاً مشبوهاً.

«رغم أن هذا ما تفعله بـ الفعل بحق السماء!» قال صوت في رأسي وكان يشبه صوت أمي.

دفعتُ الصوت بعيداً؛ وكأن لديها أي مجال لـ تقديم نصائح لي حول الأخلاق!

كانت حقيبة الظهر السوداء في يدي **أندي**. ولـ ارتياحي، لم يفتحها؛ بل ألقاها فوق كتفيه كما تحدثنا بـ الضبط، واتجه بـ خط مستقيم إلى المكان الذي تركنا فيه السيفيك. لم يكن يسير بـ خط مستقيم تماماً، لكنه لم يكن يترنح لـ درجة السقوط أيضاً، وكان ذلك جيداً بـ القدر الكافي في الوقت الحالي.

تنهد بـ ثقل وهو يهرول بـ سرعة جعلتني أركض بـ الكاد لـ أستطيع مواكبته:

«إنها ثقيلة؛ هذا أمر جيد، أليس كذلك؟»

لم أجب؛ ليس حتى عدنا إلى داخل السيارة وأقفلنا الأبواب.

وفي الثانية التي أصبحنا فيها داخل السيارة، فتح **أندي** السحاب وكان يحدق في داخل حقيبة الظهر بـ تعبير على وجهه لم أره من قبل قط: العبادة، ربما... والقليل من الارتباك.

مد يده إلى داخل الحقيبة والتقط شيئاً ذهبي اللون. كانت هناك قطعة ورقية مطوية حوله، وأصدرت صوتاً معدنياً خفيفاً.

جعدت أنفي؛ كانت ساعة يد—مع قفل مكسور.

فتح **أندي** الورقة، وقرأها، ثم دفعها نحوي مع ضحكة:

«عاهرة غبية! كيف من المفترض أن نتقاسم ساعة، حتى لو كانت تساوي اثني عشر ألفاً؟ ولن تكون الأموال متساوية الآن!» تذمر **أندي**، لكنه كان يضحك: «هل تظن أنها حقيقية؟»

سأل وهو يقرب الساعة من وجهه: «إنها تبدو ثقيلة. إنها حقيقية بـ التأكيد، أليس كذلك؟ لن تعبث معنا بـ هذه الطريقة، أليس كذلك..»

أخرجتُ ضحكة تبدو حقيقية:

«خذها أنت».

لف **أندي** أصابعه بـ قوة أكبر حول الساعة وتفحصني:

«لماذا تفعل ذلك؟»

قلتُ وأنا أفكر بـ سرعة أكبر:

«دعني أنهي كلامي فقط؛ سنتقاسم الأموال بـ التساوي، وتحصل أنت على ساعة الرولكس». ثم أضفتُ: «وأنا من يقرر ما يحدث لـ الأطفال».

تجهم وجهه، وتعمقت التجاعيد بين حاجبيه:

«لن أُعتقل لمجرد أنك لا تملك الشجاعة لـ فعل ما يتوجب علينا فعله! ساعة الرولكس اللعينة لن تفيدني في شيء في السجن».

هززتُ رأسي بـ حزم:

«لا هراء! هل تظن أنني أريد أن أُعتقل؟ أنا لا أقول إنني لن أفعل ذلك لو اضطررنا... أريد فقط فرصة لـ التفكير. لدينا وقت؛ غداً الأحد، يوم كامل بينما المحجر لا يزال مغلقاً في عطلة نهاية الأسبوع».

جلس **أندي** إلى الخلف في مقعد الراكب وهز رأسه لكنه لم يجب.

شغلتُ السيارة:

«هل بيننا اتفاق؟ تحتفظ أنت بـ الرولكس—وتتوقف عن الحديث عن قتل الأطفال حتى أفكر في هذا الأمر بـ شكل كامل؟» ترددتُ ثم قلتُ: «سأصل إلى خطة أفضل بكثير».

جعل هذا الابتسامة تعلو وجهه—ابتسامة كبيرة ومعوجة ومليئة بـ الأسنان جعلت قشعريرة تسري في جلدي. أدخل ساعة الرولكس في الجيب الأمامي لـ جينزه:

«حسناً، عندما تضع الأمر بـ هذه الطريقة...»

45

شينا

انطلقتُ بسرعة على الطريق الجبلي المتعرج في الظلام الذي كان يزداد كثافةً، وأنا أدعو الله أن تظل الأشكال ذات لون الغسق التي كانت تكمن على جانب الطريق في مكانها.

كان آخر ما أحتاجه هو صدم غزال والخروج عن الطريق.

كان يبدو بـ الفعل أن الأمور تخرج عن السيطرة، خاصة مع تلك الحركة الجريئة التي قمتُ بها لـ التو بـ وضع ساعة أبي في حقيبة الأموال النقود. هل ارتابوا في شيء؟

لا، لن يفعلوا. لماذا قد يفعلون؟ لقد كانت تبدو كـ ساعة رولكس حقيقية تماماً.

ورغم ذلك، لم أستطع التخلص من الرعب الذي كان يزداد مع كل ميل أقطعه. وفي كل اتجاه أنظر إليه، كان الفشل يكمن في الشجيرات.

لم تكن هناك أضواء سيارات خلفي بعد. وفي الدقائق العشر الماضية، لم أمرّ إلا بـ سيارتين أخريين متجهتين في الاتجاه المعاكس، نحو «ليتل إيدي». لكن لم يكن هناك سوى طريق سريع واحد يقطع هذه الجبال. وما لم يكن الخاطفون يخططون

لـ القيادة في الاتجاه المعاكس عبر الطريق السريع—بـ عمق أكبر في الغابة الوطنية لـ مسافة مئة ميل—فـ سيكونون خلفي مباشرة بـ مجرد حصولهم على المال.

هذا ما كنتُ أراهن عليه على أي حال؛ لأنهم لو كانوا يخططون لـاستخدام هواتفهم المحمولة لـ التحقق مما إذا كنتُ سأكمل تحويل البتكوين—الفدية الحقيقية مقارنة بـ الخمسين ألف دولار التي طلبوها نقداً—فـ لن يستطيعوا البقاء في الغابة.

أرجوك يا الله، لا تدعهم يقون في الغابة.

لو فعلوا ذلك، فلن تفيد تلك الساعة أحداً.

وكل بضع ثوانٍ، كنتُ ألقي نظرة على رسالة «طوارئ فقط» على شاشة هاتفي، متوسلةً أن تمنحني شريط إشارة واحداً.

صرختُ أخيراً بـ إحباط:

« هيا!»

وكأنها كانت تنتظر مني أن أطلب ذلك فحسب، ظهر الشريط.

«تباً، نعم!»

أستطيع تتبعهم الآن.

ضغطتُ على الكوابح بـ قوة وبدأتُ أبحث عن طريق لـ خدمة الغابات، في أي مكان أستطيع الانعطاف إليه وإخفاء سيارتي بعيداً عن الأنظار لـ بضع دقائق لـ النظر في هاتفي.

لم أكن أعرف كيف تبدو سيارة الخاطف، لكنني كنتُ متأكدة من أنهم يعرفون سيارتي. ولو رأوني متوقفة على جانب الطريق بدلاً من الإسراع إلى المنزل لـ تحويل البتكوين—ف ستخرج كل الأمور عن السيطرة بـ الكامل.

ظهر التراب الفاتح لـ طريق ضيق ملئ بالحصى في أضواء سيارتي الأمامية بعد لحظة، وضغطتُ على الكوابح بـ شدة تجعل الإطارات تصدر صفيراً حاداً.

نجحتُ في إجراء الانعطاف، ثم درتُ حول منحي تحيط به أشجار الصنوبر والنباتات المتداخلة حتى تأكدتُ من أن سيارتي ستكون بعيدة عن أنظار الطريق الرئيسي. ثم أطفأتُ الأضواء الأمامية، وفتحتُ نافذة السائق بـ مقدار بوصة واحدة، وأمسكتُ بـ هاتفي، وخفضتُ السطوع إلى أدنى حد.

لا أزال أمتلك ذلك الشريط الواحد من الخدمة.

تمتمتُ بـ همس حاد وأنا أتعثر بين التطبيقات على الشاشة حتى وجدتُ الأيقونة المألوفة لـ وجه ساعة ذهبية:

«أرجوكِ أعملي».

حبستُ أنفاسي بينما كان التطبيق يحمل، آملةً في الأفضل ومستعدة لـ الأسوأ.

لم أكن قد اهتممت بشحن ساعة أبي ليلاً، لأن قفلها كان قد انكسر بالأمس، وكان قد ذهب للإقامة في دار «القلوب العزيزة».

لكن بـ التأكيد لا تزال تحتفظ بـ القليل من الطاقة على الأقل.
جعلني الصوت الخافت لـ الإطارات على الطريق—متبوعاً بـ وميض الأضواء الأمامية—أرفع عينَي. هل كان ذلك هو الخاطف؟ ضرب قلبي في صدري بينما اختفى الصوت والأضواء دون أي ترنح قد يشير إلى أنهم رأوا سيارتي.
أعدتُ عينَي بـ سرعة إلى التطبيق الذي يحمل:
«هيا، أسرعي!» توسلتُ.
وبعد بضع ثوانٍ طويلة ومؤلمة، ظهرت شاشة التسجيل. أسرعتُ لـ كتابة كلمة المرور، ولـ حسن الحظ كتبتُها بـ شكل صحيح من المحاولة الأولى—وحدقتُ بينما تعمل الصفحة الرئيسية.
اتجهت عيناني إلى الإشعار الموجود في الزاوية العلوية الذي يقول: **بطارية الساعة ضعيفة—8%**.
أخرجتُ شهقة خفيفة؛ لا يزال هناك بعض الطاقة المتبقية في الساعة.
سينجح هذا، لكن لا أملك الكثير من الوقت.
حدقتُ في النقطة الموجودة على الشاشة الرئيسية التي تعرض كلمة **أبي**، فوق نقطة تتحرك بـ سرعة على الطريق السريع.
على بعد 1.4 ميل.

انحبس نفسي في حلقي؛ فالسيارة التي مرت بـ سرعة بـ الجوار لـ التو كانت سيارة الخاطف! ولم تكن هناك أي إشارة على الإطلاق تدل على أنهم يعرفون أنني انعطفتُ هنا. كنت أتساءل طوال اليوم عما إذا كان هناك من يتعقبني، والآن عرفتُ أنه كان تهديداً فارغاً.

ترقرقت دموع جديدة في عينَي ومسحتُها بـ غضب، مددة يدي إلى محرك التشغيل.

عادت سيارتي إلى الحياة بـ طنين خفيف، وضغطتُ بـ قدمي على دواسة البنزين، مبقيةً عيناً على الطريق وعيناً على تلك النقطة المتحركة الصغيرة بينما زدتُ سرعة السيارة وضاعفتُ الفجوة إلى ميل واحد.

ومهما أردتُ الضغط على دواسة البنزين والقيادة كـ المجنونة، لم أكن أجرؤ على الاقتراب أكثر.

فـ من ناحية، لم تكن هناك سوى سيارات قليلة جداً على هذا الطريق السريع الموحش الآن، وفي الثانية التي ينعطف فيها الخاطفون إلى مكان ما—وأتبعهم—سيكون الأمر مجرد وقت فقط قبل أن يبدأوا في الانتباه إلى السيارة خلفهم. وعندها لن يقودوني إلى الأطفال بـ التأكيد.

ومن ناحية أخرى، لم أستطع الاعتماد على بطارية الساعة.

نظرتُ إلى النقطة المتحركة على شاشة التطبيق مجدداً: **7% بطارية**. وكلما طال اتصال الساعة بـ التطبيق، حيث كان يتم إرسال إشارات بين جهازي ونظام تحديد المواقع العالمي (GPS) لإبلاغي بموقعها، كلما فرغت البطارية بـ سرعة أكبر.

ابتلعتُ ريقي بـ صعوبة، وأرغمتُ نفسي على إغلاق التطبيق وسحبتُ نفساً مرتجفاً، ملقيةً نظرة خاطفة على عداد السرعة.

سينجح هذا؛ لو لم أستسلم لـ الهلع بـ حاجتي لـ التحقق المستمر واستنزاف بطارية الساعة، فـ سينجح الأمر.

كان جهاز تتبع أبي يعمل بـ نظام GPS، وهو ما يعني أن المدى كان ممتازاً—لكن البطارية تستنزف بـ سرعة كبيرة عندما يُستخدم التطبيق بـ شكل نشط. وكان الموقع الإلكتروني الذي طلبت منه الجهاز قبل بضعة أشهر قد أوضح جميع مزايا وعيوب أجهزة التتبع المختلفة؛ فـ نظام GPS يعني أنني أستطيع تتبع الساعة في أي مكان تذهب إليه تقريباً—طالما أن الشحن صامد. ومع بطارية مكتملة، يعني ذلك ساعات، أما مع بطارية مستنزفة، فـ ذلك يعني دقائق.

قررتُ فتح التطبيق لـ بضع ثوانٍ فقط في كل مرة، ملتقطةً صوراً لـ الشاشة لـ كل موقع. وطالما أن الخاطفين يحتفظون بـ

تلك الساعة معهم، فـ هم يرسمون خريطة حرفية لـ أتبعها أنا— والشرطة.

لم يكن بإمكاني ترك تلك البطارية تفرغ فحسب.

قبضتُ على عجلة القيادة وثبتُ السيارة، مقررةً عدم إعادة فتح التطبيق مجدداً لـ مدة خمس دقائق على الأقل.

وفي كل مرة كنتُ أشعر فيها بـ الرعب يرتفع في داخلي، وبـ الرغبة في الضغط بـ قدمي على دواسة السرعة، كنت أفكر في تلك النقطة الزرقاء الجميلة التي تنتظر أن ترشدني إلى طفلتيّ. لو فقدتُ ذلك الاتصال، سأعود إلى النقطة الأولى—معتمدةً على كلمة شخص مريض نفسياً بأنه سيعيد الأطفال بـ أمان.

هززتُ رأسي وركزتُ على الطريق؛ فـ في الوقت الحالي، كان الشيء الوحيد الذي أحتاج إلى التفكير فيه هو القيام بـ ما طلبتُه رسالة الفدية: إكمال التعليمات. لذا سأسرع عائدة إلى المنزل وأقوم بـ تحويل البتكوين.

وبعد ذلك—ماذا؟ هل أتصل بـ الشرطة، رغم أن الرسالة حذرتني بـ صراحة ألا أفعل؟

بعد تحويل البتكوين، لم أكن متأكدة مما ستكون عليه خطوتي التالية. كان ذلك يرعبني؛ فلم أكن أعرف ما الذي سأفعله بحق السماء، لكن يتوجب عليّ استيعاب الأمر قريباً.

قبل أن تتحول الجبال إلى تلال صغيرة، وقبل أن تظهر الأضواء الصغيرة المنبعثة من المنازل الأولى على مشارف «تريجر فالي»، ارتدت أضواء سيارتي الأمامية عن غزال يتحرك إلى داخل الطريق:

«تباً!»

ضغطتُ على الكوابح بـ قوة. رفعت الحيوانة رأسها وحدقت في الأضواء الأمامية، وعيناها متسعتان ومنخراها يتسعان. *أنثى غزال.*

توسلتُ إليها وأنا أضغط على دواسة البنزين مجدداً لـ تحريك السيارة بوصة بـ بوصة إلى الأمام، أملةً في أن أستطيع إخافتها لـ تركض بعيداً:

«تحركي، أرجوكِ تحركي!»

ومع كون طريق الجبل خلفنا، كان من الصعب على أي شخص تخمين إلى أين سيذهب الخاطفون بعد ذلك، وكنتُ يائسة لـ التحقق من موقعهم مجدداً. ماذا لو كانوا يخططون لـ القيادة طوال الطريق إلى «كونا» أو «كالدويل»، على بعد عشرين ميلاً بعد «صن سيت سبرينغز»؟

ارتجفت الغزالة لكنها ثبتت قدميها وظلت في مكانها، معيدةً رأسها نحو جانب الطريق.

صرختُ ودققتُ البوق:

«تحركي بحق الله!»

لقد قطعتُ كل هذه المسافة ممتثلةً لـ كل مطالبهم. وقبل أن أستطيع الخروج عن النص، أملتُ في القيادة بـ شكل مباشر إلى المنزل وإجراء ذلك التحويل.

لأن هناك لا تزال فرصة لـ أن يطلقوا سراح الأطفال عندما أفعل ذلك.

ولو لم يفعلوا، فـ لديّ موقعهم—لكن فقط طالما أن الساعة تواصل إرسال الإشارات.

حركة ما بين الأعشاب الضارة على المنحدر الحاد أخرجتني من أفكاري اليائسة والمضطربة.

طفلان من الغزلان—في عمر بضعة أشهر ربما—هرولا لـ اتباع أمهما إلى منتصف الطريق أمام أضوائي الساطعة. وبـ مجرد أن أصبح طفلاها بـ جوارها، رفعت قدميها واختفت في الشجيرات على الجانب الآخر من الطريق السريع.

أرسل الرعب من الحادث الذي كاد أن يقع وخزًا حادًا أسفل رقبتي. أطلقت زفيرًا مرتجفًا، ومسحت الدموع الطازجة التي كانت تنهمر على خدي، ثم دفعت السيارة لتستعيد سرعتها في اتجاه أضواء المدينة الأولى.

46

سيدج

ست وعشرون ساعة وثلاثون دقيقة من الدفن

كان ينجح... كان الأمر ينجح بـ الفعل حقاً وفعلياً!
كانت الجدران المنحنية لـ الخشب المضغوط في ممر المدخنة مشبعة بـ الكامل بـ المياه—ومع وجود طين كثيف خلفها. مما يعني أنني أستطيع الحفر في الخشب الرطب بـ سهولة أكبر بـكثير مما كنتُ أستطيعه مع الخشب الجاف الذي يغطي سقف المخبأ.
عندما أدركتُ كم كان الخشب الرطب هشاً ومتفتتاً، لاحت في عقلي صورة لـ الملعب في «صن سيت سبرينغز»؛ ذلك الذي احتوى على موطئ أقدام ومقابض أيدٍ صغيرة منحوتة في جدار يمكنك تسلقه.
ومستمرةً في استخدام إبزيم حزام **السيدة جيسا**، حفرتُ في الخشب والطين المبتلين بـ سرعة أكبر وأسرع، متجاهلة كمية الدم التي كنتُ أستشعر نضحها بين أصابعي ونزولها على ذراعيّ.

صنعتُ موطئ قدمين، ثم ثلاثة، ثم أربعة، صعوداً إلى الأعلى وأعلى. ثم غرزتُ قدمَي في موطئ الأقدام المصنوعة من الخشب والطين المبتلين التي أنشأتُها ودفعْت نفسي لـ الأعلى لـ أحفر المزيد.

وفي لا وقت، كنتُ على وشك الوصول إلى القمة بـ الفعل.

كنا قريبين جداً.

كنا على وشك الخروج بـ الكامل.

كان الضوء المنبعث من تحت الصفيحة المعدنية الكبيرة فوقي يتلاشى مع مرور كل ثانية؛ فـ الظلام كان يخيم في الخارج. وكان ذلك يعني أن أربعاً وعشرين ساعة كاملة قد مرت تقريباً منذ أن وضعنا الرجلان في هذا المخبأ المريع.

وكانوا سيعودون في أي ثانية، كنتُ أعرف ذلك بـ التأكيد.

لكن قريباً، سأتمكن من الركض لـ طلب المساعدة؛ وقد لا يعرف الرجلان حتى أنني غادرتُ لو لم يتحققا من المكان.

بحتُ بـ صوت مبحوح بعد بضع دقائق أخرى، وكنتُ بـ الكاد أصدق ذلك:

«أنا في القمة!»

لامست أصابعي أعلى اللوح المعدني بينما كنتُ أتمسك بـ آخر موطئ قدم مبتل صنعتُه، داعيةً ألا تنهار الجوانب.

همست أصوات متحمسة تحتي بينما كنتُ أخدش التراب تحت اللوح المعدني، حافرةً لـ المرة الأخيرة.

واتسع شق الضوء الرمادي الخافت.

واصلتُ الحفر كـ الحيوان، وأنا ألهث وأبكي، دافعةً نفسي لـ الأعلى جزءاً فـ جزءاً. كان من الصعب تعديل وضعية جسدي لـ الاستمرار في الحفر تحت اللوح المعدني من هذه الزاوية؛ وفكرتُ في أنه يتوجب عليّ صنع موطئ قدم آخر، لكن لو انحنيتُ قليلاً فقط، فـ أنا متأكدة من أنني سأستطيع صنع ثقب أخير كبير بـ القدر الكافي لـ أتسلق خارجةً من تحت المعدن.

كانت عيناني غائمتين جداً من الغبار والعرَق لدرجة أنني بـ الكاد أستطيع رؤية ما أفعل. كان خرطوم الهواء يبدو كـ ثعبان أسود صغير في طرف عيني، متدلياً في ممر المدخنة بـ جواري. كانت الفتحة صغيرة لـ درجة أنني أستطيع تغطيتها بـ كف يدي؛ ولم تكن تبدو كبيرة بـ القدر الكافي لـ إدخال ما يكفي من الهواء إلى الحفرة لـ أحد عشر شخصاً. لا عجب أننا جميعاً كنا نكافح لـ التنفس!

لكن كل ما أهمني بعد ذلك هو أنني أستطيع أخيراً رؤية شريحة كبيرة من السماء الرمادية الفولاذية، أمام وجهي بـ المباشرة. وكان الثقب الذي أحدثتُه بين الطين عند أطراف أصابعي والقطعة المعدنية الكبيرة فوق رأسي واسعاً بـ القدر الكافي لـ

أكون متأكدة من أنني أستطيع المرور عبره لو استطعتُ تحريك جسدي لـ الأعلى وعبره فقط.

سمعتُ صوت أنين خافت لكنني تجاهلتُه. كانت يداي تغرفان، تخدشان، تحفران، تماماً كما رأيتُ كلب الجيران يفعل عندما كان يطارد سنجاباً أرضياً في التلال بـ القرب من منزلنا، وأنا ألهث وأصرخ بـ صوت عالٍ لأن أصابعي ويديّ كانتا تؤلمانني بـ شدة.

دفعتُ بـ قوة على موطئ القدم الأخير بـ حذائي الرياضي، مكافحةً لـ الحصول على البوصة الأخيرة التي أحتاجها لـ الارتكاز.

بكيتُ وأنا أُمسك بـ الحافة المشرشرة لـ المعدن بـ إحدى يديّ: «لقد فعلتُها!»

وتجاهلة العضلات التي تصرخ في ساقيّ، ودفعتُ نفسي لـ الأعلى لـ المرة الأخيرة.

وبجهد شديد، التويتُ على ظهري، مستعينةً بكتفيّ لمساعدتي على إخراج نفسي بوصةً بوصة من تحت لوح المعدن.

صدر من تحتي صوت أنين غريب آخر لم أتمكن من فهمه.

حركتُ كتفيّ وتجاهلتُ المعدن الذي يجرح يديّ بينما استندتُ عليه وسحبتُ نفسي بـ الكامل خارج الحفرة.

كنتُ حرة! كنتُ حرة أخيراً بـ نسبة مئة في المئة! استنشقتُ الهواء النقي والأنفاس الطازجة وانقلبتُ على بطني. ثم أسرعتُ لـ الوقوف على قدمَي، ملتفتةً لـ المناداة على الآخرين في الأسفل—في اللحظة نفسها التي استُبدل فيها صوت الأنين بـ صوت انكسار وهرير مكتوم.

شاهدتُ بفزع الجدران المنحنية المصنوعة من الخشب المضغوط، التي كانت تثبت ممر المدخنة، وهي تنهار على نفسها.

انفتح فمي من الدهشة، ثم من الرعب.

رأيت ما يكفي لفهم ما حدث.

لم يعد هناك ممر لأن الطين الموجود خلف ألواح الخشب المضغوط المبللة قد اخترق المكان الذي تسلقتُه للتو، وملأ الفراغ بالكامل بالتراب الرطب.

ناديتُ:

«سيدة جيسا؟ بوني؟»

ثم أطبقتُ فمي كي أستطيع سماع أي إجابة.

أي إجابة!

لكن لم يكن هناك سوى الصمت.

صرختُ مراراً وتكراراً:

«بوني! بوني!»

هل امتلأ المخبأ بـ الطين أيضاً؟ هل سُحق الجميع لـ التو؟ هل هم على قيد الحياة؟ كان قلبي يضرب بـ قوة في أذنيّ وساقاي ترتجفان بـ شدة جعلتني بـ الكاد أستطيع الوقوف.

لم أستطع سماع أي شيء من داخل الحفرة؛ لا شيء بـ المرة.

لكنني استطعتُ سماع صوت إطارات قادمة عبر الطريق الترابي، متجهةً نحوي بـ المباشرة.

صرختُ وأنا أُمسك بـ الطرف القصير لـ خرطوم الهواء الأسود الذي كان لا يزال بارزاً من تحت أحد جوانب اللوح المعدني: «لا!»

وضعتُ أذني عليه، ثم فمي، لأرى إن كان بإمكاني استنشاق بعض الهواء.

امتلأت رئتاي بفقاعة صغيرة من الهواء.

شعرت بارتياح طفيف في قلبي.

قمت بامتصاص الهواء بقوة أكبر من الخرطوم — ثم اصطدمت رئتاي بحاجز، تمامًا كما يحدث عندما تمتص الهواء من زجاجة مياه بلاستيكية فتبدأ في التجعد بسبب نفاد الأكسجين.

حتى لو لم يكن الطين قد أدى إلى انهيار المخبأ بـ الكامل كما فعل بـممر المدخنة، فـ إن خرطوم الهواء لم يعد يدخل أي هواء إلى المخبأ بعد الآن.

وكان صوت تلك الإطارات يقترب أكثر مع كل ثانية تمر.

47

تيد

كان **أندي** سعيداً كـ بطل قصة طوال طريق العودة إلى المحجر؛ يواصل إدخال يده إلى داخل حقيبة الظهر ولمس الأوراق النقدية.

قال بـ نبرة متوددة:

«سأنتظر حتى نعود لـ نعدها يا أخي، لـ كي تشاهد بنفسك وتتأكد من أنها كاملة. سنتقاسمها معاً لـ تعرف أن كل شيء بالتساوي».

قلتُ لـ أضمن أن نبرة صوتي تطابق نبرته:

«يبدو هذا جيداً».

ومع ذلك، كلما اقتربنا من المحجر، كانت العقد في معدتي تلتوي بـ شدة أكبر.

توسلتُ لعقلي: «*فكر بحق الخراء!*»

لكن الأفكار الوحيدة التي ألقى بها في وجهي كانت إما ستلقي بي في السجن لـ بقية حياتي—أو تضع الكثير من الدماء على يديّ لـ درجة أنني قد أقفل على نفسي وألقي المفتاح بعيداً.

لقد كانوا أطفالاً بحق اللعنة! أطفالاً!

لـالمرة الأولى، لم أحاول دفع شعور الندم الوخاز الذي يحاول شق طريقه إلى خيالي حول الاختفاء بـأموالي، والبدء في حياة جديدة كلياً، والخروج من ولاية أيداهو القذرة هذه. وبـمجرد أن أعطيتُ ذلك الندم مساحة صغيرة، ضربني في صدري بـشدة جعلتني بـالكاد أستطيع التنفس.

«ابذل جهداً يا تيد بحق اللعنة!»

ولكن، ماذا لو كانت أمي على حق؟ بأنني مجرد طفل غبي ومتهور؟ هذا ما قاله صاحب الدراجة النارية التي حطمتُها عندما شهد في جلستي؛ وكأنه يشفق عليّ، رغم أنه كان يكرهني أيضاً.

لم يكن لديّ أي مستقبل، في أي اتجاه. كنتُ محاصراً، تماماً كـ أولئك الأطفال الذين وضعتُهم تحت الأرض.

بدأ فمي يستطعم طعماً حلو المذاق بـ شكل مريض، بنفس الطريقة التي كان يحدث بها عندما أشرب الكثير من البيرة وأكون على وشك التقيؤ. لذا أنزلتُ النافذة رغم أن **أندي** بدأ يوبخني لأن يتوجب عليه إغلاق حقيبة الظهر. كان كل ما استطعتُ التفكير في قوله هو: «لا أريد أن أتقيأ في سيارتك»، وأخرسه ذلك لـ بضع دقائق على الأقل.

في النهاية، كان المحجر يبعد ما يزيد قليلاً عن ساعة بالسيارة عن مخيم ليتل إيدي، لكنها بدت لي كدقائق معدودة بينما كان ذهني يدور.

ماذا بحق السماء سأفعل؟ كانت كفاي تشعران بـ الرطوبة والبرودة على عجلة القيادة، وكانت رائحة جسد **أندي**— المشبعة في سيارة السيفيك—تجعل معدتي تقلب بـ شدة أكبر.

وقبل أن أدرك ذلك، كانت أضواؤنا الأمامية تنعكس على اللافتة الألمنيومية الصدئة التي تعلم المدخل الخلفي لـ المحجر.

ولم تكن لديّ أي خطة بعد.

هل أستطيع حقاً قتل شخص ما—أو تركهم يموتون، وهو ما كان يمثل الشيء نفسه بـ الأساس؟

«ليس مجرد شخص ما؛ هناك أحد عشر شخصاً في الأسفل»، أصر عقلي.

«إذا لم تفعل ذلك، فـ ستقضي حياتك كلها في السجن»، زمجر جزء أعمق وأكثر ظلمة.

لم أستطع العودة إلى السجن؛ لم أستطع! فحتى بضعة أشهر كانت تبدو كـ الجحيم، كـ الأبدية. وكأنني أحد أولئك الكلاب في إعلانات جمعية الرفق بـ الحيوان التي يحبسها أحدهم في قفص صغير لـ فترة طويلة لـ درجة أن الحيوان يصبح مرتجفاً

ومذعوراً ولا يعرف حتى كيف يكون كلباً بعد الآن. كنتُ أستطيع سماع سارة مكلين بـ الفعل تغني في الخلفية.

أعادتني تلك الذكريات عن السجن مباشرة إلى النقطة الأولى.

كان يبدو وكأن هناك قنبلة مربوطة بـ صدري؛ إما أن أفجر نفسي، أو أفك رباطها وألقيها بعيداً عني— مع معرفتي بـ الضبط بـ من ستصيب: أولئك الأطفال.

بدأ **أندي** يقول في الثانية التي سحبتُ فيها المفتاح من محرك التشغيل:

«هل يتوجب علينا عد المال هنا في السيارة، أم يتوجب علينا فرده على أرضية الفان..؟»

كان لا يزال يتلعثم قليلاً. ولم يكن لديّ شك في أنه يتجه مباشرة إلى صندوق التبريد لـ جرع آخر البيرة الدافئة الآن بعد أن عدنا بـ أموال الفدية، منتصرين.

شعرتُ بـ الاشمئزاز الشديد منه، ومن نفسي، لدرجة أن العصارة الصفراء في حلقي انسكبت بـ الفعل على لساني. وبـ دون كلمة، فككتُ حزام الأمان وانحرفتُ بعيداً عن السيارة قبل أن تخرج التخمة المشتعلة والمريضة في معدتي.

ظننتُ أنني سمعتُ **أندي** يقهقه، لكنه ظل في مكانه في مقعد الراكب بينما كنتُ أتعثر نصف تعثر ونصف ركض في اتجاه المخبأ المدفون.

ثم انحنيتُ وأخرجتُ أحشائي—شوربة كريهة من شطائر زبدة الفول السوداني والمربى والبيرة.

تقيأتُ مراراً وتكراراً، وأنا أرمش من بين دموع حارة لم أستطع منعها من التدفق على وجهي كما يحدث عندما أصاب بـ جرثومة معدة سيئة جداً. كان هذا هو الوقت الوحيد الذي بكيتُ فيه.

ثم جلستُ على التراب، ومسحتُ فمي، وحدقتُ في اللوح المعدني.

ضربتني موجة أخرى من المرض، لكن ليس من النوع الذي يجعل العصارة ترتفع في حلقي مجدداً؛ بل النوع الوخاز والمتعرق الذي لن يختفي حتى لو تقيأت.

لأنني أدركتُ لـ التو أن شيئاً ما—شيئاً جديداً—كان خاطئاً جداً جداً.

لم يكن يبدو أن القطعة المعدنية الكبيرة مستقرة تماماً بـ الطريقة التي كانت عليها في آخر مرة رأيتُها فيها.

نهضتُ من وضعية القرفصاء، محاولاً إقناع نفسي بأن عينَي تخدعانني في الظلام. كانت الشمس قد غربت بـ الكاد، لذا لم يكن الظلام كاملاً بعد. وكانت هناك ظلال خافتة حول حواف اللوح المعدني، لكن أحد تلك الظلال كان أكبر من البقية.

كبيراً بـ القدر الكافي لـ درجة أنه مع اقترابي، كان يبدو أقل تشابهاً بـ الظل وأكثر تشابهاً بـ الثقب.

لا يمكن أن يكون ثقباً؛ لا توجد طريقة. وأصبح الشعور الكهربائي الطنان في صدري أقوى وأكثر حدة، وكأن هناك أظافر خفية تضغط على كل جلدي.

خطوتُ خطوة أقرب وانحنيتُ، حتى أصبح وجهي على بعد بضعة أقدام فقط من ذلك الظل المشبوه:

«تباً لـ هذا الخراء».

لقد كان ثقباً!

انغلق باب السيارة خلفي بـ قوة. وكانت خطوات **أندي** تتجه نحو المأوى وصندوق التبريد الخاص بـ البيرة. كان يقول شيئاً ما، لكنني لم أستطع التركيز على الكلمات.

لم أستطع التركيز على أي شيء سوى ذلك الثقب؛ فقد كان كبيراً بـ القدر الكافي لـ يتسلل عبره شخص صغير—طفل.

ثم جال بصري نحو اليمين ورأيتُ الآثار الخافتة والملطخة بـ الطين في التراب المبتل والمدكوك، والمؤدية نحو حافة كومة القمامة—والطريق.

أخرجني منظر تلك الآثار، الواضحة بـ الكاد في الظلام، من ذلك الشعور المتجمد والوخاز، وحركتُ رأسي يميناً ويساراً.

كانت خطوات **أندي** تصدر صوتاً حاداً نحوي الآن. وسمعتُ صوت فتح علبة البيرة ورشفات عالية. كان يقول شيئاً ما، لكنني لم أستمع؛ بدلاً من ذلك، تبعتُ مسار الآثار نحو حافة كومة الخردة، أبحث في الظلال، وأتصفح أشكال الحطام العشوائي والمعدات المكسورة.

مشيتُ لـ مسافة خمسين ياردا تقريباً، حتى وصلتُ إلى الطرف البعيد من «الحفرة»، حيث كان الهيكل الضخم لـ الحفارة النصف مكسورة يميل بـ زاوية، وتتعلق إطاراتها على حافة الطريق الترابي الذي يؤدي إلى خارج المحجر. كانت هي الحفارة نفسها التي استخدمناها لـ حفر ثقب المخبأ، وهي نفسها التي استخدمنا بابها.

وبعد ذلك، بـ صوت خافت جداً كنتُ سأفوته لو لم تكن حواسي حادة كـ السكاكين فجأة، صدر صوت تحرك خفيف من خلفها. وكأن أحدهم ينقل وزنه.

اندفعتُ نحو الصوت.

كان **أندي** يقول من الظلام خلفي:

«يا صاح، أين أنت؟ قيؤك تفوح رائحته..»

تجاهلته. لأن عينيّ كانتا قد ركّزتا للتو على ظلّ متحرك — في حين بقيت بقية الأشكال في كومة الخردة ثابتة في مكانها.

خطوتُ أربع خطوات سريعة إلى الأمام، حول هيكل الحفارة. وعندها رأيتُها:

فتاة طويلة ونحيفة تغطيها الأتربة من رأسها إلى أخمص قدميها—وشيء داكن لابد أنه كان دماً على يديها وذراعيها، وملطخاً حتى على وجهها. لم أكن أعرف اسمها، لكنني عرفتُ من تكون مباشرة: إحدى الأطفال الذين ميزتُهم عندما كنتُ أقود الحافلة. ولم يكن هناك أي شك الآن، ونحن نتلاقى بالأعين، في أنها ميزتني أنا أيضاً.

كانت ركبتها منثنيتين في قرفصاء خفيفة، واستطعتُ القول إنني ضبطتُها في اللحظة التي كانت على وشك الانطلاق فيها ركضاً. لكن الآن، كانت تحدق بي متجمدة، كـ غزال صغير وطويل الساقين في الأضواء الأمامية.

نادى صوت **أندي** من خلفي مجدداً، عالياً ومزعجاً ويتجه نحو السكر العدواني:

«يا صاح، أين أنت؟»

من الواضح أنه لم يَرَ الثقب الجديد أو الآثار الملطخة بـ الطين والمؤدية بعيداً عن المخبأ المدفون.

اتسعت عينا الفتاة، اللتان كانتا كبيرتين بـ الفعل كـ عيني دمية، لـ درجة أنك تستطيع رؤية البياض حول بؤبؤيها بـ الكامل.

وكان هناك خطوط فاتحة تتخلل القذارة الداكنة على وجنتيها من البكاء.

انحنت بعيداً عني، منكمشة.

قالت بـ صوت مرتجف وهمسي:

«سيد **إدوارد**».

كان هذا كل ما قالته، لكنه كان كافياً لـ جعل أحشائي تنقبض بـ شدة تجعلني على وشك الانحناء مجدداً.

توسلت وهي تضع يديها أمام جسدها:

«أرجوك».

وتحركت عيناها نحو الطريق الترابي.

لو قفزتُ إلى الأمام، فـ أنا متأكد تقريباً من أنني سأستطيع الإمساك بها. وصراحةً، لم أكن أعرف لماذا لم تفر هاربة بـ الفعل!

خطوت خطوة صغيرة إلى الأمام، فوجهت عينيها بسرعة نحو قدمها.

تبعتُ نظرتها وأدركتُ فجأة أن قدمها كانت علقت في تشابك من الفوم القذر والأسمنت المكسور خلفها.

قالت مجدداً وهي تمد يديها الملطختين بـ الدماء بـ بطء إلى كاحلها لـ سحبه:

«أرجوك».

وبينما كانت تفعل ذلك، تحركت عيناها بعيداً عن الطريق، تتطلعان إلى ما بعدي. في بداية الأمر، ظننتُ أنها كانت خائفة من **أندي**—الذي كان يحدث ضوضاء في اتجاه المخبأ. لابد أنه رأى المكان المحفور الآن؛ لأنه من صوت الأنين والقعقعة، كان يحاول تحريك اللوح المعدني بـ مفرده لـ الدخول إلى الحفرة.

ثم قالت الفتاة، وصوتها صغير ومرتجف:

«الجدران انهارت بـ سبب الطين. أختي والأطفال والسيدة **جيسا**... ليس لديهم أي هواء آخر. ساعدهم، أرجوك».

رمشتُ بـ عينَي نحوها بينما سحبت قدمها محررةً إياها.

لا، كان ذلك مستحيلاً؛ كانت تحاول فقط تشتيت انتباهي والهروب.

لكن بعد ذلك صاح **أندي**:

«يا لـ الخراء! الحفرة امتلأ بـ التراب!»

لم يكن يبدو منزعجاً بـ الضرورة، بل مندهشاً فحسب.

قالت الفتاة هامسة:

«أرجوك».

لـ المرة الأخيرة.

فتحتُ شفتي لـ الصراخ لـ **أندي** كي يساعدني في الإمساك بها، ثم اكتشاف ماذا بحق السماء قد حدث.

لكن جزء مني الذي كان قد تقيأ أحشاءه لـ التو على التراب، الذي سمعها تنادي اسمي بـ تلك النظرة المتوسلة، أبقاني مغروساً في مكاني حيث أقف، حتى مع أخذ الطفلة الصغيرة خطوتين بعيداً عني. ونجحت أخيراً في ركل قدمها محررةً إياها من الحطام، متراجعةً نحو الطريق الآن. ولو لم يكن هيكل الحفارة والظلام المخيم موجودين، لـ كان **أندي** قد رآها الآن أيضاً.

اقترب صوت **أندي** وصوت خطواته الآن:

«ماذا تفعل هناك أيها الأحمق؟»

واتسعت عينا الطفلة .

وبعد ذلك ركضت؛ أسرعت بـ كل ما أوتيت من قوة!

صرخ عقلي: «*طاردها! افعل شيئاً!*»

لكنني ظللتُ واقفاً هناك فحسب.

نادى **أندي** وهو يدور حول شاحنة التفريغ:

«مرحباً؟ أيها الأبله؟»

كان يرتدي حقيبة الفدية، وكان يتحدث بـ سرعة وحماس مع انتعاش البيرة الجديدة فيه: «يا أخي، الأمر كله انهار! في البداية ظننتُ أن أحد الأطفال الصغار قد خرج، لأن التراب منهار بـ الكامل في أحد الجوانب. لكن لا أعتقد ذلك؛ يبدو أن الرب تدخل وقرر نيابة عنا. إنهم ميتون في الأسفل بـ التأكيد».

رمشتُ بـ عينَي نحوه، وكنتُ أشعر بـ شفتي تتشنجان لكنني غير قادر على إخراج الكلمات. ثم أدرتُ رأسي لـ التطلع نحو الطريق الترابي الداكن، وعبر الظلال العميقة لـ جدران المحجر المنحدرة. لم أستطع رؤية الطفلة الصغيرة بعد الآن؛ هل وصلت إلى ذلك الحد بـ الفعل؟

على ما يبدو، لم يلاحظ **أندي** الآثار الخافتة والملطخة بـ الطين؛ لم يكن يعرف أنه في هذه الثانية بـ الضبط، كانت هناك طفلة صغيرة نحيفة ومغطاة بـ الدماء والغبار تركض بـ أسرع ما يمكنها عبر الطريق الترابي بعيداً عنا.

قال **أندي** وهو يعدل الحقيبة على ظهره ويتحرك بعيداً عني مجدداً:

«هيا، لقد عددتُ كل الأموال؛ نصفك في صندوق التبريد. يتوجب علينا الخروج من هنا لـ نرى ما إذا كانت تلك العاهرة قد قامت بـ تحويل البتكوين».

أخبره!

لا، أبقِ فمك مغلقاً!

لكن الأطفال الآخرين قد يكونون لا يزالون أحياء في الأسفل!

ليس لـ فترة طويلة رغم ذلك.

لا! اخرج بحق السماء من هنا ولا تلتفت إلى الخلف!

من الخارج، كنتُ متبلداً ومجمداً، لكن داخل رأسي كان عبارة عن دوامة من المطالب المتناقضة القادمة بـ سرعة وقوة.

في وقت سابق، عندما رأيتُ ذلك الثقب الصغير المحفور في طلاء النافذة الخلفية لـ الفان، ظننتُ أن الخطة تخرج عن السيطرة.

لكن الأمور كانت أسوأ بـ الكثير، أشد سوءاً الآن.

توقفت خطوات **أندي** عندما لم أتبعه:

«هل أصابتك سكتة دماغية أم شيء من هذا القبيل؟ ابقَ هنا طوال الليل لو أردت، لكنني سأخرج من..»

ثم سحب نفسه بـ قوة: «ما هذا بحق السماء؟»

لم أضطر لـ سؤاله عما يعنيه؛ فعندما تبعتُ نظراته، استطعتُ رؤية ذلك أيضاً.

خيال شخص نحيف—طويل بـ القدر الكافي لـ يكون بالغاً، لكنه طفولي بـ شكل مؤلم في الطريقة التي تحرك بها ذراعيها وساقيها كـ مهر صغير طويل الساقين، لـ درجة أنه لم يكن هناك مجال لـ الخطأ في ما كانت عليه حتى في الظلام القريب.

زأر **أندي**:

«أحدهم خرج؟ أحدهم خرج وأنتَ تركتها تذهب؟»

سحب **أندي** المسدس من حزام سرواله، واندفع بجانبي في جري جنوني متعثر. صرخ فوق كتفه عندما لم أتبعه، وهو على وشك التعثر في قطعة من الخشب:

«ساعدني أيها الأحمق!»

قلت بغضب، بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه:

«تباً لك!»

لأنني كنتُ أعرف أن ذلك سيجعله يلتفت.

ولأنني كنتُ أعنيه بـ الفعل:

«تباً لك!»

توقف فجأة، ووجه المسدس نحو رأسي، وأبقاه هناك.

لكنني لم أحرك عضلة واحدة. اتسعت عيناه بـ صدمة، وكأنه كان يتوقع مني الانكماش—ثم مساعدته. وعندما لم أفعل أيّاً منهما، سحب زناد المسدس، وتردد في ارتباك، ثم أدار رأسه وركض؛ لأنها كانت تبتعد!

صرخ عقلي: *«اركض! اركض بـ أسرع ما يمكن!»*

مرة لـ نفسي، ومرة لـ تلك الطفلة الصغيرة المرعوبة.

48

جيسا

ست وعشرون ساعة وأربعون دقيقة من الدفن

تراجع الطنين في أذنيّ بـ القدر الكافي لـ أحاول الجلوس.

وكان ذلك خطأً.

لم أستطع التحرك بـ المرة!

قبل خمس دقائق فقط، كنتُ أتوازن في أعلى كومة المراتب، وقلبي في حلقي، منتظرةً أن تنادي **سيدج** بـ أنها صعدت بـ الكامل إلى الأعلى وخرجت من ممر المدخنة.

لم أستطع تصديق أنها فعلت ذلك! كنتُ فخورةً جداً بها؛ كنتُ فخورةً بنا جميعاً. لقد حاربنا، وكنا على وشك الفوز، ولن نموت هنا في الأسفل بعد كل شيء.

ثم حدث الزئير، وانكسار الخشب المضغوط، والاندفاع الجارف لـ التراب والطين الذي انسكب مجتاحاً ممر المدخنة— وهابطاً فوقي مباشرة—بـ سرعة فائقة لم تترك لي حتى الوقت لـ التهيؤ.

أطاحت بي قوة ذلك الاندفاع مسطحةً على ظهري، لـ تتهاوى المراتب التي كوّناها وسط أصوات الصراخ والعويل في كل مكان حولنا.

بكت إحداهن وهي تتنهد:

«ذراعي تؤلمني!»

وكرر صوت حاد بـ استمرار:

«هناك شظية كبيرة في بطني! شظية كبيرة!»

واصل بعض الأطفال السؤال وهم يلتفون بـ قربي لـ دفع كتل الطين الثقيلة والمبتلة التي تغطي نصف جسدي:

«سيدة **جيسا**؟ سيدة **جيسا**؟»

رمشتُ بـ عينَي وحاولتُ التحرك مجدداً، مرعوبةً عندما لم يستجب جسدي لـ الأمر بعد. لم أكن أشعر بـ الألم؛ لم أكن أشعر بـ أي شيء بـ المرة، باستثناء ذلك الطنين في أذنيّ والضرب في رأسي.

همس عقلي:

«لقد وصلتِ إلى الجحيم الآن».

واصل صوت **بوني**، الحاد والمرعوب، السؤال فوق الأصوات المتبقية التي تبكي وتصرخ:

«**سيدج**! ماذا حدث لـ **سيدج**؟»

بحتُ بـ صوت مبحوح، أملةً ألا تلاحظ **بوني** أنني كنتُ أبكي بـ الشدة نفسها التي تبكي بها بـ الضبط:

«ستجلب لنا المساعدة».

لم أكن أصدق ما قمتُ بـ إخبارها به لـ التو؛ فكل ما أعرفه، ربما تكون قوة انهيار جدران الخشب تلك قد سحبتها إلى الأسفل داخل الفتحة ودفنتها حية.

مثلنا تماماً.

إذا كان المخبأ كان يبدو كـالقبر من قبل، فـ لم يكن هناك شك في أنه أصبح كذلك بـ الفعل الآن.

قال أحدهم بـ صوت خافت بينما خبت الصرخات والبكاء إلى أنين ضئيل:

«أشعر بـ الدوار».

«وأنا أيضاً».

أغلقتُ عينَي، مركزةً على شعور انزلاق الدموع على وجنتيّ.

استطعتُ الخروج بـ كلمات مختنقة:

«ليستلقِ الجميع ويتنفس بـ بطء شديد وهدوء، حسناً؟ واحد بـ واحد، ليخبرني الجميع من المصاب ومن بـ خير؟»

واحداً تلو الآخر، فعلوا ذلك، وهم يهمسون ويشهقون بينما يتلمسون بعضهم البعض في الظلام ويستلقون بـ طاعة إلى جواري.

عددتُ الأصوات حتى وصلتُ إلى تسعة؛ الجميع باستثناء **سيدج**.

كنا جميعاً لا نزال على قيد الحياة هنا في الأسفل—لكن ليس لـ فترة طويلة بعد الآن.

تساقطت دموعي بـ سرعة أكبر. حتى قبل الانهيار، كنتُ أستطيع التمييز أن ثاني أكسيد الكربون الناتج عن أنفاسنا بدأ ينافس الكمية الصغيرة من الهواء النقي القادمة إلى المخبأ. كم سنستغرق من الوقت قبل أن نصل إلى دوار وشعور بـ الخفة يجعلنا نفقد الوعي؟ وكم سنستغرق بعد ذلك قبل أن نتوقف عن التنفس بـ الكامل؟

*«أنا آسفة جداً يا **صوف**... أنا آسفة جداً».*

لقد كان كل شيء بـ لا فائدة! فقدتُ **صوفي** منذ ثلاث سنوات، ولن أستعيدها أبداً، أبداً بعد الآن.

وكان معرفة ذلك أمراً لا يُطاق.

عمتُ مع ذلك اليأس لـ بضعة أنفاس.

كنتُ سأموت هنا في الأسفل؛ سنموت جميعاً هنا في الأسفل، وقريباً جداً.

ثم انساب عقلي إلى النصيحة التي قدمتها لي مرشدة السجن:

تخيلي ما تريدينه أكثر.

أنا أتقبل ماضيّ، وأستوعب حاضري، وأتطلع إلى مستقبلي.

دارت الكلمات باهتة في ذهني؛ فقد سمعتُها—بل وكررتُها—مرات عديدة جداً. ورغم ذلك، لم تكن سوى كلمات فحسب، شيء أسايره لـ إرضاء مرشدتي، ومؤخراً شيء لـ طمأنة الأطفال.

لكن ليس هذه المرة؛ فـ هذه المرة ضربت بـ قوة، لأنها كانت كل ما يتبقى لي لـ التمسك به.

طوال ذلك الوقت الذي قضيتُه في السجن—وحتى عندما خرجتُ—لم أستطع التوقف عن إعادة الشريط إلى الوراء؛ مهووسةً ومتأسفةً على اللحظات التي أضعتُها مع **صوفي**.

لم أستطع تقبل ما حدث، وما فعلتُه، وإلى أين أدى بي الأمر. لم أستطع إرغام نفسي على التطلع إلى مستقبل مرتبط بـ ذلك الماضي المروع؛ فـ ماذا لو لم تسامحني ابنتي أبداً؟ ماذا لو لم تستطع إرغام نفسها على محبتي مجدداً أو مناداتي بـ «أمي» مرة أخرى؟ ماذا لو لم تكن هناك طريقة لـ إصلاح الضرر؟

لكن فجأة، بدأت الأحداث تتغير كـ تحويل مفتاح؛ اندفع عقلي لـ تقديم الشريط بـ سرعة لـ الأمام، إلى اللحظات التي كنتُ خائفة من تصورها أو حتى الاعتراف بها لـ نفسي. اللحظات التي أردتُها بـ شدة—وكنتُ على وشك فقدانها إلى الأبد.

كل تلك الفرص الثانية، كل تلك الآمال، كل تلك الاحتمالات لـ المستقبل، ذهبت! قبل حتى أن أسمح لـ نفسي بـ الأمل في أن تكون حقيقية.

لقد أبقيتُ نفسي مشغولة جداً بـ الندب على الوقت والذكريات والثقة التي فقدتُها مع **صوف**، مشغولة جداً بـ الشعور بـ الإحباط من مدى مقاومتها لـ محاولاتي الأولى لـ العودة إلى حياتها، لدرجة أنني بـ الكاد سمحتُ لـ نفسي بـ التفكير في كم الأشياء الجيدة التي لا تزال تنتظرنا في الأمام. عمر كامل لم يُعاش بعد ينزلق الآن من بين أصابعي مع كل نفس آخذه!

جززتُ على أسناني لـ منع الشهقة، لكنني لم أستطع حبس الأنين.

سألت **روز**:

«سيدة **جيسا**، هل أُصِبتِ بـ شدة؟»

اختنقتُ بـ الكلمات، وأنا لا أريد إخافة الأطفال أكثر مما هم عليه بـ الفعل—وكان ذلك أقل ما يمكنني فعله في أي وقت يتبقى لنا: «لا»، كذبتُ. «أحتاج فقط إلى ثانية واحدة».

همست **بوني** بـ جوار أذني، وصوتها مرتجف كـ صوتي تماماً: «عندما أخرج، سآخذ حماماً جيداً بحق».

أغلقتُ عينَي بـ قوة على نهر الدموع، غير مبالية بـ تساقطها على وجهي:

«شكراً لكِ يا **بوني**».

دار اليأس الذي أصبح رفيقي الدائم خلال السنوات الثلاث والنصف الماضية بـ سرعة أكبر وأقوى، حتى أصبح يشبه السحب السفلي لـ الأمواج: محتوم، ومستحيل المقاومة.

لكن لـ مفاجأتي، كان هناك شيء ما بـ داخلي لا يزال يريد المقاومة، يركل ضد التيار، حتى مع بدء شعور رأسي بـ الدوار والابتعاد.

قررتُ حينها وفي تلك اللحظة بـ الذات أنه لو كان مقدراً لي الموت هنا في الأسفل، فـ سأموت مع الأمل؛ وبـ قلب مفتوح، تماماً كما طلبتُ من هؤلاء الأطفال أن يفعلوا لكنني لم أفعل ذلك بنفسي قط:

*عندما أخرج، سأكتب لـ **صوف** رسالة، أخبرها فيها بـ مدى حبي لها وكم أنا آسفة، حتى لو لم تقرأها أبداً.*

عندما أخرج، سأزين غرفة النوم الإضافية في شقتي من أجلها، حتى لو لم تكن مستعدة لـ الإقامة فيها بعد.

*سأضع دولاراً تحت وسادتها في كل مرة تفقد فيها سناً—حتى لو كانت لا تزال في منزل **ليزا**.*

سأشتري لها أفضل أحذية للمدرسة وفستاناً جديداً، حتى لو لم تأتِ لـ التسوق معي.

سأعرض عليها معانقتها حتى اليوم الذي تسمح لي فيه بـ ذلك أخيراً. وعندما تسمح لي بـ ذلك أخيراً، سيكون أفضل يوم في حياتي.

سأكون متواجدة من أجلها في كل يوم، وفي كل لحظة، حتى تكون مستعدة لـ السماح لي بـ العودة مجدداً.

انسكبت الدموع على وجنتيّ حارة بـ سرعة. واقترب أحد الأطفال—لم أستطع التمييز من—مسنداً رأسه إلى كتفي.

همستُ وأنا أصل إلى آخر جمرة أمل أستطيع العثور عليها: «سنكون بـ خير».

49

شينا

لم يكن تحويل البيتكوين بهذه البساطة التي أشارت إليها رسالة الفدية.

وبحلول المحاولة الثالثة، كانت يداي ترتعشان بشدة لدرجة أنني بالكاد تمكنت من الإمساك بفأرة الكمبيوتر على مكتب مكتبي، ناهيك عن التنقل عبر القوائم وعمليات التحقق التي لا نهاية لها. كان قلبي ينبض بقوة في صدري، وكل نبضة تتردد في أذني كأنها تحذير. كان التعامل مع أموال المدينة أمراً، لكن هذا... هذا كان أمراً مختلفاً تماماً.

كانت ثماني دقائق قصيرة فقط قد مرت منذ وصولي إلى المنزل. وكنتُ قد وعدتُ نفسي ألا أتحقق من موقع جهاز تتبع الساعة حتى أتم تحويل البتكوين—لكنني بدأتُ أفقد عقلي.

بدا أن كل خطوة في العملية قد صُممت لعرقلتي. لقد فتحتُ البوابة الإلكترونية للبنك مرات عديدة من قبل، لكن الخيارات—باستثناء عمليات التحويل القياسية—كانت مدفونة تحت طبقات من الأمان، كل واحدة منها أكثر إحباطاً من السابقة. وكل واحدة منها من المحتمل أن تطلق إنذارات

تحذيرية تنبه المسؤولين الكبار. لكنني كنتُ مستعدة؛ كان بحوزتي بيانات اعتماد رئيسي والرموز المخصصة لـ متطلبات التحقق بـ عاملَي الأمان. ولقد استخدمتُها مرات عديدة لـ تجنب الروتين المعقد. ومع ذلك، لم أواجه شيئاً مثل هذا من قبل قط.

واصلتُ إخبار نفسي بأنه يتوجب عليّ البقاء هادئة، وبأنه يتوجب عليّ التركيز، لكن كل خطأ كان يبدو وكأنه عد تنازلي نحو الكارثة.

اختنقتُ بـ الكلمات وأنا أنقر بـيأس على عملية تحقق أخرى:

«هيا!»

في كل مرة حاولتُ فيها ربط حساب المدينة بـ محفظة البتكوين، كانت تظهر عقبة أخرى—سؤال أمان، عملية تحقق بـ خطوتين، تأخير في المعالجة. وكانت الساعة على الجدار تبدو وكأنها تدق بـصوت أعلى مع كل محاولة فاشلة، وكل نكسة تدفعني أكثر نحو حافة الهلع الكامل.

كان عليّ الاستمرار في مسح يديّ في بنطالي الجينز؛ فالعرَق كان يجعل أصابعي زلقة على المفاتيح. ولم أكن أستطيع تحمُّل ارتكاب أي أخطاء؛ فرقم واحد خاطئ، أو ضغطة واحدة خاطئة، وقد تتلاشى الأموال في الفراغ!

لكن لا، ها هو رمز التأكيد النهائي. «**هل أنت متأكد من أنك تريد التحويل؟**» .

نقرتُ قبل أن أقرأ أيّاً من التفاصيل الأخرى في نص التحذير الطويل الذي ظهر أسفلها.

تم تأكيد التحويل. ثم رسالة تأكيد.

حدقتُ فيها، وغمرني الشعور بـ الارتياح لـ جزء من الثانية. لكن ذلك الشعور تضاءل تقريباً على الفور، واستُبدل بـ تلك الموجة المتزايدة من الرعب والهلع المتصاعد.

لقد مرت تسع دقائق منذ وصولي إلى المنزل.

لقد ذهبت الأموال، وأصبحت خارج سيطرتي الآن. مما يعني أن الوقت لاكتشاف ما الذي كان يفترض بي فعله بعد ذلك قد حان. وكنتُ لا أزال لا أعرف؛ فكل خطوة أستطيع اتخاذها كانت تبدو كسحب دبوس من قنبلة يدوية.

حدقتُ في الهاتف وأنا أفتح الشاشة الرئيسية بـيدين مرتجفتين لـ إعادة فتح تطبيق تتبع الساعة.

وبينما كنتُ أنتظر تحميله، رجوتُ أن يظهر رقم هاتف غير معروف على شاشتي، شخص يؤكد أنه استلم تحويل البتكوين—وأنه سيتم إطلاق سراح طفلتيّ، سالمتين ومعافاتين. ظل الهاتف صامتاً.

وعندما انفتح تطبيق تتبع الساعة، استقبلني إشعار تحذيري يخبرني بأن بطارية الساعة انخفضت إلى **4%**.

اختنقتُ بـ الرعب:

«لا!»

في المرة الأخيرة التي تحققت فيها من موقع النقطة قبل عشر دقائق، كانت النقطة على بعد عشرين ميلاً — بالقرب من المكان الذي يبدأ فيه الطريق السريع بالتعرج صعودًا نحو الجبال. كانوا قد انعطفوا من طريق جانبي ريفي، يتعرج بموازاة حدود المدينة عبر سفوح التلال.

حدقتُ في الخريطة، متقلبةً بين الطبوغرافيا ورؤية الشوارع. كانت النقطة الزرقاء تتحرك مجدداً، لكنها لا تزال مجاورة لذلك الطريق الريفي في التلال—وتتسلل غرباً.

التقطتُ صورة لـالشاشة وكنتُ على وشك إغلاق التطبيق عندما أومض اسم طريق—**«سوغارلوف لين»**—في محيط الخريطة.

شعرتُ بـ جبهتي تتغضن في ارتباك. وتسلل الخوف إلى خلفية عقلي.

كنتُ متأكدة تقريباً من أنني أعرف اسم ذلك الشارع، ذلك الموقع العام. لماذا كان الخاطفون يتجهون إلى ذلك الاتجاه؟

كررت كلمات رسالة الفدية في ذهني:

لا تتصلي بـ السلطات.

اتبعي هذه التعليمات بـ الحرف.

اذهبي إلى المنزل وانتظري التعليمات. سنكون نراقب. بـ مجرد تأكيد تسليم النقود وتحويل البتكوين، سنطلق سراح الأطفال لكِ.

بدأ الأدرينالين والخوف يجعلان ساقيّ ترتجفان. وكانت أمعائي معقودة، هل أتصل بـ الشرطة الآن؟ أأنتظر بضع دقائق أخرى؟ ماذا لو كانوا على وشك إطلاق سراح الأطفال، وأرسلتُ سيارات الشرطة بـأجهزة الإنذار في اتجاههم؟

كتبتُ **9-1-1** على لوحة المفاتيح، وأنا أرتجف بـشدة جعلت إبهامي على بعد بضع بوصات من زر الاتصال. هل كنتُ سأفعل ذلك حقاً بعد كل شيء؟ هل كان ذلك يعني أنني أفسدتُ الأمر وكان يتوجب عليّ إبلاغ الشرطة منذ البداية؟ هل يتوجب عليّ الانتظار لـ فترة أطول قليلاً لـالسماع من الخاطفين؟

صرختُ:

«اتصلوا بي كما قلتم إنكم ستفعلون، تباً لـهذا!»

كانت القضايا الخاصة بـ أبي، والعناوين التي بحثتُ عنها في جوجل بينما كنتُ مستيقظة في الليلة السابقة، لا تزال محفورة في دماغي، تضرب:

مداهمة الشرطة تتحول إلى حادث مميت مع تنفيذ الخاطف لـ تهديداته.

العائلات مدمّرة حيث تؤدي مشاركة الشرطة إلى نهاية مروعة لـ الرهينة.

ثم حدث أسوأ شيء.

اختفت تلك النقطة الزرقاء الصغيرة، واستُبدلت رسالة «4% البطارية» فجأة بـ إشعار في زاوية التطبيق يقرأ: **انقطع اتصال الـ GPS. لا يمكن الربط بـ الجهاز.**

صرختُ بـ ذهول وعدم تصديق:

«لا، لا، لا»

صرختُ في حالة من الذهول وعدم التصديق. كنتُ حريصًا للغاية، ولم أتحقق منها سوى مرات قليلة. لا يمكن أن يتوقف جهاز التتبع عن العمل بهذه البساطة. ليس الآن. ليس بعد كل ما مررنا به.

لكنه توقف بالفعل.

كانت الساعة معطلة، والنقطة الزرقاء متجمدة في مكانها عند تقاطع طريق ترابي مجهول مع شارع «سوغارلوف لين».

كرر عقلي بـ صوت أعلى وأعلى:

تعطلت، تعطلت، تعطلت، تعطلت، تعطلت

بينما ظل جسدي مجمداً في مكانه.

لقد خسرتُ ورقتي الرابحة لـ التو.

اندفعت ذكرى مدفونة منذ زمن طويل إلى مقدمة ذهني المشوش، كصورة متبقية بعد التحديق مباشرة في الشمس. من الصيف الذي كانت فيه بوني طفلة صغيرة وساج في السادسة من عمرها، وأخذت الفتيات إلى ساحل أوريغون بمفردي. كنا نصعد المنحدرات نحو الشقة المستأجرة بعد استكشاف برك المد والجزر — **سيدج** مبللة تمامًا من القفز فيها، و**بوني** تبكي لأنها كانت مستعدة لأخذ قيلولة — عندما سمعت صراخًا من الشاطئ خلفنا.

التفتُ في الوقت المناسب لـ أرى موجة مفاجئة ترتد نحو المحيط، متراجعةً بـ سرعة فوق أحواض المد والجزر الصخرية.

كانت هناك امرأة تركض حافية القدمين عبر الصخور البركانية في مطاردة حثيثة لـ الرغوة المتراجعة.

لم أكن متأكدة مما يحدث حتى رأيتُ سترة حمراء صغيرة تتقلب في الأمواج البيضاء الهائجة.

صرخ المتفرجون المذعورون، ومن بينهم رجل بدا أنه زوج المرأة، مطالبين زوجته بالتوقف والعودة. كانت الموجة الخادعة قد اندفعت إلى الداخل — ثم إلى الخارج — بسرعة شديدة، لدرجة أنها كانت قد جرت بالفعل تلك السترة الحمراء الصغيرة ذات القلنسوة نحو منحدرات البحر ومكان انكسار

الأمواج بعيدًا جدًّا عن برك المد البريئة المتجمعة على طول الشريط الرملي. كانت الأمواج تتلاطم ضد الحواف الصخرية للمنحدرات. وأي شخص يحاول دخول المحيط من هناك سيصطدم بها بقوة.

انحبس نفسي في حلقي عندما أدركتُ أنه لو دخلت الماء، فـ هناك كل فرصة لأن أشاهد شخصين يموتان.

صرخ الرجل مجدداً لـتتوقف المرأة، لـتعود، وأن أحدهم قد اتصل بـ خفر السواحل، وأنه لا يوجد شيء تستطيع فعله.

لكن الأم لم تتوقف.

سبحت بـقوة نحو تلك السترة، بـسرعة مستحيلة في الأمواج الهائجة، حتى وصلت إلى طفلها. ثم تمسكت به بقوة، جاذبةً خصلات الشعر البني ويدَي الطفل إلى رقبتها حتى عندما دفعهما الموج التالي بقوة نحو جرف الصخور.

عوت صفارات الإنذار. واقتربت **بوني** من عنقي. وارتجفت **سيدج** وهي تجذب يدي.

وبعد ذلك، وضد كل الاحتمالات، سبحت تلك المرأة بـ طفلها بـ أمان عائدةً إلى الشاطئ.

لقد كانت متهورة في محاولتها؛ واستطعتُ القول من الوجوه المذهولة وهزات الرؤوس من المتفرجين أنهم ظنوا أنها كانت

على وشك توقيع شهادة وفاتها بنفسها. لكن في بعض الأحيان، لا توجد طريقة أخرى.

في بعض الأحيان، تكون الخيارات الوحيدة مروعة، مع قليل من الأمل في أن يكون أي شيء بـ خير مجدداً. وتختار واحداً على أي حال.

مثل تلك الأم اليائسة التي تسبح نحو طفلها الذي يجرفه الماء، كنتُ غارقة بـ الفعل فوق رأسي. وكنتُ كذلك منذ اللحظة التي قررتُ فيها الاستمرار في اتباع تعليمات رسالة الفدية بالحرف. كان الأمر خطيراً وغبياً.

لم يكن لديّ شك في أن أي شخص يقرأ التقرير الإخباري لاحقاً سيقول إنه كان يتوجب عليّ الاتصال بـ الشرطة ومكتب التحقيقات الفيدرالي من الثانية التي رأيتُ فيها تلك الرسالة المرفقة بـ صندوق البيتزا.

لكن تلك الأم على ساحل أوريغون؟ لم تكن لتفعل ذلك. كانت ستعرف أن الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله في هذه اللحظة هو الاندفاع بـ شكل مباشر إلى المكان الذي توجد فيه أصغر شريحة من الفرصة لـ العثور على طريقة لـ إنقاذ طفلتيّ.

لذا، ومع تذكر تلك السترة الحمراء التي تطفو في ذهني، ضغطتُ أخيراً على **9-1-1** في هاتفي.

ثم، وبينما نقرتُ على زر الاتصال، أسرعتُ عائدة إلى المرآب، مستعدةً لـ القيادة كـ المجنونة نحو آخر مكان رأيتُ فيه تلك النقطة الزرقاء المتجمدة.

50

سيدج

ركضتُ بـ أسرع مما ركضتُ في حياتي كلها.

لطالما كنتُ جيدة في الركض؛ فقد كنتُ الأسرع في فصلي في كل خريف عندما كان يتوجب علينا ركض. كان الجميع يشتكون دائماً، إلا أنا. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي تنظر فيها **ميا** والفتيات الجميلات إليّ بـ شيء يشبه الحسد.

أخبرني معلم الرياضة، **السيد تامورا**، أنه يتوجب عليّ الانضمام إلى فريق ألعاب القوى في المدرسة المتوسطة. وقال جدي الشيء نفسه:

«استفيدي من تلك الساقين الطويلتين والنحيفتين، أنتِ كـ غزال صغير».

واصلتُ التفكير في ذلك بينما كنتُ أركض عبر الطريق الترابي، بعيداً عن **يسوع** الشرير. كـ غزال صغير.

طاخ!

أفزعني صوت عالٍ من خلفي لـ درجة أنني كدتُ أفقد توازني وأسقط بـ قوة على الصخور المكسورة والتراب.

استغرق الأمر ثانية لـ أدرك أنه لابد أن يكون مسدساً؛ فصاحب **الشعر الزيتي** كان يطلق النار عليّ من مسدس!

قفزتُ نحو اليمين، ثم اليسار، متحركة بـ سرعة أكبر. أي شيء باستثناء خط مستقيم يمنحه هدفاً سهلاً للإصابة.

كـ غزال صغير.

كان عليّ أن أكون غزالاً؛ لأن هناك صياداً خلفي مباشرة، وتحدث خطواته الثقيلة قعقة شديدة مهما ركضتُ بـ سرعة.

كان يلهث بـصعوبة، محاولاً التقاط أنفاسه، لكن ذلك لم يزدني إلا ركضاً بـ سرعة أكبر:

«توقفي، أيتها العاهرة الصغيرة!»

استطعتُ القول من خطواته الثقيلة أنه لم يكن يركض بـسرعة تطابق سرعتي.

ربما لم يكن مضطراً لـ ذلك رغم ذلك؛ لأنه كان يمتلك المسدس.

طاخ!

انتظرتُ الشعور بـالرصاصة تضرب خلف رأسي وتطيح بي أرضاً.

بدلاً من ذلك، شعرتُ بـ اندفاع طاقة كان أقوى من أي نشاط يمنحه سكر الحلوي.

قلتُ لـ ساقيّ:

«أسرعي، أسرعي، أسرعي كـ الغزال!»

واستمعتا إليّ.

لم أستطع رؤية مسافة بعيدة أمامي عبر الطريق الداكن والضيق. كان ذلك مرعباً، لكنه كان جيداً أيضاً؛ لأنه طالما بقيتُ متقدمة على صاحب **الشعر الزيتي**، فلن يتمكن من رؤيتي بـ شكل جيد هو الآخر.

لم أجرؤ على النظر إلى الخلف فوق كتفي.

عندما زحفتُ لـ المرة الأولى خارج المكان الذي دفنونا فيه— قبل أن ينهار التراب والطين داخل الحفرة—ظننتُ أنني متعبة لـ درجة أنني بـ الكاد أستطيع المشي. لكن الآن، كان يبدو أن ساقيّ لا يمكن إيقافهما؛ وكأنني أستطيع الركض طوال الليل لو اضطررتُ لـ ذلك دون أن أبطئ سرعتي أبداً.

لم أكن أعرف إلى أين أركض. في البداية، كانت الجدران العالية التي تشبه المنحدرات الصخرية—تلك التي لمحتُها عبر الثقب الذي حفرتُه في نافذة الفان المدهونة—تتبع الطريق الترابي بـ قرب من كلا الجانبين. ومع استمراري في الركض، كانت جدران المنحدرات تلك تنخفض أكثر فأكثر، وبدأ الطريق الترابي يتفرع إلى طرق أخرى أصغر. وكانت تؤدي إلى ما يبدو وكأنه حفر عملاقة. وكانت هناك حفارات ضخمة وآلات أخرى في أماكن مختلفة، وكأنه موقع بناء. لم أستطع استيعاب ما كان عليه هذا المكان—سوى أنه كان كبيراً وفارغاً ومليئاً بـ

التراب والصخور والخردة، كـ جزء منسي من العالم لا يفترض بـ أحد الذهاب إليه.

كل ما عرفتُه حقاً هو أنه كان يبدو كـالكابوس، ولو أردتُ الاستيقاظ منه فعليّ الاستمرار في الركض، والبقاء متقدمة على صاحب **الشعر الزيتي**. وكان عليّ العثور على المساعدة لـ**بوني** والسيدة **جيسا** والآخرين.

شهق صاحب **الشعر الزيتي** مجدداً:

«تباً لـ هذا، توقفي!»

لكن صوته كان يبتعد أكثر فأكثر، ولم يزدني إلا تحركاً بـ سرعة أكبر.

كنتُ أسرع منه.

صدر صوت انزلاق خلفي، ثم ثقل، ثم صوت حذائه الرياضي وهو يتسلق الحصى وصوت ضربة حادة.

قال لي عقلي:

ربما أوقع المسدس، استمري وسوف تفقدينه الآن.

بصق مجدداً:

«تباً!»

وكانت هناك المزيد من أصوات التسلق تلك على الحصى.

لم أتوقف للنظر خلفي بعد، بل واصلتُ تحريك ذراعيّ وساقيّ، داعيةً ألا أترنح كما حدث له لـ التو.

لأنني لو فعلتُ، كان سيمسك بي.
حركتُ رأسي يميناً ويساراً وأنا أركض، لكن لم يكن هناك مكان لـ الاختباء أستطيع رؤيته؛ فقط صخور ومساحة فارغة وظلام. وفي الغالب، كان كل شيء حولي يبدو متشابهاً—رمادياً وداكناً.
بعد بضع ثوانٍ، لم أستطع سماعه خلفي بعد الآن.
فقط صوت قدميّ وهما تركضان، تركضان، تركضان.
شهقتُ لـالحصول على الهواء. كان صدري يؤلمني بـ شدة فجأة—وكذلك ساقاي. سحبتُ نفساً كبيراً وحاولتُ الاستمرار، لكن طاقتي كانت تتلاشى بـ سرعة. ولـ جعل الأمور أسوأ، كان الطريق يتجه صاعداً بـ انحدار شديد الآن، مما جعل من الصعب أكثر الحفاظ على سرعتي.
ومع ذلك، وبينما كنتُ أترنح مقتربةً من قمة التل، رأيتُ شيئاً جميلاً:
ومضات ضوء، صغيرة وبعيدة. كـ النجوم، لكن على الأرض.
هذا ما كانت **بوني** تقوله دائماً عندما نعود إلى المنزل بعد رحلة تخييم في الليل ونرى أضواء المدينة تتلألأ من مسافة:
نجوم الأرض.
كانت هناك منازل وأناس في ذلك الاتجاه، وكان عليّ فقط الوصول إلى هناك.

قفز قلبي، وأرغمتُ ساقيّ على الاستمرار في التحرك، رغم أنهما كانتا تبدوان وكأنهما قد تنهاران في أي ثانية. وبدأت الأرض تتغير تحتي، لا تزال خشنة لكنها أقل حصوية وأكثر شبه بـ طريق حقيقي. وكانت قدمي تستطيعان التحرك بـ هدوء أكبر هنا، طالما أنني لم أضرب الأرض بـ حذائي الرياضي.

وعلى بعد بضعة أقدام أخرى، كانت هناك بوابة—ولافتة بيضاء صدئة كبيرة مثبتة على جانب الطريق الذي ركضتُ صاعدةً منه لـ التو. كانت طويلة، لكن لن يكون من الصعب جداً تسلق الدرجات العريضة والمتباعدة.

أرجحتُ نفسي صاعدةً فوق درجات البوابة بـ سهولة، باستثناء أنها أصدرت صوت قعقعة عالياً في الثانية التي بدأتُ فيها التسلق، وكأن تلك البوابة تصرخ: «ها هي ذا، تعالوا من هذا الاتجاه!»

كدتُ أسقط عندما لمستُ الأرض على الجانب الآخر من البوابة، لكنني واصلتُ الاستمرار. لم يكن لدى **بوني** والأطفال الآخرين—والسيدة **جيسا**—الكثير من الوقت؛ كان عليّ مساعدتهم، وعليّ العثور على شخص يستطيع حفر كل ذلك الطين في الحفرة.

ماذا لو كانوا مصابين في الأسفل؟ ماذا لو كان هناك الكثير من الطين لدرجة أنه لم يعد لديهم أي هواء متبقٍ بـ المرة...

أغلقتُ عقلي عن تلك الأفكار.

أفكار مثل تلك كانت ستجعل ساقيّ تذوبان كـ الهلام.

أدرتُ رأسي لـ رؤية الكلمات الموجودة على اللافتة البيضاء الصدئة بينما مررتُ بـ جوارها:

المدخل الغربي: محجر الجانب الشمالي

حفظتُ تلك الكلمات وأرغمتُ نفسي على الاستمرار في الركض.

51

تيد

كان آخر شيء صرخه **أندي** فوق كتفه عليّ قبل أن يختفي مطارداً الطفلة الصغيرة هو:

«اجلب السيارة اللعينة! حرك مؤخرتك!»

كنتُ أستطيع تخيل المفاتيح وهي تتدلى من محرك تشغيل سيارة السيفيك.

كنتُ أعلم أنه كان يعبر عن رغبته في أن أجلب السيارة وأتبعه لـ مساعدته في الإمساك بـ الطفلة الصغيرة التي هربت.

لكن عقلي لم يتجه إلى هناك في البداية؛ بل ذهب إلى فكرة إدارة مفتاح التشغيل ذاك، ثم القيادة بعيداً عن المحجر وعن **أندي** بـ أسرع ما يمكنني، متجهاً نحو فلوريدا.

لأن إشعاراً على هاتفي كان قد أعلمني لـالتو بوجود ما يعادل مليوني دولار تقريباً في محفظة البتكوين الخاصة بي.

حدقتُ بـ عدم تصديق. وكنتُ أظن أن تحويل البتكوين قد انهار تماماً كما بدا أن كل جزء آخر من الخطة ينهار في هذه اللحظة.

لكن ذلك الجزء من الخطة لم يفشل؛ فـ الأموال كانت هناك مباشرة، أكثر مما رأيتُ—أو سأرى—في حياتي كلها.

لـ دقيقة واحدة، وبينما كنتُ واقفاً هناك وقدمَي مغروستان في الأرض، كانت علامات الدولار تلك تبدو مغرية بـ القدر نفسه الذي كانت عليه في اليوم الذي ابتكرنا فيه أنا و**أندي** هذه الخطة لـ سلب تلك الأموال كـ «روبن هود» من أولياء الأمور المفرطين في الحماية والإدارة اللعينة في روضة «برايت بيغينينغز».

كل تلك الأموال كانت ملكاً لنا لـ نأخذها، لو استطعنا تنفيذ السرقة المثالية.

تخيلت نفسي وأنا آخذ حصتي من النقود—التي لابد أنها أصبحت مبتلة بـ سبب حشر **أندي** لها في صندوق التبريد—ثم القيادة بـ أبعد وأسرع ما يمكنني، عبر حدود الولايات، حتى أستطيع التنفس مجدداً؛ والاختباء لـ فترة، ثم التسلل إلى حياة جديدة بـ سجل نظيف.

ربما كنتُ سأرسل لـ **أندي** حصته من أموال البتكوين في النهاية، وربما لا. وربما، لو كنتُ محظوظاً جداً جداً، لـ كان سيتحمل مسؤولية هذا العبث كله بـ فرده، أو يجد طريقة لـ إلقاء اللوم على سائقة الحافلة.

خطوتُ خطوة بعيداً عن كومة الخردة. ثم أخرى، وأخرى بينما كنتُ أدفع جانباً الأفكار حول ما كان **أندي** سيفعله عندما يمسك بـ تلك الطفلة الصغيرة.

تحركت عيناني نحو اللوح المعدني الذي نظرتُ إليه مرات عديدة خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية، لكنني واصلتُ السير.

مهما كان ما سأفعله بعد ذلك، لم يكن هناك مفر من حقيقة أنني أستطيع الشعور بـ مستقبلي وهو على وشك الانهيار فوق رأسي، تماماً كما انهار عمود المخبأ فوق رؤوس كل أولئك الأطفال الذين دفنّاهم على عمق عشرين قدماً تحت الأرض.

لقد كانوا ميتين بـ التأكيد.

لابد أنهم ميتون مع كل ذلك التراب، أليس كذلك؟

فكرتُ في الطريقة التي يتغضن بها وجه أمي عندما ترى اسمي واسم **أندي** في الأخبار؛ تلك التجاعيد العميقة في جبهتها ووجنتيها التي تجعل عينيها تختفيان تقريباً. الوجه نفسه الذي صنعته عندما جاءت لـ زيارتي بعد خروجي من المستشفى إثر حادث الدراجة النارية—وإلى السجن مباشرة.

لم تكن مندهشة، ولا حتى خائبة الأمل حقاً؛ بل قرفة ومشمئزة بـ الكامل. وكأنها تمتلك أي تفوق أخلاقي لـ تحكم عليّ!

كانت ستقول وكأنها لا تتعفن من الداخل إلى الخارج في مقطورتها القذرة، ثملة بـ الكامل:

«يا لـ الضياع! لم يعرف قط كيف يبذل جهداً!»

جززتُ على فكي بـ قوة ومشيتُ بـ سرعة أكبر، مقوياً نفسي لـ ما كنتُ على وشك فعله؛ ما كان عليّ فعله.

لأن اللعنة على كل شيء!

كل شيء كان قد ذهب إلى الخراء بـ الفعل. وتلك الفتاة النحيفة الطويلة كانت هالكة بـ التأكيد، وكان ذلك بسببها؛ ولن يساعد أي شيء أفعله أولئك الأطفال في الحافلة 315. ربما!

«*ربما*»... تكررت تلك الكلمة في نهاية كل فكرة كـ مقطع صوتي تالف في عقلي. صفعتُ جانب رأسي لـ جعلها تتوقف، لكنني لم أعد أمشي؛ كنتُ أُحدق في الفراغ فحسب.

«*ابذل جهداً!*»

لـ مفاجأتي، كانت تلك الكلمات تبدو كـ صوتي أنا لـ مرة واحدة، وليس صوت أمي.

همستُ وأنا أشعر بـ الأدرينالين يضرب بـ قوة، كـ صدمة حادة: «بحق الخراء!»

كل شيء كان قد ذهب إلى الجحيم.

نظرة نحو سيارة السيفيك الخاصة بـ **أندي**، المركونة على جانب الطريق الترابي. ثم نظرتُ إلى البقعة التي دُفن فيها المخبأ.

«*ابذل جهداً!*»

انكسر شيء ما بـ الداخلي، ولـ المرة الأولى منذ أن ذهب كل شيء إلى الخراء، عرفتُ بـ يقين تام ما الذي سأفعله.

الآن، كان الشيء الوحيد الذي يهم بعد ذلك هو شعور المفاتيح في يدي.

52

جيسا

ست وعشرون ساعة وثمان وخمسون دقيقة من الدفن

سألت **بوني** بـ صوت صغير، قاطعةً أفكاري:

«ما هذا؟»

حاولت جفوني الثقيلة أن تُفتح، لكن المهمة كانت صعبة للغاية. لم يكن هناك ما أراه على أي حال. لذا اكتفيت بالاستماع بدلاً من ذلك، محاولةً التركيز، حتى مع استمرار عقلي الضبابي في الانسياب عودةً إلى **صوفي**.

كان هناك طنين خافت، والأرض تهتز بـ خفة شديدة تحت رؤوسنا، وصوت زمجرة باهتة يزداد علواً فوقنا.

صرخ الأطفال:

«لا، لا!»

بينما بدأ المزيد من التراب يتساقط كـ المطر علينا.

جعلني ذلك أفتح عينيّ على مصراعيهما. أياً كان ما يوجد في الأعلى، فإنه كان يزيد الضغط على الانهيار. هل هناك سيارة تسير فوق البئر المملوء بالطين؟

كشط شيء ما عبر الجزء العلوي من اللوح المعدني بـ صوت صرير مخيف، تبعه ثقل شيء ثقيل ينزل بـ قوة.

وتساقطت المزيد من كتل التراب عبر الثقب الموجود في الخشب فوقنا.

همس عقلي:

«إنهم يدفنون المدخل بـ الكامل، المتبقي منه... حتى لا يجدكم أحد أبداً».

صرختُ بـ أعلى صوتي، جاهدةً لجعل صوتي أعلى من صوت الزمجرة وكتل التراب التي تتساقط علينا:

«**روز، بن، كيد،** أسرعوا! اسندوا المراتب واصنعوا مأوى لـ نختبئ تحته!»

لم يكن ذلك المأوى ليمنحنا سوى بضع دقائق ثمينة، حتى ينهار لوح الخشب السميك الذي حفرت **سيدج** طريقها عبره في أعلى المخبأ بـ الكامل تحت ثقل انهيار الطين وثقل أي شيء كان يصدر ذلك الطنين فوقنا.

لكن بضع دقائق كانت بضع دقائق على أي حال.

أغلقتُ عينَي وتخيلتُ التقاط صور لـ**صوفي** ومرافقها بجوار الشرفة في ليلة حفلة التخرج؛ معانقتها بـ قوة في حفل التخرج؛ غمس أصابع أقدامنا في الرمال عند بحيرة «بير ليك»، المكان

المفضل لـ عطلات **صوفي**، آخر مكان أتذكر أنني سمعتها فيه تصرخ من الفرح.

مجرد بضعة آمال أخرى كانت على وشك أن تُسحق.

لكن ذلك لم يكن يعني أنني سأسمح لها بـ الانزلاق من بين أصابعي.

53

سيدج

لم أكن أعرف كم المساحة التي ركضتُها بعد خروجي من المقلع. ربما لـ بضع دقائق فقط، لكن الطريقة التي كانت تحترق بها رئتاي جعلت الأمر يبدو وكأنه إلى الأبد.

كان الطريق قد اتسع قليلاً وتحول من ترابي إلى معبد، وعنقود الأضواء الذي كان كـ رؤوس الدبابيس من قبل بدأ يزداد كبراً وسطوعاً الآن.

أما الأضواء الأقرب، التي كانت تتفوق في سطوعها على كل شيء آخر في الأفق، فكانت تابعة لمجموعة من المباني أمامي، عبر الأشجار. كانت تلك المباني مختبئة في ظلام الليل، محاطة بسياج أبيض.

كان هناك شيء ما مألوف في هذا المكان، لكن ليس بـ القدر الكافي لـ أستطيع القول أين كنتُ بعد.

«لقد أوشكتُ على الوصول».

مع كل تلك الأضواء وكل تلك المباني، لابد أن أحداً ما موجود في المنزل. لابد أن يفتح لي أحدهم الباب، ويساعدني، ويأخذني

عائدة إلى **بوني** وتلك الحفرة، حيث سأحفر وأحفر وأحفر حتى لو كنتُ بـ الكاد أستطيع الشعور بـ أصابعي وذراعيّ بعد الآن.

حاولتُ التفكير فيما سأقوله، وأسرع طريقة لـ جعل شخص ما يستمع ويأتي معي:

«ساعدوني! اتصلوا بـ الشرطة! هناك أطفال مدفونون هناك في محجر الجانب الشمالي! هناك رجال يحملون أسلحة! من ذلك الاتجاه!»

نعم؛ كانت تلك هي الكلمات. كان يتوجب أن تكون تلك هي الكلمات بـ الذات.

احتفظتُ بها في فمي، مستعدةً لـ إطلاقها في الثانية التي يجيب فيها أحدهم على أحد تلك الأبواب.

ترنحتُ لـ الأمام.

ثم سمعتُ صوتاً أدركتُ ماهيته؛ ولكن هذه المرة، كان يهمس بدلاً من أن يصرخ.

كانت تلك البوابة المعدنية التي تسلقتُها قبل بضع دقائق فقط؛ كانت تصدر الصوت الصرير الحاد نفسه الذي أصدرتْه عندما رفعتُ نفسي فوقها.

كدتُ أفقد السيطرة على مثانتي بينما صرخ عقلي:

«إنه خلفك مباشرة! إنه يتجه إلى هنا!»

حركتُ ساقيّ بـ أسرع ما يمكنني—ولم يكن ذلك بـ السرعة الكبيرة بعد الآن—نحو السياج الأبيض. ومع اقترابه أكثر فأكثر، كان تنفسي يأتي بـ سرعة أكبر وأكبر. كان صاحب **الشعر الزيتي** على وشك الإمساك بي!

في أي ثانية، سيكون قادراً على رؤيتي بينما ينحدر الطريق أسفل نحو هذه الأضواء.

وكان سيعرف أنني سأتجه بـ شكل مباشر نحوها.

مررتُ بـ يديّ على السياج الأبيض، بحثاً عن مزلاج، وأنا أريد الصراخ لكنني خائفة من أن يؤدي ذلك إلى قيادته إليّ بـ شكل أسرع.

كنتُ متأكدة الآن من أنني رأيتُ هذه البوابة من قبل، بـ الطريقة نفسها التي كنتُ متأكدة فيها من أنني سمعتُ صوت **السيد إدواردز** من قبل، لكن لم يكن هناك وقت لـ فرز كيفية ذلك.

وجدتُ المزلاج. وكان هناك قفل على الجانب الآخر؛ قفل كبير وسميك!

بكيتُ بـ همس خافت وأنا أهزه بـ اضطراب:

«لا! لا، ساعدوني!»

تسلُّق السياج كان سيحدث الكثير من الضوضاء، لكنني كنتُ متأكدة تقريباً من أنني أستطيع الإمساك بـ القمة وسحب نفسي

فوقها لو وضعتُ قدمي على العارضة الممتدة على طول الجزء السفلي. لم يكن ذلك شيئاً مقارنةً بـ الخروج من المخبأ.

كنت على وشك الوصول، لم يتبق لي سوى الوصول إلى الجانب الآخر، ثم عدو سريع آخر وسأكون أطرق ذلك الباب الأول الذي يضيء ضوء الشرفة فوقه.

ترددت لثانية واحدة فقط ورجلي على الدرابزين. لفترة كافية لأسمع صوتًا من خلفي يقول:

«إذا بقيت في مكانك هذا، فلن أطلق عليك النار».

54

شينا

أسرعتُ عبر الشوارع المظلمة مع موظفة استقبال طوارئ **1-1-9** على مكبر الصوت، يائسةً لـ الوصول إلى آخر مكان رأيتُ فيه تلك النقطة الزرقاء المتجمدة على التطبيق.

كنتُ لا أزال على بعد خمس عشرة دقيقة كاملة من قمة شارع «**سوغارلوف لين**»، حتى لو حافظتُ على هذه السرعة.

قلتُ بـ اندفاع، وأنا أعلم أنه لا فائدة من التظاهر بـ عكس ذلك؛ فـ لابد أن اسمي ورقم هاتفي يظهران بـ الفعل على شاشتهم:

«اسمي شاينا هالفيرسون، ابنتيا... ابنتايا كانتا على الحافلة التي اختفت بعد ظهر الأمس. ولديّ معلومات موثوقة حول موقع الخاطف—أو الخاطفين. بالقرب من الطريق السريع I-55 وشارع سوغارلوف لين».

قالت الموظفة:

«سيدة هالفيرسون، أجد صعوبة في فهمك. أحتاج منكِ أن تبطئي. هل هذا شارع سوغارلوف لين في مقاطعة أدا؟»

شهقتُ:

«نعم! لا أعرف من أين أبدأ الشرح، لكنني متأكدة من أن الخاطفين في هذه المنطقة. لم يكن من المفترض أن أتصل بـ الشرطة؛ قالوا... قالوا إنهم سيؤذون الأطفال!»

بدأت الدموع تتساقط مجدداً، لكنني لم أرفع يديّ عن عجلة القيادة لـ مسحهما.

طمأنتني الموظفة:

«أنا أفهمكِ، وأنا أرسل المساعدة الآن. لقد فعلتِ الشيء الصحيح بـ الاتصال».

ابتلعتُ ريقي بـ صعوبة. لو أن أياً منا كانت تعرف أن ذلك صحيح حقاً!

قاطعتُ المرأة الصبورة بـ حدة:

«كم عدد الضباط الذين سترسلينهم؟ لن يستخدموا سيارات الإنذار، أليس كذلك؟ أرجوكِ، لا يمكنهم استخدام سيارات الإنذار! يمكن أن يكونوا في أي مكان بـ القرب من ذلك الموقع الذي أعطيتُكِ إياه!»

ردت الموظفة:

«سيدتي، أنا أرسل وحدات متعددة الآن إلى الموقع الذي قدمتِه. أحتاج منكِ البقاء معي على الخط. ما هو موقعكِ الحالي؟»

ترددتُ لـ فترة كافية، لأن صوتها كان صارماً عندما قالت:

«أحتاج منكِ البقاء حيث أنتِ والتحدث معي يا سيدتي. عليكِ الابتعاد عن الموقع الذي قدمتِه والتحدث معي».

حاولتُ التحدث، أو الرد، لكن الصوت الوحيد الذي خرج كان صرخة مخنوقة.

طمأنتني الموظفة مجدداً، وكان صوتها هادئاً لدرجة أنني لم أستطع منع نفسي من التشبث به كـ طوق نجاة:

«سأنقل كل ما تقولينه إلى الضباط المتجهين إلى الموقع. لذا أحتاج إلى أي معلومات يمكنكِ تقديمها قد تساعد الشرطة في التعامل مع الموقف. سيدتي؟»

أبطأتُ سرعتي وسحبتُ السيارة إلى جانب الطريق، وأنا أشعر وكأنني أغرق؛ أغرق، ربما، مشدودةً إلى الأسفل تحت ثقل الحقيقة.

كانت الشرطة في الطريق؛ مما يعني أن كل ما أستطيع فعله الآن هو البقاء بعيدة عن طريقهم، والتمني بـ قوة أن ينجحوا حيث فشلتُ أنا.

لقد قفزتُ في الأمواج، لكنني عرفتُ في أعماقي أنني لن أصل إلى تلك السترة الحمراء العائمة بـ مفردي في النهاية، مهما سبحتُ بـ قوة.

وفي مخيلتي، كانت تلك السترة تتلاشى بـ الفعل تحت الأمواج... وقريباً، ستختفي بـ الكامل.

55

سيدج

تجمدتُ ويداي على السياج الأبيض، لا أجرؤ على النظر خلفي نحو الظلام.

تكررت الكلمات في عقلي في حلقة مفرغة: «إذا بقيت في مكانك هذا، فلن أطلق عليك النار».

كم كان صاحب الشعر الزيتي قريباً مني؟ كان صوته يبدو مبحوحاً ومتعباً كما أشعر تماماً، وكلماته تتداخل بـ بعضها.

دار عقلي الجاسوسي بسرعة، مخبراً إياي بـ كل ما أحتاج إلى معرفته في تلك اللحظة الخاطفة التي علقتُ فيها، متجمدة على عارضة السياج:

لقد أخطأكِ عندما أطلق النار من قبل. وهو الآن أبعد مما كان عليه حينها.

لو استطعتِ العبور فوق السياج، فسيحجبك عنه.

عليهم فقط فتح الباب بـ سرعة كافية قبل أن يصل إلى السياج ويستطيع إطلاق النار مجدداً.

أنطلقتُ بـ جسدي لـ الأعلى وكأن في قدميّ زنبركات، متسلقةً ومخربشةً بينما نجحتُ بـ طريقة ما في رمي جسدي فوق السياج الأبيض.

كانت هناك لافتة بـ القرب من الممر مخفية جزئياً بـ الشجيرات والزهور التي ركضتُ بـ جوارها، لكنني لم أتوقف لـ قراءتها. لم يكن يهم ما كان عليه هذا المكان؛ فقد كان كل ما أملك.

سمعتُ زمجرة صاحب الشعر الزيتي، ثم ارتطام خطواته الثقيلة بـ الأرض، وازداد الصوت علواً.

ركضتُ نحو الشرفة بأسرع ما استطعتُ، وأمسكتُ بالمقبض ـــالمغلقـــ بيد واحدة، وبدأتُ أطرق الباب بيدٍ أخرى:

«ساعدوني، ساعدوني، ساعدوني، أرجوكم ساعدوني!»

بين صرخاتي، استطعتُ سماع أصوات خافتة من داخل المبنى؛ وكأن شخصاً ما يشاهد التلفاز بـ صوت عالٍ جداً بـ الداخل.

سحبتُ نفساً وسمعتُ صوت إطلاق نار خافت، ثم صوت صهيل حصان. هل يستطيعون سماعي هناك؟

من طرف عيني، رأيتُ لافتة على الباب: «**أهلاً بـ الأصدقاء**».

وكان ذلك هو ما جعلني أدرك أخيراً أين كنتُ. كانت أمي قد أحضرتنا إلى هنا معها في جولة قبل بضع أسابيع؛ كان كـ دار رعاية المتقاعدين، لكن لـ الأشخاص الذين يعانون من الزهايمر والخرف... مثل جدي.

اصطدم جسد صاحب الشعر الزيتي بـ السياج، هازاً إياه وكأنه كان على وشك دهسه بدلاً من تسلقه كما فعلتُ. ربما لم يستطع سحب نفسه لـ الأعلى بـ الطريقة التي فعلتُها؛ فقد كان أكبر مني حجماً، وكان متعباً جداً...

أومض ضوء فوق رأسي—أكثر سطوعاً من ضوء الشرفة، ساطعاً جداً لدرجة أنه جعلني أغلق عينيّ بـ نصف إغلاقة.

صرختُ، غير مبالية بـ المرة بـ أن صاحب الشعر الزيتي يسمعني، منتظرةً منه إطلاق النار مجدداً في الثانية التي يراني فيها تحت الضوء:

«ساعدوني!»

تكوّمتُ عند الباب، وكأنني لو اقتربتُ بـ القدر الكافي فـ سيبتلعني المبنى بـ الكامل لـ الداخل.

أصدر الباب صريرًا. وقبل أن أتمكن من طرف عيني، انفتح الباب بالكامل، فسقطتُ متعثرةً على أرضية من البلاط الوردي. دار رأسي، وأدركتُ صوت التلفاز الذي كان يعمل على أقصى مستوى، وصوت رجل عميق يصرخ بشيء عن «الحدود البرية»، ورائحة الكعك، وامرأة جاثية أمامي، وشعرها يتدلى على خديها، وملابسها تفوح منها رائحة تشبه إلى حد ما رائحة المستشفى.

كانت تقول:

«يا إلهي! يا طفلة، ما الذي يحدث بحق السماء...»

نهضتُ على عجل ونظرتُ حولي في الممر الطويل المظلم، مركّزةً على الأضواء المتلألئة المنبعثة من الغرفة التي كان التلفاز يعمل فيها. كان هناك نصف باب يفصلها عن الممر، بحيث يمكنك أن ترى ما وراءه من الأعلى فقط. كانت هناك مجموعة صغيرة من كبار السن يرتدون بيجامات وأردية، متجمعين بجوار ذلك النصف باب.

شهقتُ وحاولتُ الوقوف، منزلقةً على البلاط. كانت كل الكلمات التي احتفظتُ بها في عقلي والتي أردتُ إخبار المرأة بها، صعبة الإمساك بـ شكل مفاجئ؛ وكأن كل واحدة منها مرتبطة بـ بالون هيليوم ينجرف بعيداً عن متناول يدي.

فتحتُ فمي لـ إخبارها عن صاحب الشعر الزيتي، وعن **بوني**، وعن السيدة **جيسا** والأطفال المخطوفين في المخبأ المدفون والفدية، لكن كل ما خرج في البداية كان نحيباً ومخاطاً ودموعاً.

كانت المرأة تهمس بـ هدوء:

«اهدأي، اهدأي، اهدأي».

وكانت تحمل جهاز لاسلكي في يد، والتفتت إليه:

«أحتاج إلى الأمن هنا الآن!»

ثم قالت لي:

«أنتِ بـ أمان الآن يا عزيزتي، سيكون كل شيء بـ خير».

لم يزدني ذلك إلا بكاءً بـ شدة أكبر. كان من المستحيل إخراج كلماتي.

صرختُ، بـ صوت أعلى مما ظننتُ أنني سأصرخ به:

«لا! لقد أخذونا! لقد أخذوا بوني! التراب، الطين، كل شيء انهار! المـ... المحجر! عليكِ الذهاب إلى هناك الآن، عليكِ العودة معي، عليكِ مساعدتهم، ليس لديهم هواء!»

كانت الكلمات تخرج الآن، لكن ليس بـ الطريقة التي أردتُها. كنتُ أستطيع الرؤية في عينيها البنيتين الداكنتين وشفتيها المضمومتين أنني أبدو مرتبكة بـ الكامل كما ظننتُ.

«اهدئي فقط لـ دقيقة، وسنحل هذه المسألة...»

حدثت جلبة من أسفل الممر، أعلى من صوت التلفاز. ثم قاطع صوت شخص ما المرأة الراكعة أمامي، صرخ بـ قوة:

«تباً، استمعي لـ الطفلة!»

رفعت المرأة رأسها بـ صدمة. وكل شيء في عقلي أصبح ساكناً.

كنتُ أعرف ذلك الصوت. كنتُ أحب ذلك الصوت.

جدي! كان هنا!

هز نصف الباب أمامه قائلاً:

«ولـ يفتح أحدكم هذا الشيء! هذه حفيدتي!»

كان الأمر مستحيلاً، ولم يكن له أي معنى؛ لم يكن من المفترض أن يكون هنا بعد. لكنه كان هناك، بـ وجهه المجعد والمنمش وعينيه الزرقاوين اللتين تُحدقان بي من أسفل الممر. وكانت هناك لافتة بيضاء صغيرة أسفله مباشرة على الباب تُقرأ:

«هذا المكان مخصص لموظفي ومقيمي «قلوب عزيزة» فقط».

قال جدي بينما أخرجه رجل يرتدي زي التمريض إلى الممر وأسرع نحوي:

«ما الذي يحدث يا ميندي؟»

لم أهتم حتى بـ أنني لا أعرف من تكون ميندي.

كان جدي يرتدي منامته الصوفية الخضراء؛ تلك التي تمتاز بـ قماشها المتهالك والناعم الذي تفوح منه رائحة العرقسوس ومعجون الأسنان عندما يعانقني أنا و**بوني** لـ تمني ليلة سعيدة. ركع بـ جواري وضغط على يدي، رغم أنها كانت متسخة ومدماة وترتجف. ثم ارتفع رأسه بـ حدة بينما أصدر الباب الأمامي صوت صرير خفيف خلفنا.

بدأ الباب يفتح مجدداً!

قفز جدي على قدميه، بـ سرعة لم أره يتحرك بها قط. لم يكن يشبه الجد المتثاقل والهادئ الحديث الذي أتذكره من قبل أن يمرض.

تجمد جسدي، وأدركتُ أنني لم أسمع صوت إغلاق الباب بـ القفل بعد أن سحبتني المرأة لـ الداخل.

لم يكن أحد يعرف بعد عن صاحب الشعر الزيتي والمسدس؛ لأنني لم أكن قد أخبرتُهم!

كان العالم يدور أمام عينيّ كأنه في حركة بطيئة، بينما صرخت الممرضة بشيء ما في وجه جدي، فدفعنا نحن الاثنين جانبًا ليفتح الباب بسرعة وقوة شديدتين، وكأنه يريد أن ينتزعه من مفصلاته.

أصدر شخص ما صوت «أوف» من خارج الباب، تبعته أصوات تشابك وقعقعة شيء ما.

بوم!

انطلق المسدس، وصرخ بعض كبار السن الذين يرتدون الأردية. وأدركتُ أنني كنتُ أصرخ معهم بـ المباشرة!

«جدي، لا!»

تخيلتُه ينهار على الأرض—وصاحب الشعر الزيتي يقتحم المبنى ويطلق عليّ النار حتى الموت..

لكن ليس هذا ما حدث.

بدلاً من ذلك، اندفع جدي عائداً إلى الداخل، ممسكاً بالمسدس ويتنفس بصعوبة. كانت شفته تنزف.

تمتم وهو يغلق الباب بـ قوة، ويقلب القفل، ويقف أمامه:

«لقد هرب!»

ولـ المرة الأولى، استطعتُ تخيله كمحقق شرطة الذي كان يتحدث عنه في قصصه التي يرويها.

ثم، بـ السرعة نفسها، انخفضت كتفاه وتغضنت جبهته وهو يُحدق في المسدس في يده، ثم وضعه بـ حذر على طاولة بـ القرب من الباب.

وأضاف بـ تردد:

«لا يلمس أحد هذا. و... أظن أنه يتوجب على شخص ما الاتصال بـ الشرطة».

اقترب الجد مني وفتح ذراعيه على مصراعيهما لاستقبالي. وكان ذلك بالضبط ما كنت بحاجة إليه لتهدئة الفوضى التي كانت تعصف في ذهني المذعور.

سقطتُ في ذراعيه وحضنني بـ قوة. نظرتُ بينه وبين المرأة الخائفة التي تحمل اللاسلكي وقلتُ:

«أنا سيدج هالفيرسون. رجلان أخذاني أنا وأختي، والمزيد من الأطفال في حافلتي. إنهم يحتجزونهم في المحجر!»

ضغط جدي عليّ مجدداً ثم التفت إلى المرأة التي تحمل اللاسلكي، والذي كان يواصل إصدار أصوات تنبيه في يدها:

«لقد سمعتِ الفتاة! أسرعي واتصلي بـ الشرطة!»

أطفأ شخص ما التلفاز أخيراً في الغرفة الأخرى، في الوقت نفسه الذي اقتحم فيه رجلان يرتديان قمصاناً بنيّة الباب المجاور لـ مكتب الاستقبال، حيث كانت امرأة أخرى تحاول الوصول بـ يأس إلى هاتف المكتب.

طلبت الرقم ثم وضعت الهاتف على أذنها، ملوحةً لي ولـ جدي.

كان قلبي ينبض بـ سرعة، بـ الطريقة نفسها التي كان ينبض بها بينما كنتُ أركض، وهي تخبر الشرطة بـ ما أخبرتُها به لـ التو.

ثم ظهرت تعابير غريبة على وجهها، وكأنها لا تستطيع تصديق ما تسمعه.

قالت وهي تمد الهاتف إليّ وتتلعثم:

«لا أعرف كيف، لكن الشرطة على وشك الوصول إلى هنا بـ الفعل! خذي، بـ سرعة، أخبريهم بـ كل ما تعرفينه!»

56

شينا

أخبرت موظف مركز الطوارئ بكل ما أعرفه، وتحدثت دون توقف لمدة عشر دقائق، حيث كانت كل التفاصيل التي حدثت خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية محفورة بعمق في ذاكرتي.

لم أعد أعرف ما إذا كنت قد فعلت الصواب أم لا. ربما لم تكن هناك طريقة لمعرفة ذلك حتى ينتهي هذا الكابوس، بطريقة أو بأخرى.

في تلك اللحظة، أصدر هاتفي صوت تنبيه في أذني، معلماً إياي بـ وجود مكالمة واردة. وأظهرت نظرة خاطفة رقماً غير معروف.

شهقتُ وجلستُ بـ استقامة:

«عليّ تلقي هذه المكالمة! أظن—أظن أن الخاطفين يحاولون الاتصال بي!»

لم أنتظر لـ سماع ما ستقوله الموظفة بعد ذلك.

ماذا لو كان الخاطفون يتصلون بي لـ إخباري بأنهم يطلقون سراح الأطفال الآن؟ أو، بدلاً من ذلك، يتصلون لـ إخباري بأنهم عرفوا أنني أشركتُ الشرطة؟

أرسل الرعب قطرات من العرق تسللت بين الدموع. جززتُ على فكي وقبلتُ المكالمة.

جاء صوت امرأة على الخط مباشرة:

«سيدة هالفيرسون؟»

في البداية، تخيلتُ تلك المرأة ذات الشعر الملبد والعينين المغرورقتين بـ الدموع في صورة السجل الجنائي: **جيسا لاندون**.

لكن لا؛ لم يكن الصوت القادم عبر الهاتف صوت جيسا.

«شاينا، هذه رشيدة من الأمن في مركز "القلوب العزيزة". أنا... أنا هنا مع ابنتكِ و..»

لو لم أكن قد أوقفت السيارة بالفعل، لربما تعرضت لحادث في تلك اللحظة بالذات. كانت الكلمات تدور في ذهني، رافضة أن تتخذ معنىً واضحاً. لا يمكن أن تكون تلك الكلمات صحيحة. أبي كان في مركز « القلوب العزيزة ». وليس أطفالي.

اختنقتُ بـ الكلمات، بينما غمر جسدي مزيج من عدم التصديق، والارتياح، والارتباك، والرعب:

«ابنتي؟ ماذا؟»

«تقول إنها كانت على تلك الحافلة الخاصة بـ الأطفال المفقودين. لقد اتصلنا بـ الشرطة لـ التو..»

«دعيها تتحدث معي على الهاتف!»

«نحن نحاول استيعاب ما يحدث..»

طلبتُ بـ صوت بـ الكاد يبدو كـ صوتي:

«ضعيها على الهاتف الآن!»

حدث صمت قصير. ثم، بـ شكل مستحيل، جاء صوت على الخط... **سيدج**.

بكت **سيج**، وكان صوتها مرتجفاً وثقيلاً بـ الدموع:

«أمي!»

«يا إلهي، سيدج! هل أنتِ بـ خير؟ أين بوني؟»

لم أستطع استيعاب أي شيء مما كان يحدث، لكن طالما أن الإجابة على تلك الأسئلة هي نعم، فـ قد كان ذلك كافياً لـ هذه اللحظة.

انتحبت بـ هدوء:

«أنا بـ خير. لقد هربتُ يا أمي، أنا مع جدي».

لـ ثانية واحدة فقط، انزاح كل الرعب والخوف اللذين كنتُ أحملهما.

نقلت يداي السيارة تلقائياً إلى وضع القيادة، وضغطت قدمي على دواسة البنزين، ومرة أخرى كنتُ أسرع في اتجاه النقطة

الزرقاء التي رأيتُها على التطبيق: شارع «**سوغارلوف لين**»، الذي ينتهي بـ طريق مسدود في أطراف المدينة. على بعد ميل واحد بـ الكاد من مركز "القلوب العزيزة"، والذي تم عزله عمداً عن ضوضاء المدينة في حال تمكن القاطنون من التسلل من أفراد الأمن والتجول بـ ذهول وارتباك دون وعي.

لم أكن أستوعب بعد لماذا كانت طفلتاي هناك. كل ما كان يهم هو أنهما على قيد الحياة.

ثم ضربتني الحقيقة: **سيدج** لم تجب على سؤالي! وحارس الأمن لم يذكر أي شيء عن **بوني** أيضاً!

تقلبت معدتي وجاهدتُ لـ إبقاء عينَي مركزتين على الطريق أمامي.

سألت بينما كان العالم يمر في ظلال تتخللها إضاءة أضواء الشوارع البرتقالية خلف الزجاج الأمامي:

«**سيدج**، أين بوني؟»

«أمي، حاولتُ الاعتناء بها! حاولتُ بـ شدة..»

ثم بدأت تبكي بـ شدة لدرجة أنها لم تستطع حتى التحدث.

ضغطتُ على دواسة الوقود بقوة، وأنا أستمع إلى صوت نحيبها، حتى دخلتُ إلى موقف للسيارات مضاءً بأضواء زرقاء وحمراء من سيارات الشرطة، للمرة الثانية خلال يومين.

ناديتُ عبر نحيبي المخنوق، رافعةً يديّ في الهواء بينما خرجتُ من سيارة السوبارو ورأيتُ الشرطة تسرع نحوي عبر بوابة المنشأة المفتوحة:

«أنا هنا يا **سيدج**، أنا هنا!»

تجاهلتُهم ونظرتُ حول بـ جنون، يائسةً لـ الحصول على أي إشارة لـ **سيدج** أو **بوني**، متشبثةً بـ الأمل في أنني ربما أكون قد فهمتُ الأمر بـ الخطأ، وأن **بوني** والأطفال الآخرين بـ القرب من هنا.

صرختُ في وجه الضابط الذي مسك بي، بينما تساقطت الدموع والمخاط في فمي، مترنحةً نحوهم عبر ممر الباب حيث ودعتُ والدي قبل أربع وعشرين ساعة فقط:

«أنا أمهما!»

قال أقرب ضابط شيئاً ما في جهازه اللاسلكي وخفف من قبضته على ذراعي. ولم يحاول أي منهما إيقافي بينما افلتُّ منهما.

انفتح الباب الرئيسي بـ قوة، وكان هناك ممرضة—ووالدي.

و**سيدج**، مغطاة بـ التراب والدماء من رأسها إلى أخمص قدميها.

اندفعت موجة من الحب وعدم التصديق واصطدمت بـ قلبي بـ قوة لدرجة أنني لم أستطع التنفس.

كل ما استطعتُ فعله هو السقوط على ركبتَي وسحبها نحو صدري.

57

تيد

لم أسمع حتى سيارات الشرطة التي كانت خلفي بسبب ضجيج محرك الحفار.

هكذا كان مقدار الجهد الذي أردتُ إثباته وبذله!

قدم على دواسة البنزين، وقدم على الفرامل؛ يسار، يمين، يسار، يمين.

احفر، احفر، احفر! أخرج الأطفال، أنقذهم، ساعدهم! يا إلهي، لم يكن من الممكن أن يكونوا ميتين!

كنت قد أخبرت نفسي منذ زمن طويل أنني لن أقتل أي سناجب أخرى—أو أي شيء آخر—أبداً بعد الآن؛ فـ ذلك الشعور الخاوي والغثيان في معدتي كان أكبر من أن يُحتمل. وهؤلاء لم يكونوا سناجب لعينة... كانوا أطفالاً!

لو تركتُهم هناك في الأسفل بينما توجد فرصة لـ كونهم على قيد الحياة، لـ عرفتُ أن لا شيء سيكون بـ خير بعد الآن أبداً.

كنتُ شخصاً سيئاً، وعرفتُ ذلك. لكنني لم أكن قاتلاً؛ لم أكن كذلك! لذا كنتُ سـ أخرجهم، حتى لو اضطررتُ لـ التعفن في السجن لـ أجل ذلك.

كل ما تبقى لديّ كان هذا فحسب. وكل ما تبقى لـ أولئك الأطفال هو أنا!

حدث كل شيء بـ سرعة وبطء في الوقت نفسه بينما اقتحمت الشرطة المحجر بـ صراخها.

بـ سرعة، بينما سلطوا ضوء الكشاف مباشرة على وجهي وأمروني بـ رفع يديّ في الهواء والنزول من الحفارة. وبـ بطء، بينما تجمهروا حول الحفرة في الأرض وسحبوا أسلحتهم عندما رفضتُ التوقف عن الحفر. وبـ سرعة مجدداً، عندما سحبني أحدهم من المقعد وتولى المقود، محاولاً بـ يأس الوصول إلى قمة المخبأ.

طرحوني أرضاً ووضعوا الأغلال في يديّ، لكنهم لم يقودوني بعيداً. بدلاً من ذلك، صرخ ضابط بدين وذو لحية بـ أسئلة متتالية بـ سرعة فائقة فوق ضوضاء الآلة الضخمة:

«على أي عمق هم؟ كم لـهم في الأسفل؟ صف المخبأ!»

وفعلتُ؛ حتى اللوح الخشبي السميك في الأعلى وحجم البطارية التي تضغطه لـ الأسفل.

كنتُ قد حفرتُ عميقاً بـ القدر الكافي لدرجة أنه لم تمضِ سوى دقيقة واحدة حتى كشطوا الجزء العلوي من ذلك المخبأ.

صرختُ مشيرًا نحو ظلام كومة الخردة بينما تجمهر المزيد من عناصر الشرطة حول الحفرة، يسحبون التراب السائب بـ أي شيء يجدونه لـ فتح المساحة:

«هناك سلم هناك!»

فكرتُ في المكان الذي ربما سقطت فيه تلك البطارية الثقيلة وشعرتُ بـ الغثيان في معدتي.

جعلني عادم الحفارة والرعب الذي غمر كل خلية في جسدي أشعر وكأنني أختنق، وأنا أنتظرهم حتى يزيلوا آخر ما تبقى من ذلك الطين.

لكنني لم أكن أختنق، وكنتُ على وشك الوقوف وجه لـ وجه مع الأطفال الذين خاضوا تجربة انعدام الهواء بـ شكل حقيقي.

لأنه لو لم يكونوا قد سُحقوا حتى الموت تحت كل ذلك الطين، لـ كانوا يتنفسون ثاني أكسيد الكربون الخاص بهم طوال—كم مضى من الوقت منذ أن ركض **أندي** مطارداً تلك الطفلة الصغيرة؟ أين هو الآن؟ لم أكن أعرف، لكن المصابيح اليدوية التي تمسح التلال المرتفعة جعلتني أظن أن الشرطة تبحث عنه.

اهتزت الحفارة متوقفةً وحل السكون.

ثم سمعتُه... الصوت الذي عرفتُ أنه سيعيش في عظامي حتى اليوم الذي أموت فيه:

جوقة صغيرة وضعيفة من الأصوات، تتوسل لـ الحصول على المساعدة.

58

شينا

كان الوميض الأخضر الخافت لشاشات أجهزة المراقبة في غرفة المستشفى المظلمة بمثابة إضاءة ليلية كافية تمامًا، حتى تمكنت بوني وسيدج أخيرًا من النوم.

كان آخر شيء تمتمت به **بوني** بـ صوت ضعيف وخافت قبل أن تغلق عينيها هو:

«عديني ألا تنطفئ هذه الأضواء المتوهجة؟»

قلتُ لها وأنا أعصر الإصبع الوحيدة التي استطعتُ إيجادها دون جروح في يدها، مع الحرص على عدم تحريك أنبوب المغذي: «أعدكِ. أحبكِ يا دبوبي بوني».

كانت يدها الأخرى تمسك بـ قوة على ذراع **سيدج**. وكان الممرضون قد سمحوا لنا بـ دفع السريرين بـ جوار بعضهما البعض حتى تتمكن الفتاتان من التواصل والتلامس.

لم تحاول **سيدج** سحب ذراعها بعيداً لـ مرة واحدة.

قمت بمسح دموع جديدة من عينيّ وأنا أحدق في أشكال طفلتاي الجميلتين.

كانتا بـ أمان.

كانتا على قيد الحياة.

وكذلك كان جميع الأطفال التسعة الآخرين على الحافلة 315.

«لو كنت اتصلت بالشرطة ولو بعد دقيقة واحدة فقط، لـ كان بعض أولئك الأطفال قد ماتوا بـ التأكيد».

تلك الكلمات — التي قالها رئيس الشرطة — ستظل تطاردني طوال بقية حياتي. وكان المعنى الضمني، بالطبع، أنني كنت حمقاء لأنني انتظرت كل هذا الوقت. وأنني كنت محظوظة. محظوظة للغاية.

كانت مستويات ثاني أكسيد الكربون في ذلك المخبأ قريبة من خمس عشرة بـ المئة، بناءً على حدة أعراض الأطفال؛ وهي نسبة مميتة بـ شكل وشيك. لقد أخرجوا الأطفال من تلك الحفرة في الوقت المناسب تماماً.

لكن مجدداً، لم تكن بركة تلك الدقائق القليلة ملكاً لي وحدي لـأدعيها.

لو لم تصل **سيدج** إلى مركز "القلوب العزيزة" لـ توجيه الشرطة نحو طريق المحجر ذلك، لـ كان الوقت قد فات على أي حال.

ولو لم يبدأ ذلك الفتى ابن التسعة عشر عاماً—**«السيد إدوارد»**، أحد الخاطفين الذي طُرِد من روضة "برايت بيغينينغز"— بـالحفر بـاستخدام الحفارة في الوقت الذي بدأ فيه، لـ كان

الضباط، الذين لم يكن بحوزتهم سوى مجرفة واحدة، سيُجبرون على إضاعة الوقت في محاولة إيجاد مفاتيح الحفارة بـ يأس؛ أو ربما لم يكونوا لـ يستطيعوا إيجادها بـ المرة.

لم أكن أعرف كيف أشعر تجاه هذا الجزء بـ الذات.

أردتُ كره ذلك الصعلوك، وكنتُ مسرورة لأنه يقضي الليلة في سجن المقاطعة منتظراً جلسة الكفالة. لكن كل ما عرفتُه هو أنه عندما أفكر في عدد أحجار الدومينو المصطفة في كل اتجاه بناءً على الخيارات التي اتخذتُها، والخيارات التي اتخذها الخاطفون، والخيارات التي اتخذتها ابنتاي، كان من الصعب عليّ التقاط نفسي.

لو كنت اتصلت بالشرطة فور استلامي رسالة الفدية تلك، هل كانت يدا **سيدج** ستُضمَّدان حتى المرفقين؟ فقد كانتا مغطيتين بالكامل بالعضلات المكشوفة والخدوش والدماء، لدرجة أن الجلد بدا وكأنه قد نُزع كالقفاز.

أم هل كانت هي والأطفال الآخرون سيلقون مصيراً مختلفاً؟

ولو لم تحفر **سيدج** طريقها خروجاً من تلك الحفرة على مدار يوم كامل، هل كان المخبأ سيبقى متماسكاً بدلاً من الانهيار؟

أم هل كان الأطفال سيكونون كـ صيد سهل في جحر عندما أدرك الخاطفون أن هوياتهم ربما كُشفت عبر تلك الفتحة في النافذة المدهونة في الحافلة التي أخبرتني **سيدج** أنها كشطتْها

قبل أن يضعوهم في مقبرتهم؟ لقد جمعتُ أحداث الواقعة خلال الساعات القليلة الماضية بينما كانت **سيدج** تروي القصة لـالشرطة ومكتب التحقيقات الفيدرالي من خلف قناع الأكسجين الخاص بها، وهي مستلقية على سرير المستشفى.

أغلقتُ عينَي وتركتُ الدموع تقطر على وجنتيّ المشققتين.

انتحبت **بوني** في نومها:

«أمي!»

فتفتحت عيناني بـ قوة.

مسحتُ على ذراعها، حذرةً من ألا أزحزح أنابيب المغذي في يدها:

«أنا هنا يا صغيرتي، أنتِ بـ أمان».

فتوقف جفناها عن الاهتزاز.

تنهدت هي، وقربتُ كرسي المستشفى أكثر حتى أستطيع وضع رأسي بـ الجوار منها على الملاءات البيضاء النظيفة.

انزاح شريط الضوء أسفل الباب، والآتي من الممر، وأجبرتُ نفسي على عدم النظر إليه. كان هناك حارس متمركز خارج بابنا في جميع الأوقات.

في البداية، ظننتُ أنه هناك لأن الشرطة لم تكن قد قبضت بعد على الخاطف الثاني—**أندي مكواين**—الذي أُعلن اسمه في الصحافة مباشرة بمجرد انتشار أخبار الإنقاذ والاعتقال. لكن

عندما غادرتُ الغرفة لـ فترة قصيرة لـ الحصول على كوب من القهوة، رافقني ضابط آخر في الذهاب والاياب.

كان لا يزال لديّ إجابات—وربما أكثر من ذلك—لـ أقدمها عن خياراتي. كانت الشرطة قد اكتشفت بـ الظبط نصف الأموال النقدية التي سحبتُها من البنك في صندوق تبريد بـ القرب من مأوى مؤقت بـ القرب من المخبأ. ولـ حسن الحظ، نجح محامي **تيد باريت** في ترتيب إعادة أموال البتكوين إلى خزينة المدينة. أما النصف الآخر من النقود فـ كان لا يزال مفقوداً مع **أندي مكواين**. ولم أكن أعلم ما إذا كان سيتوجب عليّ إعادة سداد ذلك. كما لم أكن أعلم ما إذا كنتُ سأواجه دعوى قضائية خاصة بي من منطقة المدارس أو ربما حتى من المدينة في الأشهر القادمة. لكنني لم أسمح لنفسي بالانزلاق في دوامة القلق تلك بعد.

فالوقت وحده كفيل بـ الإجابة.

ومع ذلك، وكأنني فراشة تنجذب إلى اللهب، كنت أقرأ قسم التعليقات في مقالات الأخبار العاجلة.لم يُذكر اسمي كـ طرف متورط بعد؛ فقد كان الوقت مبكراً جداً على ذلك. لم تكن الصحافة تعرف معظم التفاصيل عما حدث الليلة، لكنهم سيعرفون. وكنتُ أعلم أن بعض الناس سيصفونني بـ الشجاعة،

بـ البطلة؛ بينما سيقول آخرون إنني أغبى شخص على قيد الحياة، مستهترة وأحمق.

كل ما عرفتُه الليلة هو أنني أستطيع سماع الصوت الخافت لـ تنفس ابنتيّ بـ جواري.

في مرحلة ما، أخبرني محقق يعمل على التحقيق أن السائقة، **جيسا لاندون**، احتُجزت لدى الشرطة هنا في المستشفى، حتى يتمكنوا من تبرئتها من أي تورط في عملية الاختطاف. لكنني عرفتُ في أعماقي أن لا علاقة لها بـ تعريض أطفالي لـ الخطر.

أقسمت كل من **سيدج** و**بوني** مراراً وتكراراً أن السيدة **جيسا** عاملت كل الأطفال كـ أطفالها تماماً بينما كانوا في ذلك المخبأ المظلم والرهيب؛ فقد كانت أماً صالحة لـ جميعهم.

ورغم أنني لم أنم لـ أكثر من أربع وعشرين ساعة، إلا أنني عرفتُ أن النوم لا يزال بعيد المنال بالنسبة لي. وبين القهوة والخوف من أنني لو أغلقتُ عينَي فـ ستختفي الفتاتان مجدداً، لم أكن أستطيع السماح لـ نفسي بـ الرمش لـ فترة طويلة.

لذا، وحذرةً من عدم إحداث الكثير من الضوضاء، سحبتُ قلماً ودفتر ملاحظات من حقيبتي على الأرض، وبدأتُ كتابة رسالة إلى الشخص الوحيد الآخر الذي ظننتُ أنه قد يفهم ما أشعر به في هذه اللحظة.

كانت الخطوط البيضاء تسبح بـ شكل ضبابي أمام عينَي المتعبتين، لكنني وضعتُ القلم على الورقة وبدأتُ الكتابة:

«عزيزتي جيسا...»

59

سيدج

بعد يومين

سمحت لنا أمي أنا و**بوني** بـ مشاهدة التلفاز بـ القدر الذي نريده طوال فترة وجودنا في المستشفى.

أخبرتني **بوني** أن بإمكاني اختيار العروض، فاخترت البرامج التي أعرف أنها تحبها—«*ماي ليتل بوني*» و«بافين روك»—لكن أياً منا لم تكن توالي اهتماماً حقيقياً لـ الشاشة المعلقة فوق سريَرينا.

كانت أمي معنا معظم الوقت، ولكن عندما كانت تخرج من الغرفة لـ بضع لحظات، كانت **بوني** تواصل البحث عن ذراعي عبر الفجوة بين السريرين. كنتُ أستطيع تمييز أنها لا تزال خائفة. ومن الطريقة التي كنتُ اشعر بهاّ بالسرور لمواصلتها فعل ذلك، استطعتُ إدراك أنني كنتُ لا أزال خائفة أيضاً.

كنتُ أظن أنه بمجرد أن نصبح بـ أمان، وبمجرد خروجنا من تلك الحفرة، سيكون كل شيء بـ خير.

وكنتُ مسرورة جداً جداً لـ خروجنا من تلك الحفرة.

لكن اليوم كان الصباح الثاني على التوالي الذي أستيقظ فيه متعرقة ومذعورة، أهز يديّ المضمادتين لـ الأعلى ولـ الأسفل وكأنني لا أزال أحفر في اللوح الخشبي المضغوط.

لـ بضع ثوانٍ عندما استيقظتُ هذا الصباح، لم أكن متأكدة ما إذا كانت غرفة المستشفى النظيفة—أم المخبأ—هي الحقيقة.

انزلقت دموع حارة على وجنتيّ. «*هذا هو الواقع*»، قلتُ لـ نفسي مراراً وتكراراً وأنا أحاول إعادة تنفسي إلى وضعه الطبيعي حتى لا أوقظ أمي أو **بوني**. كان الوقت لا يزال مبكراً—بـ الكاد أضاء النور خارج الستائر الخفيفة التي تغطي النوافذ في غرفتنا بالمستشفى.

لكن بغض النظر عن عدد المرات التي كررتُ فيها تلك الكلمات لـ نفسي، وبغض النظر عن عدد المرات التي نظرتُ فيها حول الأجهزة التي تصدر أزيزاً هادئاً واستنشقتُ رائحة المنظفات، شعرتُ وكأن جزءاً مني لا يزال عالقاً هناك في الحفرة.

لذا، فعلتُ الشيء الوحيد الذي كان يساعدني عندما كنتُ بالفعل عالقة في ذلك المخبأ؛ الشيء الذي طلبت منا الآنسة **جيسا** جميعاً أن نفعله: فكرتُ في الأشياء الجيدة.

وعلى عكس ما كان عليه الحال قبل يومين، كانت هناك الكثير من الأشياء الجيدة حولنا الآن. فكرتُ فيما سأختاره لـ وجبة الإفطار من قائمة المستشفى—فطائر الـ «وافل» مع الكريمة

المخفوقة والنيوتيلا. وكم سيكون الشعور رائعاً عند القفز على الترامبولين عندما أعود إلى المنزل، أدفن قدميّ وألوّح بـ ذراعيّ حتى تلامس أصابعي أطراف أوراق شجر القيقب فوقي. وكيف سأشعر بـ يد **بوني** في يدي، نظيفة ودافئة وبلا ضمادات عندما نتعافى كلتانا.

كنتُ أستطيع سماع تنهدات أمي في نومها على الجانب الآخر مني، وشعرها الداكن يتساقط عبر الملاءات البيضاء التي تغطي ساقيّ. كنتُ بـ أمان، و**بوني** بـ أمان. *هذا هو الواقع.*

بـ الكاد أغلقتُ عينَي مجدداً عندما جعلتْهما طرقاتٌ على الباب تتفتحان بـ قوة.

فزعت **بوني** وقبضت على ذراعي. أصدرت أمي صوت «أوه» وجلست بـ استقامة متفاجئة، وعيناها ترمشان بـ سرعة وكأنها كانت تستيقظ من شيء تفضل ألا تحلم به هي الأخرى.

عندما انفتح الباب، رأيتُ ضابط الشرطة الآتي من الممر، وممرضة—وجدي!

لابد أنني أنا و**بوني** قد صنعنا تعابير وجه مضحكة، لأن جدي أمال رأسه وضحك بـ صوت مدوٍّ في الغرفة الهادئة:

«لا تبدوا مسرورتين جداً بـ رؤيتي هكذا!»

قالها وهو يتثاقل بـ خطواته نحونا، ثم أردف:

«ها هما فتاتاي!»

وهو يسحب أمي إلى عناق محتفظاً بـ عينيه عليّ وعلى **بوني**.

شهقت **بوني** بـ مفاجأة:

«جدي، أنت هنا!»

كنتُ متفاجئة أيضاً، وإن لم أكن بـ قدر مفاجأتي في آخر مرة رأيتُه فيها—في ممر مركز "القلوب العزيزة"، والمسدس في يده بعد أن أخذه من صاحب الشعر الزيتي. كانت أمي قد شرحت لي ولـ **بوني** سبب وجوده هناك—وسبب قيادتها السيارة نحو مركز "القلوب العزيزة"، بـ الفعل عندما تحدثتُ معها عبر الهاتف. أستوضحت أن مرض الزهايمر لدى جدي كان قد تفاقم، ثم استلمتْ هي رسالة الفدية تلك من الخاطفين، ثم شيء ما يتعلق بـ ساعة «رولكس»... كنتُ قد توقفتُ نوعاً ما عن الاستماع إلى كل التفاصيل؛ لأن رؤيته—ثم رؤية أمي—في تلك الليلة جعلتني أنا و**بوني** نشعر وكأننا الأرنب الهارب من كتاب الأطفال الذي يقرؤونه لنا قبل النوم أحياناً: لم يكن يهم إلى أين يذهب الأرنب الصغير—فـ أمه ستجده، مهما حدث. وهكذا أردتُ أن أتذكر تلك الليلة.

ابتسمت الممرضة وأغلقت الباب بـ حذر بينما وجهت أمي جدي إلى الكرسي. تجعدت زوايا عينيه، ممتدة بـ غضون عميقة فوق وجنتيه بـ الطريقة نفسها التي تظهر بها عندما يكون عقله صافياً وسعيداً.

قالت أمي لي ولـ **بوني** وهي تميل لـ التأكد من أننا نستمع إليها: «نحن لا نزال نرتب كل شيء، لكن أحد الأطباء في مركز "القلوب العزيزة"، كان يراجع أدوية جديكم ورأى أن اثنين منها ربما كانا يجعلانه يعاني من اضطراب بـ شكل أسوأ بكثير».

نظرت إليّ وإلى **بوني**، وكأنها تريد التثبت مما إذا كنا نتذكر ما تعنيه تلك الكلمة.

هززنا رأسَينا لـ نظهر لها أننا نعرفها، فواصلت الحديث وهي تنقل نظرها بيننا وبين جدي:

«لا يزال جديكم يعاني من الزهايمر...»

وانكسر صوتها، ثم أردفت:

«وسيتوجب علينا مواصلة أخذ الأمور يوماً بـ يوم. ولكن... الطبيب متفائل. لذا في الوقت الحالي، سيزور مركز "القلوب العزيزة" خلال فترة النهار فقط، وسيعود إلى المنزل كل ليلة عندما تعودان من المدرسة وتنامان معنا في البيت».

سألتُها وأنا أشعر بـ غصة في حلقي وأنا أقول تلك الكلمات:

«عندما نعود من مركز "برايت بيغينينغز"، تقصدين؟»

هزت أمي رأسها ونظرت بيني وبين **بوني**:

«تبدوان كـ كبار بـ النسبة لي هذه الأيام. **سيدج**، كنتُ أفكر في أن بإمكانكِ الاعتناء بـ **بوني**، وسأحضر أنا جدكم عندما ينتهي عملي. لا مزيد من "برايت بيغينينغز" لـ كليكما».

فتح جدي فمه وكأنه يريد إضافة شيء ما، لكن عينيه كانتا تلمعان، فاكتفى بـ هز رأسه والابتسام بـ اتساع دون أن ينطق بـ كلمة.

قالت **بوني** وهي تترك ذراعي لـ المرة الأولى منذ يومين لـ تتمكن من عناق جدي:

«أوه، أمي! أوه، نعم!»

ابتلعتُ تلك الغصة الكبيرة في حلقي وشعرتُ بـ الفخر والخوف والمفاجأة في وقت واحد، متذكرةً بـ شكل مفاجئ كيف قالت **هارييت الجاسوسة**: *«الحياة غريبة جداً»*.

لم أكن أفهم حقاً ما كان يعنيه ذلك عندما قرأتُه لـ المرة الأولى... لكنني أفهمه الآن.

60

جيسا

خلال اليومين الماضيين في المستشفى، بدأت أشعر ببعض الإحساس في ساعديّ ويديّ.

لو بذلتُ جهداً حقيقياً، لـ كان بـ إمكاني رفع إبريق ماء المستشفى ذي الغطاء الأزرق وماصة الشرب الملتصقة به إلى شفتيّ لـ رشفة. لكن حتى الآن، لم أكن أستطيع الشعور بـ الكثير أسفل سرتي؛ لم أكن أستطيع التبول بـ مفردي، ولم أستطيع تحريك ساقيّ أو قدميّ لـ أكثر من بوصة واحدة. لقد تلقيتُ أسوأ ما في التأثير الناتجة عن التراب الثقيل المبلل—وما تبين أنها بطارية ضخمة—التي انهارت عبر الفتحة في اللوح الخشبي. كنتُ لا أزال خائفة جداً من النظر إلى جسدي أسفل ملاءات المستشفى، وأحيد بـ نظري كلما أتت الممرضة لـ تغيير ضماداتي.

أدى الاصطدام إلى كسر الفقرة القطنية الأولى؛ «*وهي نقطة اتصال حرجة بين المنطقتين الصدرية والقطنية*»، كما أخبرتني الطبيبة المختصة، وهو ما لم يكن يعني لي شيئاً. تذكرتُ ذلك فقط لأن **ليسا** كتبته، وعرفتُ أنها كانت تخطط لـ البحث عنه في «جوجل» بـ جنون بمجرد وصولها إلى المنزل.

وقالت لي بـالفِعل أكثر من دزينة من المرات:
«سنستوعب هذا الأمر ونحله يا جيس».
تذكرت أنها قالت الشيء نفسه تقريبًا قبل جلسة الاستماع التمهيدية مباشرةً. ربما كان ذلك ليزعجني في السابق — أن تحاول أختي أن تكون متفائلة وتندفع لإنقاذي من تداعيات ما يحدث في حياتي مرة أخرى. لكن بدلاً من ذلك، شعرتُ بالامتنان فحسب. وبالحب. وبأن الأمور ستكون مختلفة هذه المرة.
بالأمس عندما زارتني، أخبرتني أن **صوفي** سألت الكثير من الأسئلة عما حدث لي ولـ الأطفال على الحافلة. كما سألت عما إذا كنتُ سأكون بـ خير.
قررتُ أن أسمح لـ نفسي بـ الشعور بـ الحب لـ تلك اللفتة الصغيرة ولكن ذات المغزى الكبير أيضاً.
قالت الطبيبة إن هناك فرصة جيدة بـ شكل معقول لـ استعادة الشعور والحركة بمجرد أن يخف التورم في أسفل عمودي الفقري وتلتئم الأعصاب المتضررة. وتحدثت عن شيء يُدعى «الصدمة الشوكية»، وهي شلل مؤقت بسبب الرضوض الصدمية لـ الإصابة. كانت اللعبة الآن هي لعبة انتظار.
بدلاً من البحث عن الاحتمالات القاتمة الكامنة وراء تفاؤلها الذي صيغ بحذر، سمحت لنفسي بأن أشعر بالأمل الذي ينطوي

عليه، متخيلةً نفسي وأنا أشعر بالوخز في باطن قدمي مرة أخرى، وأمسك بالمقابض المطاطية لمشاية المساعدة لأجرّ نفسي من أجل العلاج الطبيعي، وأخطو خطواتي مرة أخرى بمفردي.

عندما لم أكن أغلق عينَي محاولةً إسقاط آمالي على المستقبل، كنتُ أستسلم بـ الكامل لـ استخدامات أقل صحية لـ وقتي— التصفح على هاتفي بـ أصابع مرتبكة. كانت الشرطة كريمة بـ القدر الكافي لـ إعادته إليّ من أدلة القضية طالما أنه لن تكون هناك حاجة إليه في التحقيق، بمجرد أن تحققوا من أنني لا علاقة لي بـ عملية الاختطاف. ولـ نكون منصفين، لم يكن لديّ الكثير لـ أفعله على أي حال.

في البداية، أردتُ فقط التأكد من أن جميع الأطفال بـ خير. وكانوا كذلك! كل طفل على قيد الحياة، مع إصابات طفيفة فقط، وجفاف، وإرهاق. وكان عدد قليل منهم لا يزال في المستشفى نفسه معي الآن.

كان مستوى الأكسجين في دم الجميع منخفضاً بـ شكل خطير عندما اقتحم مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) والشرطة أخيراً المخبأ المدفون، وكانت هناك الكثير من العناوين التي تصرخ عن كيف أننا كنا على بعد دقائق من الموت المحقق لو لم تتجمع قطع الأحجية بـ الظبط بـ الطريقة التي حدثت بها. قرأتُ تلك

المقالات مراراً وتكراراً، وشعرتُ بـ قشعريرة تسري في عمودي الفقري—وتتوقف عند الفقرة المصابة الملعونة—وأنا أفكر في حفر **سيدج** المصرّ، ومسك **بوني** والأطفال الآخرين لـ المراتب وذلك الدلو، والطريقة التي ركضت بها **سيدج** لـ طلب المساعدة وأخبرت الشرطة بـ كل ما تعرفه، والطريقة التي كانت بها الشرطة بـ القرب من المكان بـ الفعل بـ سبب إرسال **شاينا هالفيرسون** لهم، والطريقة التي استعاد بها أحد الخاطفين ضميره أخيراً وسحب الحفارة لـ حفر معظم الطريق لـ إخراجنا في الوقت المناسب تماماً.

عنوان هذا الصباح—الذي نُشر على جميع المواقع الإخبارية الرئيسية قبل عشرين دقيقة فقط—كان يصرخ بـ أنهم عثروا على **أندي مكواين** البالغ من العمر عشرين عاماً واعتقلوه. كان قد حاول رهن ساعة الـ «رولكس» ذات المشبك المكسور المميز—والعلامة التجارية المزيفة لـ أي شخص مطلع بـ شدة على الساعات الثمينة—لدى بائع تجزئة راقٍ خارج **بويسي** مباشرة.

وكان مكتب التحقيقات الفيدرالي متقدماً بـ خطوة بـ الفعل، حيث شارك صورة **أندي** وصورة نموذجية لـ الساعة مع كل بائع تجزئة، وصاحب محل رهن، ووسيط ساعات في ولاية أيداهو.

اتصل صاحب المتجر بالشرطة فور دخول الرجل إلى المتجر. وعندما حاول الهرب، انطلق أحد كلاب الشرطة وراءه، مما أدى إلى مطاردة تم تصويرها بالفيديو. لذا، لم يقتصر الأمر على أنه أصبح الآن في السجن بتهم جنائية تشمل الاختطاف والاعتداء الجسدي ومحاولة القتل مع ظروف مشددة للعقوبة وهي جرائم قد تصل عقوبتها إلى الإعدام في ولاية أيداهو بل إن مقطع الفيديو الذي يوثق محاولته المثيرة للشفقة للهروب من الكلب خارج محل الرهونات انتشر على نطاق واسع وأصبح المقطع الأكثر مشاهدة على موقع يوتيوب.

كانت المنافذ الإخبارية الكبيرة في الخارج تغطي كل جانب من جوانب القصة. وكان **أندي مكواين** الآن، دون أدنى شك، الرجل الأكثر كراهية في أمريكا؛ لدرجة أنهم اضطروا إلى نقله إلى الحبس الانفرادي لـ سلامته الخاصة في أول ليلة يقضيها في السجن.

كانت قراءة ذلك كافية لـ تجعلني أبتسم لـ وقت طويل جداً.

كان من الغريب القراءة عن نفسي بـ صيغة الغائب مجدداً أيضاً. لم يعد هناك أي أسرار حول ماضيي. فقد أصبحتُ من مشاهير الإنترنت بين عشية وضحاها، بطريقة طغت تمامًا على أي تغطية إعلامية حظيت بها محاكمتي السابقة. وهذه المرة، لم تكن صورتي في سجلات الشرطة وتعليقات غاري اللاذعة

حول شخصيتي محور المقالات. على الأقل، لم تكن كذلك في المقالات التي نُشرت بعد عملية الإنقاذ. ولفترة من الوقت، اكتشفتُ أنني كنتُ المشتبه به الرئيسي.

اعتبرني البعض قديسة لتمكني من الحفاظ على هدوء الأطفال وسلامتهم، في ظل تلك الظروف. بينما غضب آخرون لأنني ضللت منظمة «برايت بيغينينغز»، مستخدمةً اسمي قبل الزواج للتحايل على فحص السجل الجنائي خارج الولاية. بينما قام آخرون باستخراج تلك المقالات القديمة حول الحكم الصادر ضدي وربطوها بالمدعي العام الذي طُرد مؤخرًا في ولاية يوتا، ومحامي الدفاع الذي فقد ترخيصه مؤخرًا بسبب صفقات مشبوهة أُبرمت خلف أبواب مغلقة والضغط على العملاء لقبول صفقات اعتراف غير عادلة. كان ذلك محاميي.

كانوا يقولون إنه ما كان ينبغي لي الذهاب إلى السجن أبداً، وأن قضيتي الخاصة بـ الدفاع عن النفس كانت أكثر من قابلة لـ النقاش.

ظهرت مجموعة على فيسبوك تُدعى «**أنقذوا السيدة جيسا**». وتلقيتُ بـ الفعل اتصالات من خمسة محامين مختلفين يعرضون المساعدة في إلغاء إدانتي بـ شكل مجاني.

كان الاهتمام وعروض المساعدة مربكين ومجهدين قليلاً؛ ولم أكن قد اتصلتُ بـ أي من شركات المحاماة بعد. ومع ذلك، وتحت هذا الإجهاد، شعرتُ بـ تلك الوخزات من الأمل.

متقطعة الملامح، ركزتُ اهتمامي على رفع هاتفي إلى الطاولة بـ الجوار من السرير دون إسقاطه. ثم سحبتُ نفساً عميقاً وأمسكتُ بـ الظرف غير المفتوح والذي كُتب عليه اسمي بـ خط يدوي، والذي كان يقبع هناك منذ بعد ظهر الأمس.

كنتُ أعرف بـ الفعل ممن هذه الرسالة—ـف الممرضة التي سلمتها لي أخبرتني: **شاينا هالفيرسون،** أم **سيدج** و**بوني**. لكنني كنتُ خائفة من أن قراءة تلك الرسالة ستجعلني أشعر بـ هشاشة أكبر من رؤية صورتي وقصة حياتي وكل التعليقات الغامرة في مجموعة «أنقذوا السيدة جيسا».

وقبل أن أتراجع لـ المرة المليون، تعثرتُ بـ طية الظرف غير المغلقة لـ حسن الحظ، وسحبتُ ورقة واحدة مطوية على حجري، وبدأتُ القراءة:

«عزيزتي جيسا،

لقد كررتا ابنتاي اسمكِ في اليومين الماضيين لـ مرات أكثر مما أستطيع حشره أو عده.

إنها السادسة صباحاً تقريباً، وقد كتبتُ وأعدتُ كتابة هذه الرسالة في عقلي دزينة من المرات. لـ أقول لكِ كم أنا آسفة

لأنني تخيلتُ الأسوأ فيكِ، بينما كنتِ طوال الوقت تحمين طفلتيّ بـ أفضل ما لديكِ. ولـ أروي لكِ قصة عن طفلة صغيرة يرتدي سترة ذات غطاء رأس أحمر جرفها المحيط في ساحل أوريغون—وعن الأم التي سبحت نحو ما بدا وكأنه تدمير ذاتي لـ محاولة إنقاذ طفلها. وقبل كل شيء، لـ أقول لكِ شكراً لكِ من أعماق قلبي...»

جاء صوت مبحوح من خارج الباب:

«طق طق!»

فـ رفعتُ رأسي من الرسالة بـ جفلة.

أسقطتُ أصابعي المتصلبة الرسالة على الأرض بينما جفلتُ ودنوتُ بـ ذقني نحو ثوب المستشفى لـ مسح الدموع بـ أفضل ما يمكنني:

«ادخل!»

انفتح الباب بـ اتساع لـ يكشف عن وجه **ليسا** المبتسم.

قالت:

«آسفة لأن الوقت مبكر جداً، لكن شخصاً ما أراد رؤيتكِ قبل المدرسة، وظننتُ أنه يتوجب علينا الإسراع إلى هنا».

تثاقلت قامة أقصر وأرق لـ بضع بوصات إلى الأمام في فتحة الباب المفتوحة.

صوف... صوفي أبنتي!

تلاشت غرفة المستشفى، وكل ما استطعتُ رؤيته كان هي! طفلتي، التي لم تعد طفلة بعد الآن. كانت ترتدي قميصاً أرجوانياً بـ الدانتيل يظهر النمش على ذراعيها، وسروالاً قصيراً أصفر يبدو جديداً تماماً. وكان شعرها مصففاً في ذيل حصان منخفض وغرة، مع ناصية شعر مألوفة. ارتجفت ذقني، لكنني لم أجرؤ على الرمش خوفاً من أن تظهر فجأة وتختفي كـ السراب.

قالت بـ خجل، وخداها الورديان يزدادان حمرة وهي تتفحصني حيث أستلقي على سرير المستشفى:

«مرحباً».

تمكنتُ من الرد، وكنتُ مرعوبة من أنني سأخيفها بـ الانفراط في بكاء عالٍ في أي لحظة لو أردفتُ بـ المزيد:

«مرحباً».

أخذت **صوفي** خطوة نحوي، ثم أخرى، حتى أصبحت على بعد أقدام قليلة فحسب. ونظرت إلى الخلف نحو **ليسا**، التي كانت تتظاهر بـ التحدث إلى ممرضة عند فتحة الباب، ووجهها وكتفاها متجهان بعيداً عنا بـ شكل طفيف. لكنني استطعتُ الرؤية من الاهتزاز الخفيف لـ سترتها أنها كانت تبكي أيضاً.

لو كان هذا فيلماً، لـ كانت قد نادتني «*أمي*» لـ المرة الأولى منذ ثلاث سنوات، وركضت إليّ، وألقت بـ ذراعيها حول عنقي

وأخبرتني أنها تحبني؛ ولـ أمكنني حينها إخبارها كيف أنها كانت كل ما تمنيتُ رؤيته مجدداً عندما كنتُ في ذلك المخبأ.

بدلاً من ذلك، وبـ حذر، وكأنني أحاول عدم إخافة طائر صغير، أشرتُ إلى الكرسي بـ الجوار من سرير المستشفى بـ يد ترتجف:

«يمكنكِ الجلوس هناك لو أردتِ؟»

وكأنني أشاهد معجزة ضئيلة تتفتح أمام عينَي بـ المباشرة، ارتفعت زوايا شفتيها وأومأت، ثم جلست بـ الجوار مني.

وكان ذلك أكثر من كافٍ.